صفوة التفاسير

تفسير للقرآن العظيم، جامع بين المأثور والمعقول

مستمد من أوثق الكتب التفسيرية

(الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط) وغيرها

بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

نسخة منقحة ومصححة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة، جامعة الملك عبد العزيز

الجزء الأول

دار الصابوني

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤]
﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧]
صدق الله العظيم

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد:

فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد (صفوة التفاسير) وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة. وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقًا كبيرًا في الاختيار من أمهات كتب التفاسير التي رجع إليها على علم وبصيرة.

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن فقد سبق أن اختصر كتاب (تفسير ابن كثير) وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيدًا نافعًا خاليًا من كل تعقيد.

ولقد خص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه (روائع البيان في تفسير آيات الأحكام)، وهو كتاب يبرز الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم.

وسبق أيضًا أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان (التبيان في علوم القرآن)، وهاهو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهرة يانعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير.

ونرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه بكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب.

عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

مكة المكرمة

٢٠ صفر ١٣٩٦هـ ٢٢ فبراير ١٩٧٦م

كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء بلكهنو - الهند

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين،

وبعد:

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل وروي في الموضوع، فكانت كتب المؤلفين في التفسير، والحديث، والسيرة، والتاريخ - أشبه بموسوعات علمية، وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها: صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع، وتمكين القارئ من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه، فقد أحدث مشكلة - خصوصًا في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتدئ والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية، واختيار أقرب الأقوال وأقواها، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم.

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقًا كل التوفيق في وضع كتابه (صفوة التفاسير) فقد وفر على طلبة علم التفسير وقتًا طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسة وخلاصة التفاسير، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وعمقت ممارسته لفن التدريس، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيرًا وأثابه وتقبل عمله

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مكة المكرمة

٨/٤/١٣٩٦هـ

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد:

فإن أشرف ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة.. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها.. وليس ثمة جهد يضاهي جهد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمان ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾

وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاص لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعدد من جهابذة الأئمة المفسرين؛ لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، لهو توفيق من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكنه جل وعلا من تقديم هذه الكنوز المطلوبة في سفر واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عز وجل.

والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

جدة: ١٥ صفر ١٤٠٠هـ

الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠م

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد... لقد اطلعت على كتاب «صفوة التفاسير» لفضيلة الشيخ الفاضل الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً قيماً يحوي خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية.

فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة.. جزى الله مؤلفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه
راشد بن راجح الشريف
عميد كلية الشريعة والدراسات
الإسلامية بمكة المكرمة
مكة المكرمة ٢٤/١٠/١٣٩٦هـ

مكلمة فضيلة الشيخ عبد الله خياط

خطيب المسجد الحرام

كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لتفسير للقرآن العظيم في متناول طالب العلم، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة، ويغنيه عن المراجع المطولة، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن، وسبب النزول، وييسر له المعاني فيكون زاده وعدته، فكان كتاب (صفوة التفاسير) هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة؛ إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة، ولبى الحاجة.

والله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله خياط

خطيب المسجد الحرام

في اليوم الخامس والعشرين من شهر

شوال سنة ١٣٩٨هـ هجرية

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة

بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخرة، وبعد:

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة، فياض الأداء، بعيد عن المصطلحات الفنية، والمناقشات العلمية، همه الأكبر إبراز السياق السماوي، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء.

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية؛ إذ يسَّر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جملة غنيَّة بالحقائق، والحكم النافعة. وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مأثورات السلف واجتهادات الخلف، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول - كما يقولون - يستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معًا، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين.

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين، فإما إيجاز شديد وإما إطناب لا يطيقه المعاصر، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني - جزاه الله خيرًا - استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل، كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص.

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير.

محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين

بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ١٣٩٦/٤/٦هـ

مقدمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي العربي الأمين، الذي فتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الهادين الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف، يحتاج من يرغب في الحصول على لآلئه ودرره أن يغوص في أعماقه، ولا يزال القرآن يتحدّى أساطين البلغاء، ومصاقع الخطباء، بأنه الكتاب المعجز، المنزَّل على النبي الأمي شاهداً بصدقه، يحمل بين دفتيه برهان كماله، وآية إعجازه، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝﴾.

وعلى كثرة ما كتب العلماء والأئمة، وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة، وكتب نفيسة، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل، يبقى القرآن زاخراً بالعجائب، مملوءاً بالدرر والجواهر، يطالعنا بين حين وآخر، بما يبهر العقول ويحيّر الألباب، بما فيه من الإشراقات الإلهية، والفيوضات القدسية، والنفحات النورانية، بما هو كفيلٌ بتخليص الإنسانية من شقاء الحياة وجحيمها المستعر ... وكلُّ علم نضج واحترق إلا علم التفسير فإنه لا يزال بحراً لُجِّياً، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، لاستخراج كنوزه الثمينة، واستنباط روائعه وأسراره، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله، يرتشفون من معينه الصافي، ولا يرتوون ... ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام رب العزة جلَّ وعلا، وأن يدرك أسراره، ودقائقه، وإعجازه! وأن يزعم أنه ارتوى أو وصل إلى درجة الكمال!؟

إنه الكتاب المعجز، الذي سيظل ينبوع الإنسانية من علومه ومعارفه، ومن أسراره وحكمه، ما يرشدها ويدلها إلى أنه المعجزة الخالدة للنبي العربي الأمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

وإذا كان المسلم قد اضطرته المدنية لينشغل وقته في تحصيل معاشه، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة، التي خدم بها أسلافنا رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى، تبياناً وتفصيلاً لآياته، وإظهاراً لبلاغته، وتوضيحاً لإعجازه، وإبرازاً لما حواه الكتاب المجيد من

تشريع وتهذيب، وأحكام وأخلاق، وتربية وتوجيه، فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس، بأسلوب واضح، وبيان ناصع، لا حشو فيه ولا تطويل، ولا تعقيد ولا تكلف، وأن يبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان، بما يتفق وروح العصر الحديث، ويلبي حاجة الشباب المثقف، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم.

ولم أجد تفسيرًا لكتاب الله عز وجل - على ما رغبت - رغم الحاجة إليه، وسؤال الناس عنه، ورغبتهم فيه، فعزمت على القيام بهذا العمل، رغم ما فيه من مشقة وتعب، واحتياجه لوقت لا يتاح في هذا الزمان، مستعينًا بالله الكريم، مالك متوكلاً عليه، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب، وأن يوفقني لإخراجه بشكل يليق بكتاب الله تعالى، يعين المسلم على فهم آيات القرآن، والتزود من بيانه، ما يزيده إيمانًا ويقينًا، ويدفعه إلى العمل النافع الموصل إلى مرضاة الرب جل وعلا.

وقد أسميت كتابي (صفوة التفاسير) وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان، وكلي أمل أن يكون اسمه مطابقًا لمسماه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية، بما يوضح لها السبيل الأقوم، والصراط المستقيم.

وقد سلكت في طريقتي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

أولاً: بين يدي السورة، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية. ثانيًا: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة. ثالثًا: اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية. رابعًا: سبب النزول. خامسًا: التفسير. سادسًا: البلاغة. سابعًا: الفوائد واللطائف.

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات، أواصل فيه الليل بالنهار، وما كنت أكتب شيئًا حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها، وإنني أشكر المولى جل وعلا أن سهل لي هذا العمل، وقد كنت أشعر أن الزمن يطوى لي، وكل ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمئة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين.

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي، ويجعله لي ثواب يوم الحساب، فما عملت إلا أملاً بنيل رضاه، وأرجو منه أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، ويكتب ذخرًا لي يوم الدين. وأرجو ممن قرأ فيه واستفاد أن يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة - غرة ذي الحجة ١٣٩٩هـ

حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه.. إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف.. فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تُسمّى «أم الكتاب» لأنها جمعت مقاصده الأساسية.

فضلها:

أ - روى الإمام أحمد في المسند أن «أبي بن كعب» قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه».

فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

ب - وفي «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلّى: «لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيته».

تسميتها: تُسمّى «الفاتحة، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والشافية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد» وقد عدّدها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثنى عشر اسمًا.

اللغة: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقرونًا بالمحبة، وهو نقيض الذم وأعمّ من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد (الله) اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، قال القرطبي: هذا الاسم (الله) أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها. وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿رَبِّ﴾ الرب: مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره، قال الهروي: ويقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربَّه، ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب[1] والربُّ يطلق على عدة معان وهي «المالك، والمصلح، والمعبود، والسيد المطاع» ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العالَم: اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط، وهو يشمل الإنس والجن والملائكة والشياطين، كذا قال الفراء، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود

---

(١) القرطبي (١/ ١٣٣).

الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة، وقد روعي في كل من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر: فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن «فعلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائم الإحسان(١).

قال الخطابي: الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمت المؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾. ﴿الدين﴾ الجزاء ومنه الحديث «كما تدين تدان» أي كما تفعل تُجزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقًا بأقصى الخضوع(٢) ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك، قال الشاعر:

شحنّا أرضهم بالخيل حتى ... تركناهم أذل من الصراط

﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف. (آمين) أي استجب دعاءنا، وليس من القرآن إجماعًا.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۝ الحمد لله رب العالمين ۝ الرحمن الرحيم ۝ مالك يوم الدين ۝ إياك نعبد وإياك نستعين ۝ اهدنا الصراط المستقيم ۝ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ۝﴾.

التفسير: علّمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي: الحمد لله، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد، المتفرد بالخلق والإيجاد، رب الإنس والجن والملائكة، ورب السموات والأرضين، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مالك يوم الدين﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي نخصك يا الله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلا نعبد أحدًا سواك، لك وحدك نذلّ ونخضع ونستكين ونخشع، وإياك رب نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ

---

(١) كذا في تفسير ابن جماعة.
(٢) الكشاف ١/ ١٠

سواك. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق من تفضلت عليهم بالجود والإنعام، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم، السالكين غير المنهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية. اللهم آمين.

البلاغة:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى أي قولوا: «الحمد لله»، وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم: الكرم في العرب.

٢- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال: إياه نعبد، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

٣- قال في البحر المحيط: وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع.

الثاني: المبالغة في الثناء لعموم «أل» الاستغراقية.

الثالث: تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله.

الرابع: الاختصاص في قوله «لله».

الخامس: الحذف كحذف صراط في قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تقديره: غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين.

السادس: التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

السابع: التصريح بعد الإبهام ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الثامن: الالتفات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

التاسع: طلب الشيء والمراد دوامه واستمراره في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي ثبتنا عليه.

العاشر: السجع المتوازي في قوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقوله ﴿نَسْتَعِينُ﴾، ﴿الضَّالِّينَ﴾[1]

(١) البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٦).

الفوائد:

الأولى: الفرق بين (الله) و (الإله) أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره.

الثانية: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل: «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعًا نعبدك ونستعين بك.

الثالثة: نسب النعمة إلى الله عز وجل ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل: غضبت عليهم أو الذين أضللتهم، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه تقديرًا «الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك».

خاتمة في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة «مقدمة في التفسير» ما نصه: «لا شك أن من تدبّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها، وروعة التنسيق وجلاله ما يأخذ بلبه، ويستولي على جوانب عقله، فهو يبتدئ ذاكرًا تاليًا متيمنًا باسم الله الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وذكر الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله، وجميل آلائه المتمادية في تربيته للعوالم جميعًا، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة، ليست عن رغبة ولا رهبة، ولكنها عن محض رحمة، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمة بالعدل، ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فتربية تخالفه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفًا تحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فيلجأ إليه ويعتمد عليه ويخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضالين التائهين، الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه، آمين. ولا جرم أن «آمين» براعة مقطع في غاية الجمال والحسن، وأي شيء أليق بهذه البراعة من فاتحة الكتاب، والتوجه إلى الله بالدعاء؟ فهل رأيت تناسقًا أدق، أو ارتباطًا أوثق مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل...» الحديث، وألزم هذا التدبر والإلهام، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهل، وخشوع وتذلل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات، من غير تكلف ولا تطريب، والتشاغل بالألفاظ عن المعاني، فإن ذلك يحجب عن القلب كثيرًا مما يفاض من ثنايا التدبر، وما في العبادة شيء أفضل من تلاوة في تدبر وخشوع»[1].

«انتهى تفسير سورة الفاتحة»

---

(١) مقدمة في التفسير ص ٩٤.

سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات.

بين يدي السورة

سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية

اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر «آدم» عليه السلام، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل «اليهود» لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق... إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون، مما يوضح عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة، بدءاً من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع؛ لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمس الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

«أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد في سبيل الله، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدة، تحريم نكاح المشركات، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض... إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة؛ لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر».

ثم تحدثت السورة الكريمة عن «جريمة الربا» التي تهدد كيان المجتمع وتقوض بنيانه، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من

يتعامل بالربا أو يقسم عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم، وآخر وحي تنزّل من السماء إلى الأرض، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، بعد أن أدى الرسالة وبلّغ الأمانة.

وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جل وعلا برفع الأغلال والآصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام!!

التسمية: سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله.

فضلها: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم والترمذي. وقال ﷺ: «اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة» يعني السحرة. رواه مسلم في صحيحه.

□□□

قال الله تعالى: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ... إلى ... ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٥).

اللغة: ﴿رَيْبَ﴾ الريب: الشك وعدم الطمأنينة، يقال: رابني الشيء، وأمر مريب إذا كان فيه شك وريبة. قال الزمخشري: الريب: مصدر رابه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها، ومنه ريب الزمان لنوائبه[1] ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه، قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته، وجماع التقوى: أن يمتثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس، وكل شيء

(١) الكشاف ١/٢٧.

مستور فهو غيب كالجنة والنار والحشر والنشر، قال الراغب: الغَيْبُ: ما لا يقع تحت الحواس[1] ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز والنجاح قال أبو عبيدة: كُلُّ من أصاب شيئاً من الخير فهو مفلح[2] وقال البيضاوي: المفلح: الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[3]، وأصل الفلح في اللغة: الشق والقطع ومنه قولهم: «إنَّ الحديد بالحديد يُفْلَح» أي يُشَقُّ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كَفَرُوا﴾ الكفر لغة: ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها، ومنه قيل للزارع والليل: كافر، قال تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي أعجب الزُّرَّاع، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿خَتَمَ﴾ الختم: التغطية على الشيء والطبعُ عليه حتى لا يدخله شيء، ومنه خَتْمُ الكتاب. ﴿غِشَاوَةٌ﴾ الغشاوة: الغطاء، من غَشَّاه إذا غطاه، ومنه الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناس بأهوالها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

التفسير: ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظاً غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آيات بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن يقول العلاّمة ابن كثير رحمه الله: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[4] ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هدى للمؤمنين

(١) مفردات القرآن للراغب.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٩).
(٣) البيضاوي (١/١٠).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (١/٢٧).

المتقين، الذين يتقون سخط الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، قال ابن عباس: المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله. وقال الحسن البصري: اتقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوا ما افتُرض عليهم. ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها، قال ابن عباس: إقامتُها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[1] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، وهذا اختيار ابن جرير، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال، قال ابن كثير: كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌّ من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[2] ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به من عند الله تعالى ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ريب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ، وجنةٍ ونار، وحساب، وميزان، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة على نورٍ وبيانٍ وبصيرة من الله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أسند الهداية للقرآن، وهو من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله رب العالمين ففيه مجاز عقلي.

٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ للإيذان بعلو شأنه، وبُعد مرتبته في الكمال، نُزِّل بُعْدُ المرتبة منزلة البعد الحسي.

٣ - تكرير الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين، وجيء بالضمير ﴿هُمُ﴾ ليفيد الحصر كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.

٤ - التيئيس من إيمان الكفار ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالجملة سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان، وعدم استعدادهم للإيمان، ففيها تيئيس وإقناط من إيمانهم.

---

(١) هذا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١ / ٢٠).

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ شبّه قلوبهم لتأبيها عن الحق، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية[1].

المناسبة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتمييز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة «وبضدها تتميز الأشياء».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي سواء أحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له. ثم بيّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، قال المفسرون: الختم: التغطية والطبع، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2] ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه. قال أبو حيان: شبّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحق، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره، وهذا بطريق الاستعارة[3] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد لا ينقطع بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

(١) انظر تلخيص البيان للشريف الرضي ١/ ٣ والبحر المحيط لأبي حيان (١/ ٤٨).
(٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل.
(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٤٩).

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... إلى ... إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا المنافقين وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإِيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبّه إِلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إِليه حالهم من الهلاك والدمار.

اللغَة: ﴿يُخَادِعُونَ﴾ الخداع: المكر والاحتيال وإِظهار خلاف الباطن، وأصله الإِخفاء، ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله، وسُمي المخدَع مخدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَّرَضٌ﴾ المرض: السُّقْم وهو ضد الصحة، وقد يكون حسياً كمرض الجسم، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء، قال ابن فارس: المرضُ: كلُّ ما خرج به الإِنسان عن حد الصحة من علةٍ أو نفاق، أو تقصير في أمر ﴿تُفْسِدُوا﴾ الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السُّفَهَاءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار، وأصل السَّفَه: الخِفَّة، والسفيه: الخفيف العقل، قال علماء اللغة: السَّفه: خفةٌ وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل، والحِلْمُ يقابله [1] ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ العَمَه: التحير والتردُّد في الشيء يقال: عَمِهَ يعْمَه فهو عَمِه قال رؤبة: "أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه" قال الفخر الرازي: العَمَهُ مثل العمى، إِلا أنَّ العَمَى عام في البصر والرأي، والعَمَه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه [2] ﴿اشْتَرَوُا﴾ حقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء: اشتراه، قال الشاعر:

فإِن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم ... فإِني اشتريتُ الحلم بعدكِ بالجهل

﴿صُمٌّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عُمْيٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿كَصَيِّبٍ﴾ الصَّيِّبُ: المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة، قال الشاعر: "أسقتك روايا المزن حيث تصوب" ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ جمع صاعقة وهي نار محرقة لا تمر بشيء إِلا أتت عليه، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿السَّمَاءِ﴾ السماء في اللغة: كلُّ ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر:

---

(١) انظر تهذيب اللغة، والصحاح، والقاموس.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/٧٠.

وعملي، وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[١] ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ولا يحسون بذلك ولا يفطنون إليه لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجسًا فوق رجسهم، وضلالًا فوق ضلالهم، والجملة دعائية، قال ابن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضًا في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجسًا وشكًّا[٢] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي ولهم عذاب مؤلم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن. ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصدّ عن سبيل الله، قال ابن مسعود: الفسادُ في الأرض هو الكفر، والعملُ بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي ليس شأننا الإفساد أبدًا، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك، قال البيضاوي: تصوّروا الفساد بصورة الصلاح؛ لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ولذلك ردّ الله عليهم أبلغ ردّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد ﴿أَلَا﴾ المنبهة و﴿إِنَّ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور[٣] فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقًا لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يحسّون؛ لانطماس نور الإيمان في قلوبهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيمانًا صادقًا لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال صهيب، وعمار، وبلال ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي: وإنما سفّهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال[٤] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقًا، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهًا بلا امتراء، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى والبعد عن الهدى. أكّد ونبّه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال تعالى منبهًا إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقًا ومصانعة ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٣٣).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٣٣).
(٣) البيضاوي (١/ ١٦).
(٤) البيضاوي (١/ ٢٣).

وكبرائهم أهل الضلال والنفاق ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى ردًا عليهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال، قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال ابن كثير: هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[1]، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ومثل ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ فالأول ظلم، والثاني عدل ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه المعاوضة والبيع ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك؛ لأنهم خسروا سعادة الدارين، ثم ضرب تعالى مثلين وضّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد نارًا ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته في ظلام دامس وخوف شديد ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر واطمأن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار وعدم النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي وأبقاهم في ظلمات كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون، قال ابن كثير: ضرب الله للمنافقين هذا المثل، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر بها عن يمينه وشماله، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغيَّ على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[2] ﴿صُمٌّ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيرًا ﴿بُكْمٌ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْيٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرجعون عمّا هم فيه من الغي والضلال، ثم ثنّى تعالى بتمثيل آخر

---

(١) يسمى هذا النوع عند علماء البيان «المشاكلة» وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله:

قالوا اقترح شيئًا نُجِدْ لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبةً وقميصا

(٢) مختصر ابن كثير (١/٣٦).

التي تفيد التنبيه، و﴿إنّ﴾ التي هي للتأكيد، وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ثم تعريف الخبر ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ ومثلها في التأكيد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه.

سادساً: المشاكلة ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ سمَّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

سابعاً: الاستعارة التصريحية ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[1].

ثامناً: التشبيه التمثيلي: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وكذلك في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفي المثال الثاني شبَّه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شُبهات الكفار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق.. إلخ[2].

تاسعاً: التشبيه البليغ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

عاشراً: المجاز المرسل ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء، أي رؤوس أصابعهم؛ لأن دخول الأصابع كلها في الأذن لا يمكن.

الحادي عشر: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهذا له وقع في الأذن حسن وأثر في النفس رائع مثل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية[3].

الفوائد:

الأولى: الغاية من ضرب المثل: تقريب البعيد، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

الثانية: وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب، الخداع، المكر، السفه، الاستهزاء، الإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين.

الثالثة: حكمة كفِّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان

---

(1) قال الزمخشري: وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا. انظر الكشاف (1/ 135).
(2) قال الفخر الرازي: والتشبيه هنا في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين خسر نفسه أبد الآبدين. الرازي (2/ 73).
(3) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية، والصور البلاغية ما يدركه الإنسان ويعجز عن وصفه اللسان.

إليه نارًا؟(١) ﴿وَقُودُهَا﴾ الوقود: الحطب الذي توقد به النار، قال القرطبي: الوَقود (بالفتح) الحطب، (وبالضم) مصدر بمعنى التوقّد(٢) ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت وأعدت: هيأنا، قال البيضاوي: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت لهم وجعلت عُدّة لعذابهم(٣) ﴿وَبَشِّرِ﴾ البشارة: الخبر السارّ الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زوج، ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول: زوجة ﴿خَالِدُونَ﴾ باقون دائمون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾.

التفسير: يقول تعالى منبهًا العباد إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح، قال البيضاوي: لما عدَّد تعالى فرق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزًّا للسامع، وتنشيطًا له، واهتمامًا بأمر العبادة وتفخيمًا لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكلُّ ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ(٤). ثم عدَّد تعالى نعمه عليهم فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي جعلها مهادًا وقرارًا، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش عليها كالفراش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها قال البيضاوي: جعلها مهيأة لأن يقعدوا وينامو عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطّحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها(٥) ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي سقفًا للأرض مرفوعًا فوقها كهيئة القبة

---

(١) الكشاف (١/٧٢).

(٢) القرطبي (١/٢٣٨).

(٣) البيضاوي (١/١٨).

(٤) البيضاوي (١/٢٦).

(٥) نص المرجع السابق بالصفحة ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور رواد الفضاء حولها في هذا العصر.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطرًا عذبًا فراتًا أنزله بقدرته من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضر غذاءً لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئًا ولا ترزق، وأن الله هو الخالق الرزاق وحده، ذو القوة المتين، قال ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم، وإسباغه عليهم النعم، والمرادُ بالسماء هنا: السحاب، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقًا لهم ولأنعامهم، ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[1]. ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي وإن كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه، والمراد: استعينوا بمن شئتم غيره تعالى، قال البيضاوي: المعنى: ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله[2] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دلّ عليه ما قبله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضًا على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل، كقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي معينًا، قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و﴿لَن﴾ لتأبيد النفي في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارَضُ بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يُعارَض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام[3] ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي فخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي التي مادتها التي تُشعل بها وتضرم

---

(١) مختصر ابن كثير (٣٨/١) (٢) البيضاوي (١٢/١)

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٤٠/١)

لإيقادها من الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هيئت تلك النار وأُرصدت للكافرين الجاحدين، يذوقون فيها ألوان العذاب المهين.

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وبشّر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقًا من ثمار الجنة ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا مثل الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة، قال المفسرون: إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قُدِّم لهم مرة ثانية قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة: كُلْ يا عبد الله فاللونُ واحدٌ والطعمُ مختلف[2] قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي متشابهًا في الشكل والمنظر، لا في الطعم والمَخْبَر قال ابن جرير: يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم، قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة زوجات من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية، قال ابن عباس: مطهَّرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: مطهَّرة من الحيض والنفاس، والغائط والبول والنخام، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع.

البلاغة:

١ - ذكر الربوبية ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم.

٢ - الإضافة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ للتشريف والتخصيص، وهذا أشرف وصف لرسول الله ﷺ.

٣ - التعجيز ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى التعجيز، وتنكير (سورة) لإرادة العموم والشمول.

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء،

---

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

والفرش والبناء وهذا من المحسنات البديعية.

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان.

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي فإن عجزتم فخافوا من عذابه بتصديقكم بالقرآن.

□□□

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ... إلى ... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٢٩).

المناسبة: لما بيَّن تعالى بالدليل الساطع، والبرهان القاطع أن القرآن كلام الله لا يتطرق إليه شك، وأنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من قصار سوره، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل) إلخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام رب الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردَّ عليهم بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حِكَم بالغة.

اللغة: ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، والمراد به هنا: لازمه وهو الترك، قال الزمخشري: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما دونها في الصغر ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال الفراء: الفاسق: مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت، فسمي الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة[2] ﴿يَنقُضُونَ﴾ النقض: فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء، أو حبل، أو عهد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق ﴿عَهْدَ﴾ العهد: الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال: عهد إليه أي أوصاه ﴿مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق: العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد ﴿اسْتَوَىٰ﴾ الاستواء في الأصل: الاعتدال والاستقامة يقال: استوى العود إذا قام واعتدل، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصداً مستوياً، وقال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشيء[3].
﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه: صيرهن.

سبب النزول: لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟!

(١) الكشاف ج١ (ص٨٥). (٢) التفسير الكبير للرازي ج٢ (ص١٤٤).
(٣) الصاوي على الجلالين ج١ (ص١٩)، والكشاف ج١ (ص٩٢).

وأنزل الله الآية[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾

التفسير: يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع من أن يضرب أي مثل كان بأي شيء كان صغيراً كان أو كبيراً ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته.. ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والقرابات، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وقطع الأرحام، وترك موالاة المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى: كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي وقد كنتم في العدم نطفاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث

---

(1) القرطبي ج1 ص 242، والصاوي ج1 ص 26.

من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي ثم وجه إرادته إلى السماء ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم ؟! بلى إنه على كل شيء قدير.

البلاغة :

١ - قوله : ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، المعنى : لا يترك ، فعبّر بالحياء عن الترك ؛ لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه[١].

٢ - قوله : ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ - قوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع ؛ فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور ، وهو ضرب من ضروب البديع .

٤ - قوله : ﴿عَلِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه : الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، قال أبو حيان : وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى[٢] .

الفوائد :

الأولى : قال الزمخشري : التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له ، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحاً جلياً ، كيف تمثّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ليس أحقر منها وأقل ، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ والعجب منهم كيف أنكروا ذلك ، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم[٣] .

الثانية : قدّم الإضلال على الهداية ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ ليكون أول ما

---

(١) أفاده الزمخشري . (٢) البحر المحيط ج١ (ص١٣٦) .
(٣) الكشاف ج١ (ص٨٣) .

يقرع أسماعهم من الجوانب أمرًا فظيعًا يسوءهم ويحدث في أعصابهم. وأوثرت صيغة الاستقبال إيذانًا بالتجدد والاستمرار، أفاده العلامة أبو السعود[1].

ثالثًا: قال ابن جزي في التسهيل: وهذه الآية ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ ظاهره خلاف ذلك، والجواب من وجهين: أحدهما: أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض، والآخر: تكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأخبار[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ إلى ... ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٣٣).

المناسبة: لما امتنّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعًا، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيمًا لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يذكرهم بذلك؛ لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم.

اللغة: ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر حين أو اذكر وقت، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال المبرد: إذا جاء ﴿إِذْ﴾ مع مستقبل كان معناه ماضيًا نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ معناه: إذ مكروا، وإذا جاء ﴿إِذَا﴾ مع الماضي كان معناه مستقبلًا كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي يجيء[3]. ﴿خَلِيفَةً﴾ الخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة، سمي خليفة لأنه مستخلف من الله عز وجل في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ﴿وَيَسْفِكُ﴾ السفك: الصب والإراقة ولا يستعمل إلا في الدم قال في المصباح: وسفك الدم: أراقه وبابه ضرب ﴿نُسَبِّحُ﴾ التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن السوء[4]، وأصله من السبح وهو الجري والذهاب قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ فالمسبح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ التقديس: التطهير ومنه الأرض المقدسة، وروح القدس، وضده التنجيس، وتقديس الله معناه: تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به

---

(١) إرشاد العقل السليم ج١ (ص٦٠). (٢) التسهيل في علوم التنزيل ج١ (ص٤٣).
(٣) القرطبي ج١ (ص٢٦٢).
(٤) روى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عن كل سوء» القرطبي ج١ (ص٢٧٦).

شيء، فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه [1].

البلاغة

١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر.

٢ - الأمر في قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت [2].

٣ - ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه مجاز بالحذف، والتقدير: فأنبأهم بها فلما أنبأهم، حذف لفهم المعنى.

٤ - ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ هو من باب التغليب؛ لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور، ولو لم يغلب لقال: (ثم عرضها) أو عرضهن.

٥ - إيراد المجمل في قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.

٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى «الطباق» وذلك في كلمتي ﴿تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾.

الفوائد

الأولى: قال بعض العلماء: في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.

الثانية: الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد -لا لافتقار الله- وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة، ولا بواسطة ملك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة: قال الحافظ ابن كثير: وقول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض [3]؟ وقال في التسهيل: وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم [4].

الرابعة: سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده! قال: ثم قرأت قوله تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم [5].

---

(١) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٥، وأبو السعود ج ١ ص ٦٩. (٢) أفاده أبو السعود.
(٣) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٥٤. (٤) التسهيل لابن جزي ج ١ ص ٤٣.
(٥) محاسن التأويل ج ٢ ص ١٠٤.

المناسبة: أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصّ آدم عليه السلام بالخلافة كما خصّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به، ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أشهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام.

اللغة: ﴿اسْجُدُوا﴾ أصل السجود: الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم، وهو في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو اليأس ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع، والإباء: الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار: التكبر والتعاظم في النفس ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً كثيراً لا عناء فيه، والرغد: سعة العيش، يقال: رغد عيش القوم إذا كانوا في رزق واسع، قال الشاعر:

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيش رغد

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أصله من الزلل، وهو عثور القدم يقال: زلّت قدمه، أي: زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازاً؛ يقال: زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه، وأزلّه غيره: إذا سبّب له ذلك[1] ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فَتَلَقَّىٰ﴾ التلقي في الأصل: الاستقبال تقول خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها وقبلتها ﴿فَتَابَ﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع، وإذا عُدّيت بـ «من» كان معناها الرجوع عن المعصية، وإذا عُدّيت بـ «على» كان معناها قبول التوبة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي فتصيرا من الذين

---

[1] مختصر الطبري ١/ ٤٢

ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها، هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحولهما من الجنة[1] ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدو لكم فكونوا أعداء له كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها، وهذه الكلمات مفسرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة لعباده ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أن إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة[2] ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعاذنا الله منها.

البلاغة:

أولاً: صيغة الجمع ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ للتعظيم وهي معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم تربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانياً: أفادت الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ أنهم سارعوا في الامتثال ولم يتثبطوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له وكذلك ﴿أَبَىٰ﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثاً: قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهيٌ عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعاً: التعبير بقوله ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من النعيم أو الجنة، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

خامساً: ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة.

الفوائد

الأولى: كيف يصح السجود لغير الله؟ والجواب أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاة وعبادة. قال الزمخشري: السجود لله تعالى على سبيل

(٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين، والأول اختيار الطبري.

سجدة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم ، ويعقوب وأبناؤه ليوسف[1] .

الثانية : قال بعض العارفين : سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية ، ولا يُحط عن رتبة الولاية ، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس ، ولم تسلبه رتبة الخلافة ، بل أجزل الله له في العطية فقال ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ وقال الشاعر

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع[2]

الثالثة هل كان إبليس من الملائكة؟ الجواب : اختلف المفسرون على قولين : ذهب بعضهم إلى أنه كان من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وقال آخرون : الاستثناء منقطع ، وإبليس من الجن وليس من الملائكة ، وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري ، قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية :

١ - الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ وإبليس قد عصى أمر ربه .

٢ - الملائكة خلقت من نور ، وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة .

٣- الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾؟

٤ - النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى .

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وكفى به حجة وبرهاناً[3] .

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . إلى . . . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٤٣) .

المناسبة : من بداية هذه الآية إلى آية (١٤٢) ورد الكلام عن بني إسرائيل ، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزء كامل ، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود ، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبث وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون ، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده ، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده ، ثم ذكرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام ، دعا بني إسرائيل خصوصاً -وهم اليهود- إلى الإيمان بخاتم الرسل وتصديقه فيما جاءه به عن الله ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد تفنن القرآن في مخاطبتهم ، فتارة دعاهم بالملاطفة وتارة بالتخويف وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم ، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم ، وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية ، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل .

---

(١) الكشاف ١/ ٩٥ . (٢) البحر المحيط ١/ ١٤٤ .

(٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا (النبوة والأنبياء) .

اللغَة: ﴿إسرائيل﴾ اسم أعجمي ومعناه: عبد الله وهو اسم «يعقوب» عليه السلام وقد صرح به في آل عمران ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ الآية ﴿أوفوا﴾ الوفاء: الإتيان بالشيء على التمام والكمال، يقال: أوفى ووفى أي أتمه ووفى تام ﴿تلبسوا﴾ اللبس: الخلط تقول العرب: لبست الشيء بالشيء خلطته، والتبس به اختلط، قال تعالى ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ وفي المصباح: لبس الثوب من باب تعب لُبْساً بضم اللام، ولبست عليه الأمر لبساً من باب ضرب خلطته، والتبس الأمر: أشكل ﴿الزكاة﴾ مشتقة من زكا الزرع يزكو، أي نما، لأن إخراجها يجلب البركة، أو هي من الزكاة أي الطهارة، لأنها تطهر المال، قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الآية.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾.

التفسير: ﴿يا بني إسرائيل﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وإياي فارهبون﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ من القرآن العظيم ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وإياي فاتقون﴾ أي خافون دون غيري. ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وتكتموا الحق﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة وصلوا مع المصلين بالجماعة، أو مع أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

البلاغة:

أولاً: في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نعمتي﴾ إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برها، وحسن موقعها، لأن الإضافة تفيد التشريف كقولك: بيت الله، و﴿ناقة الله﴾.

ثانياً: قوله ﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

ثالثاً: تكرير الحق في قوله ﴿تلبسوا الحق﴾ وقوله ﴿وتكتموا الحق﴾ لزيادة تقبيح المنهيّ عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا «الإطناب» أضعف من سواه.

التفسير: يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السلام ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بين لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿واستعينوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بالصبر والصلاة﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وإنها﴾ أي الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الذين يظنون﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم. ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ أي معادهم إليه يوم الدين. ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه عليهم مرة أخرى فقال: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وأني فضلتكم﴾ أي فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعلهم سادة وملوكاً، وتفضيل الآباء شرف للأبناء ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن أخرى شيئاً من المعروف ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

البلاغة

أولاً: ﴿أتأمرون﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع.

ثانياً: أتى بالمضارع ﴿أتأمرون﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وتنسون أنفسكم﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ.

ثالثاً: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فلما قال: ﴿اذكروا نعمتي﴾ عم جميع النعم فلما عطف: ﴿وأني فضلتكم﴾ كان من باب عطف الخاص على العام.

رابعاً: ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديد الهول، وتنكير النفس ﴿نفس عن نفس﴾ يفيد العموم والإقناط الكلي.

الفوائد

الفائدة الأولى: قال القرطبي: إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها، وقد كان عليه السلام إذا حزبه (أهمه) أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: (أرحنا بها يا بلال)

التفسير: ﴿وإذ نجيناكم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿من آل فرعون﴾ أي من بطش فرعون وأتباعه العتاة، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ لأن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء محنة واختبار عظيم من الله لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البر من الفاجر ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك، فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ أي واعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي عبدتم العجل ﴿من بعده﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ذلك الاتخاذ الشنيع ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

ثم بين تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده به ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿باتخاذكم العجل﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذلكم﴾ أي القتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فتاب عليكم﴾ أي قبل توبتكم ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة.

البلاغة: قال أبو حيان: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يلزمونكم إياه، وهو استعارة من السوم في البيع، وفسر سوء العذاب بقوله ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ وبذلك تم تفسيره (١).

ثانياً: التنكير في كلٍّ من ﴿بلاء﴾ و ﴿عظيم﴾ للتفخيم والتهويل.

ثالثاً: صيغة المفاعلة في قوله ﴿وإذ واعدنا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿وإذ وعدنا﴾

---

(١) البحر المحيط ١/١٩٢

رابعاً: قال أبو السعود: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ التعرض بذكر البارئ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم، الذي خلقهم بلطيف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة[1].

الفوائد

الأولى: العطف في قوله ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض؛ لأن الكتاب هو التوراة، والفرقان هو التوراة أيضاً، وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل[2].

الثانية: سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل.

الثالثة: قال القشيري: من صبر في الله على قضاء الله، عوضه الله صحبة أوليائه، هؤلاء بنو إسرائيل، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين[3].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ... إلى ... ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ من آية (٥٥) إلى نهاية آية (٥٩)

المناسبة: بعد أن ذكرهم تعالى بالنعم، بين لوناً من ألوان طغيانهم وجحودهم وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يقابلون بالعطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم!! قال الطبري: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[4].

اللغة: ﴿جَهْرَةً﴾ علانية وأصل الجهر: الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها، تقول: رأيت الأمير جهاراً وجهرة أي غير مستتر بشيء، وقال ابن عباس:

---

(١) أبو السعود ١/ ٨١.
(٢) البحر المحيط ١/ ١٩٤.
(٣) قاله الزجاج واختاره الزمخشري.
(٤) انظر مختصر ابن كثير ١/ ٦٦.

جهرة: عياناً ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم قال الطبري: وأصل البعث: إثارة الشيء من محله ﴿الْغَمَامَ﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى، لأنها تغم السماء أي تسترها وكل مغطى فهو مغموم، وغُمَّ الهلال: إذا غطاه الغيم فلم يُرَ ﴿حِطَّةٌ﴾: مصدر من حط عنا ذنوبنا[1] وهي كلمة استغفار ومعناها: اغفر خطايانا ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً ومنه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي العذاب ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة وقد تقدم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

التفسِير: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقتهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي ما حلّ بكم ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، ومازال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت، ثم ذكّرهم تعالى بنعمه عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين

وقتالهم وقالوا لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فعوقبوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلة ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب، والمن كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه[2] والسلوى طير يشبه السمان لذيذ الطعم[3] ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه: ادخلوا بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا: يا ربنا حُطَّ عنا ذنوبنا

(١) مجاز القرآن ١/٤٤ (٢) هو قول الربيع بن أنس.
(٣) هو قول جمهور المفسرين.

واغفر لنا خطايانا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نمحُ ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم والأجر الجزيل ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي غيّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني أدبارهم ، وقالوا على سبيل الاستهزاء : حبة في شعيرة ، وسخروا من أوامر الله ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، رُوي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً .

البلاغة :

أولاً : إنما قيد البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يُتوهّم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم

ثانياً : في الآية إيجاز بالحذف في قوله ﴿كُلُوا﴾ أي قلنا لهم : كلوا ، وفي قوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تقديره : فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك ، دل على هذا الحذف قوله ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظَلَمُونَا﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر [١].

ثالثاً : وضع الظاهر مكان الضمير في قوله ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل : «فأنزلنا عليهم» لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع ، وتنكير ﴿رِجْزًا﴾ للتهويل والتفخيم [٢].

تنبيه : قال الراغب : تخصيص قوله ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هو أن العذاب ضربان : ضرب قد يمكن دفاعه ، وهو كل عذاب جاء على يد آدمي ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق ، وضرب لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [٣].

□□□

قال الله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ . . إلى . . ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آية (٦٠) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تعدد النعم على بني إسرائيل ، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه ، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه ، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم ، وكانوا اثني عشرة قبيلة ، تجري لكل منها جدول خاص ، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم ، وكان موضوع استقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا .

اللغة : ﴿اسْتَسْقَىٰ﴾ طلب السقيا لقومه؛ لأن السين والتاء للطلب مثل : استنصر واستخبر . قال أبو حيان : الاستسقاء : طلب الماء عند عدمه أو قلته ، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٥٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٨٣ .

(٣) محاسن التأويل ٢/ ١٤٥ .

ربه[1] ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الانفجار: الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه والتفجر والانبجاس بمعنى واحد، قال تعالى ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ﴾، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تَعْثَوْا﴾ العيث: شدة الفساد، يقال: عثي يعثى، وعثا يعثو إذا أفسد فهو عاث[2] قال الطبري: معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿وَفُومِهَا﴾ الفوم: الثوم وقيل: الحنطة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستبدال: ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أَدْنَىٰ﴾ أخس وأحقر، يقال: رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الفاقة والخشوع، مأخوذة من السكون؛ لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿وَبَاءُوا﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي: ولا يقال باء إلا بشر ﴿يَعْتَدُونَ﴾ الاعتداء تجاوز الحد في كل شيء، واشتهر في الظلم والمعاصي.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التفسير: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي اضرب أيَّ حجر كان، تنفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينًا بقدر قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي قلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء من غير كدٍّ منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي على نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ يعني القثة التي تشبه الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي الثوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي العدس والبصل المعروفات ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي قال لهم موسى منكرًا عليهم: ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم

---

(1) البحر المحيط 1/226. (2) كذا في الصحاح.

مَا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا مصرًا من الأمصار وبلدًا من البلدان أيًا كان تجدوا فيه مثل هذه الأشياء. ثم قال تعالى منبهًا على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحودًا واستكبارًا وقتلهم رسل الله ظلمًا وعدوانًا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على أحكام الله. ثم دعا تعالى أصحاب الملل والنحل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيمانًا صادقًا فصدّق بالله وأيقن بالآخرة ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

البلاغة

أولاً: في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ تعظيم للمنة والإنعام وإيماء إلى أنه رزق حاصل من غير تعب ولا مشقة.

ثانيًا: في التصريح بذكر الأرض ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ مبالغة في تقبيح الفساد، وقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة. ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يحترم الأمر أو النهي فيحوم حوله بنفي أي شك. ومن مظاهر هذه العناية التوكيد في قوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة، ويجعله بعيدًا من أن يغفل عنه أو ينسى.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى المجاز العقلي وعلاقته السببية، لأن الأرض لما كانت سببًا للنبات أسند إليها.

رابعًا: قوله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ كناية[1] عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

خامسًا: تقييد قتل الأنبياء بقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق أصلًا إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانهم.

---

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبه على ذلك أبو السعود.

فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بقبول التوبة ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظة وذكرى لكل عبد صالح متقٍ لله سبحانه وتعالى.

البلاغة:

أولاً: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول.

ثانياً: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير. وقال بعض المفسرين: هذا أمر تسخير وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة[1].

ثالثاً: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر.

الفوائد: الأولى: قال القفال: إنما قال ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ ولم يقل: (مواثيقكم) لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم كقوله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي يخرج كل واحد منكم طفلاً[2].

الثانية: قال بعض أهل اللطائف: كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تتخبط في عشواء حالكة الجلباب، وتخطر من غلوائها وعلوها في حُلّتي كبر وإعجاب، فلما أمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلفوه، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر:

إلى الله يدعى بالبراهين من أبى ... فإن لم يجب نادته بيض الصوارم[3]

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/٦٣. (٣) البحر المحيط ١/٢٤٣.
(٢) البحر المحيط ١/٢٤٥.

الثالثة: إنما خص المتقين بوصفة الموعظة إليهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ...... إلى ...... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٧٤)

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء، وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوئ.

اللغة: ﴿هُزُوًا﴾ الهزؤ: السخرية تقول: هزئ به وتهزأ، وهزؤاً ﴿هُزُوًا﴾ مثل ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ والمعنى على حذف مضاف أي أتتخذنا موضع هزؤ؟ أو يكون المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا ﴿فَارِضٌ﴾ الفارض: الهرمة المسنة التي كبرت وطعنت في السن كذا في لسان العرب قال الشاعر:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً ... تساق إليه ما تقوم على رِجْل

ولم تعطه بكراً فيرضى سمينة ... فكيف تُجازى بالمودة والفضل[1]

﴿عَوَانٌ﴾ وسط ليست بمسنة ولا صغيرة، وقيل: هي التي ولدت بطناً أو بطنين ﴿فَاقِعٌ﴾ الفقوع: شدة الصفرة يقال: أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال: أحمر قانٍ أي شديد الحمرة قاله الطبري. وهو نظير النصوع في البياض ﴿ذَلُولٌ﴾ أي مذللة للعمل يقال: دابة ذلول أي رَيِّضة زالت صعوبتها فقوله ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ أي لم تذلل لإثارة الأرض أي لحرثها. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من السلامة أي معافاة وبريئة من العيوب ﴿شِيَةَ﴾ الشية: اللمعة المخالفة بقية اللون الأصلي قال الطبري: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها[2] ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال، وأتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن فادارأتم، ومعنى الدرء الدفع لأن كلاً من المتهمين كان يدفع الآخر أي يدافعه، وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات» ﴿قَسَتْ﴾ القسوة: الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يَشَّقَّقُ﴾ التشقق: التصدع بطول أو عرض ﴿يَهْبِطُ﴾: الهبوط النزول من أعلى إلى أسفل.

معجزة إحياء ميت وقصة البقرة

ذكر القصة: روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال «كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا

(١) البحر المحيط ١/ [illegible]   (٢) مختصر الطبري ١/ ٤٢

يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قال: ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا، وأشار عمي ابن أخيه ثم مال ميتاً، فلم يُعطَ من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد»[1] وفي رواية (فأخذوا الغلام فقتلوه).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم: أتهزأ بنا يا موسى؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي أنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل من رآها ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً بوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي

(١) مختصر ابن كثير ١/٧٦.

ستهتدي إلى معرفتها إن شاء الله، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لون آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة. ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير. ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويتردى من رؤوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخشع، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد وتهديد.

البلاغة:

أولاً: قوله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصّلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها. وهذا من الإيجاز بالحذف.

ثانياً: قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ وقوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً، وفائدة الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة.

ثالثاً: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وصفُ القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نُبُوُّها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ، ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود: القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنُبُوّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور[1].

(١) إرشاد العقل السليم ١/٩٠.

رابعاً : ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلاً مجملاً) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف .

خامساً : ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحالّ فيه كالماء ، والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ، ويسمى هذا مجازاً مرسلاً .

الفوائد

الفائدة الأولى : نبه قول تعالى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا : إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح .

الثانية : الخطاب في قوله ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعلهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده والسر في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة أبو السعود : وإنما غُيِّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم[1] .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع :

أ - في قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ .

ب - وفي هذه القصة ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ .

ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف : ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

د - وفي قصة عزير ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ .

هـ - وفي قصة إبراهيم : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾[2] .

الخامسة : ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بمعنى (بل) أي بل أشد قسوة كقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وقال بعضهم : هي للترديد أو التخيير ، فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد ، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة ، أو قال : هي أقسى من الحجارة .

السادسة : ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسمار : لِمَ تشقني؟ قال : سل من يدقني والله أعلم

---

(١) إرشاد العقل السليم ١/٩٠ .
(٢) أفاده العلامة ابن كثير .

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ... إلى ... أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٢)

المناسبة: لما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، عقب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى، وادعائهم بأنهم أحباب الله، وأن النار لن تمسهم إلا بضعة أيام قليلة، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم؛ لأنهم مردوا على الضلال وجبلوا على العناد والمكابرة.

اللغة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً، فإذا اشتد فهو طمع، وإذا ضعف كان رجاء ورغبة ﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق: الجماعة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ التحريف: التبديل والتغيير، وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عَقَلُوهُ﴾ عقل الشيء: أدركه بعقله، والمراد: فهموه وعرفوه ﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع أمي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة، سمي بذلك نسبة إلى الأم، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أَمَانِيَّ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، أو يقدره في نفسه من مُنَى، ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لابن دأب في شيء رواه: أهذا شيء رويته أم تمنيته؟ أي اختلقته، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان: تمنى كتاب الله أول ليلة ... ﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: الهلاك والدمار وقيل: الفضيحة والخزي، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القرطبي: هي غاية الوعيد والتهديد كقوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وقال سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها.

سبب النزول

١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[1] الآية.

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[2].

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى

(١) البحر المحيط ٢٧١/١.

(٢) مختصر ابن كثير ٨٤/١.

اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

التفسير: يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بينا جليا ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا عاتبين عليهم: أتخبرون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم في التوراة من صفة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم، قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله تعالى يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرفوا وبدلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبه أنهم في الضلال سواء فقال ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي إلا ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء، ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضللين الذين أضلوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين: هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي لن تدخل النار إلا أياماً قلائل، هي

مدة عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله والكذب والبهتان عليه جل وعلا.

ثم بين تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي غمرته من جميع جوانبه وسدت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

البلاغة:

أولاً: قوله - ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل.

ثانياً: قوله ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز، وللتأكيد بأن الكتبة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل: كتبته بيميني، وسمعته بأذني.

ثالثاً: قوله ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ(الطباق) حيث جمع بين لفظي ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ وهو من نوع طباق الإيجاب.

رابعاً: التكرير في قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ وقوله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

خامساً: قوله ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات[1].

الفوائد:

الفائدة الأولى: تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل وبالتغيير، كما فعلوا في صفته عليه

---

(١) انظر تلخيص البيان ١/٨

السلام قال العلامة أبو السعود: روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها: حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، أسمر، ربعة فغيروها وكتبوا مكانها: طوال، أزرق، سبط الشعر فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه[1].

الثانية: التحريف بنوعيه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الثالثة: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان من اليهود هنا، فقال لهم رسول الله: من أبوكم؟ قالوا: فلان، قال: كذبتم بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم، قال: فما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ... إلى ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية آية (٨٦).

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تعدد جرائم اليهود، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار.

اللغة: ﴿مِيثَاقَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً. ﴿حُسْنًا﴾ الحسن: اسم عام جامع لمعاني الخير، ومنه لين القول، والأدب الجميل، والخلق الكريم، وضده القبح، والمعنى: قولوا قولاً حسناً فهو صفة لمصدر محذوف. ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولي عن الشيء: الإعراض عنه ورفضه وعدم قبوله كقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وفرق بعضهم بين التولي والإعراض فقال: التولي بالجسم والإعراض بالقلب[3].

---

(1) تفسير أبي السعود 1/94 (2) مختصر ابن كثير 1/82 (3) البحر المحيط 1/281.

﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه إحدى التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر ، والظهير المعين ﴿الإِثْمِ﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خِزْيٌ﴾ الخزي : الهوان والمقت والعقوبة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞﴾ .

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود ، العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين «الصلاة والزكاة» لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار والإجلاء عن الأوطان ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ، فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟

والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفر ببعض آيات الله كفر بالكتاب كله، ولهذا عقّب الله تعالى ذلك بقوله ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌّ وهوان، ومقت وغضب في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشد منه؛ لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله. ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

تنبيه: كانت (بنو قريظة) و(بنو النضير) من اليهود فحالفت بنو قريظة الأوس، وبنو النضير الخزرج، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (١).

البلاغة:

١ - ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خبر في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهي حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه نُهي عنه، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي (٢).

٢ - ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وضع المصدر موضع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسن؛ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون: هو عدل.

٣ - التنكير في قوله ﴿خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ للتفخيم والتهويل.

٤ - ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ عبر عن قتل الغير بقتل النفس؛ لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه، فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة.

٥ - ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي.

الفوائد:

الفائدة الأولى: جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم، فقدم حق الله تعالى؛ لأنه المنعم في الحقيقة على العباد، ثم قدم ذكر الوالدين؛ لحقهما الأعظم في تربية الولد، ثم القرابة؛ لأن

(١) مختصر ابن كثير ١/٨٥.   (٢) تفسير أبي السعود ١/٩٦.

فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان، ثم اليتامى؛ لقلة حيلتهم، ثم المساكين؛ لضعفهم ومسكنتهم.

ثانياً: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ولم يقل: وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسناً ليدل على أن الأمر بالإحسان عام لجميع الناس، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وفي هذا حضٌّ على مكارم الأخلاق بلين الكلام، وبسط الوجه، والأدب الجميل، والخلق الكريم قال أحد الأدباء:

بُنَيَّ إن البر شيء هيِّن ... وجه طليق ولسان ليِّن

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ ... إلى ... ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ من آية (٨٧) إلى نهاية آية (٩٢).

اللغة: ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أردفنا وأتبعنا، وأصله من القفا يقال: قفاه إذا أتبعه، وقفّاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه، مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام، والقدس: الطهر والبركة ﴿تَهْوَى﴾ تحب، من هوي إذا أحب، ومصدره الهوى ﴿غُلْفٌ﴾ جمع أغلف، والغلاف: الغطاء، يقال: سيف أغلف إذا كان في غلاف، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز، مستعار من الأغلف الذي لم يختتن[1] ﴿لَعَنَهُمُ﴾ أصل اللعن في كلام العرب: الطرد والإبعاد يقال: ذئب لعين أي مطرود مبعد، والمراد: طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة ﴿بِئْسَمَا﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي، وبئس فعل للذم، كما أن نعم للمدح ﴿بَغْيًا﴾ البغي: الحسد والظلم، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد قاله الأصمعي[2] ﴿بَاءُوا﴾ رجعوا، وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مُهِينٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل.

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أنعمها الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ

---

(١) الكشاف ١/١٢٣.

(٢) البحر المحيط ١/٢٩٨.

عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝﴾.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم.

ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فقليل من يؤمن منهم، أو يؤمنون إيمانًا قليلًا وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين، مصدقًا لما في التوراة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به اليهود أنفسهم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بَغْيًا﴾ أي حسدًا وطلبًا لما ليس لهم ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي حسدًا منهم لأجل أن ينزل الله وحيًا من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال؛ لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والصغار. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي يكفرون بالقرآن، مع أنه هو الحق موافقًا لما معهم من كلام الله ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحًا فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلًا مؤمنين؟ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج الساطعات ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع.

﴿أحرص﴾ الحرص: شدة الرغبة في الشيء، وفي الحديث «احرص على ما ينفعك» ﴿بمزحزحه﴾ الزحزحة: الإبعاد والتنحية قال تعالى ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أي أُبعد، قال الشاعر:

خليلي ما بال الدجى لا يزحزح   وما بال ضوء الصبح لا يتوضح[1]

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ۝ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ۝ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ۝ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ۝ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ۝ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ۝﴾.

التفسير: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿واسمعوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي خالط حبه قلوبهم، وتغلغل في سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في البدن ﴿بكفرهم﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع، والمعنى: لستم بمؤمنين، لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة؛ لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها: فقال تعالى رادّاً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ أي ولتجدن اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي مطلع على

[1] الفتوحات الإلهية ١/ ٨٢ .

أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي قل لهم يا محمد: من كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌ لله؛ لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ أي من عادى الله، وملائكته، ورسله، وعادى على الوجه الأخص (جبريل وميكائيل) فهو كافر عدو لله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله ففيه الوعيد والتهديد الشديد.

سبب النزول: روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾ [1] الآية.

البلاغة

١ - ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ فيه استعارة مكنية، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به، ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية. قال في تلخيص البيان: «وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ»[2].

٢ - ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم كقوله ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم، أفاده الزمخشري.

٣ - التنكير في قوله ﴿عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين.

٤ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها اسمية لزيادة التقبيح؛ لأنها تفيد الثبات، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ بدل عدو لهم لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

٥ - ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ جاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام للتشريف والتعظيم.

فوائد

الأولى: ليس معنى السمع في قوله ﴿وَاسْمَعُوا﴾ إدراك القول فقط، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبر وطاعة والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾

(١) رواه الترمذي وانظر القرطبي ٢/٣٦. (٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٩.

الثانية: خص القلب بالذكر: ﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

الثالثة: الحكمة في الإتيان هنا بـ(لن) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وفي الجمعة بـ(لا) ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك، لأنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس، فناسب هنا التوكيد بلن المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل، وأما هناك فاكتفى بالنفي[1].

الرابعة: الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمني الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ... إلى ... لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية آية (١٠٣).

المناسبة: لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو «جبريل» الأمين عليه السلام، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعهود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

اللغة: ﴿نَّبَذَهُ﴾ النبذ: الطرح والإلقاء ومنه سمي اللقيط منبوذاً لأنه ينبذ على الطريق قال الشاعر:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المحرما[3]

﴿تَتْلُوا﴾ تحدث وتروي، من التلاوة بمعنى القراءة، أو من التلاوة بمعنى الاتباع قال الطبري: ولقول القائل «هو يتلو كذا» في كلام العرب معنيان: أحدهما: الاتباع كما تقول: تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعت أثره، والآخر: القراءة والدراسة كقولك: فلان يتلو القرآن أي يقرؤه[4] ﴿السِّحْرَ﴾ قال الجوهري: كل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، وسحره أيضاً بمعنى خدعه[5].

(١) الصاوي على الجلالين ١/٤٩.
(٢) القرطبي ٢/٤٠.
(٣) القرطبي ٢/٤٢.
(٤) الطبري ٢/٤٠٧.
(٥) الصحاح للجوهري.

وفي الحديث «إن من البيان لسحراً» ﴿فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار ومنه قولهم: فتنت الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿خَلَاقٍ﴾ الخلاق: النصيب قال الزجاج: هو النصيب الوافر من الخير، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ المثوبة: الثواب والجزاء.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞﴾

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة المتمردون على الكفر ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية، لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ... إلى ... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٠).

المناسبة: لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصهم به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر، الذي يضمرونه للنبي ﷺ والمسلمين، من الحسد والحقد والعداء، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين، واتخاذهم الذريعة الواهية منفذاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية.

اللغة: ﴿رَاعِنَا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرّفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحمق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿انظُرْنَا﴾ من النظر والانتظار تقول: نظرت الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ويحب ﴿نَنسَخْ﴾ النسخ في اللغة: الإبطال والإزالة يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع: رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنسِهَا﴾ من نسي الشيء جعله منسياً، والنسيان هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وَلِيٍّ﴾ الولي: من يتولى أمور الإنسان ويرعى مصالحه ﴿نَصِيرٍ﴾ النصير: المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي بل يقولون ﴿يَتَبَدَّلِ﴾ يقال: بدّل وتبدّل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق، والسواء من كل شيء: الوسط، والسبيل معناه الطريق ﴿فَاعْفُوا﴾ العفو: ترك المؤاخذة على الذنب ﴿وَاصْفَحُوا﴾ والصفح: ترك التأنيب منه.

سبب النزول: روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضاً فنزلت[1] ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

---

(١) الكشاف ١/١٣٠.

(٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا روائع البيان ١/١٠٠.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه بقوله ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللبهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه عذاب أليم موجع ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير بغضًا فيكم وحسدًا لكم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان. ثم قال تعالى ردًا على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل، بما نرفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد؟! ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شؤون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم وليّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غيره تعالى، فهو نعم الناصر والمعين. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل، وتكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فتضلوا كما ضلوا ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي لو يصيّرونكم كفارًا بعد أن آمنتم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسدًا منهم لكم، حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾

أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما (الصلاة والزكاة) وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ما تتقربوا به إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضًا كان أو تطوعًا تجدوا ثوابه عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين .

البلاغة :

١ - الإضافة في قوله ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للتشريف ، وفيها تذكير للعباد بتربيته سبحانه لهم .

٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ للإيذان بفخامة الأمر .

٣ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير ، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ .

٤ - وضع الاسم الجليل موضع الضمير ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ و ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

٥ - ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي ، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل .

الفوائد .

الأولى : خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعًا من القرآن ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال .

الثانية : نُهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام ﴿رَاعِنَا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿انظُرْنَا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدب جميل وهو أن الإنسان يتجنب في مخاطبته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم .

الثالثة : كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة ، وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه فقالوا : أولستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ .

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ... إلى ... إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ من آية (١١١) إلى نهاية آية (١١٥)

المناسبة : في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب ، حيث ادعى كل من الفريقين : اليهود والنصارى ، أن الجنة خاصة به ، وطعن في دين الآخر ، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ويكفرون بعيسى وبالإنجيل ، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقف عليه ، فأكذب الله الفريقين ، وبين أن

وقد كفروا عن علم ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك، أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي لأولئك المذكورين هوان وذلة في الدنيا ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال، عليم بتدبير شؤونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

البلاغة

١ - ﴿تلك أمانيهم﴾ الجملة اعتراضية، وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة

٢ - ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ الأمر هنا للتبكيت والتقريع.

٣ - ﴿من أسلم وجهه لله﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، والوجه هنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته[1].

٤ - ﴿عند ربه﴾ العندية للتشريف، ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به.

٥ - ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب؛ لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلاً

٦ - ﴿ومن أظلم﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه.

٧ - ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله

٨ - ﴿عليم﴾ صيغة فعيل للمبالغة، أي واسع العلم.

فائدة: قال الإمام الفخر: إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، وقال زيد بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا[2]

□ □ □

(١) تلخيص البيان ص ١٠ (٢) التفسير الكبير ٤/٤

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ... وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من آية (١١٦) إلى نهاية آية (١٢٣).

المناسبة: لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أن لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيراً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله، ورد دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع.

اللغة: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبحان مصدر سبح بمعنى نزه، ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون خاضعون، من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بَدِيعُ﴾ البديع: المبدع من الإبداع، والإبداع: اختراع الشيء على غير مثال سابق ﴿قَضَىٰ﴾ أراد وقدر ﴿بَشِيرًا﴾ البشير: المبشر، وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿وَنَذِيرًا﴾ النذير: المنذر، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الْجَحِيمِ﴾ المتأجج من النار ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ أي دينهم وجمعها ملل، وأصل الملة: الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشريعة التي أنزلها الله ﴿عَدْلٌ﴾ فداء.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

التفسير: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فأكذب الله الجميع في دعواهم فقال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تقدس وتنزه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بل للإضراب، أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بهم جهلة المشركين وهم كفار قريش ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿أَوْ

تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي تكون برهانًا وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكبارًا وعنادًا ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء، وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيرة والدين القويم بشيرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيرًا للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي أنت لست مسئولًا عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقًا دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئًا؛ لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد؛ لأنها كفرت بالله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه.

البلاغة:

١- ﴿سُبْحَانَهُ﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا أن لله ولدًا. قال أبو السعود: وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من «السبح» ومن جهة النقل إلى التفعيل «التسبيح» ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى، والمراد أنزهه تنزيهًا لائقًا به[1].

٢- ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قَانِتُونَ﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان.

٣- التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ إيذان بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٦٧.

٤- إيراد الهدى معرفاً بأل في قوله ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ مع اقترانه بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ يفيد قصر الهداية على دين الله، فهو من باب قصر الصفة على الموصوف، فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى.

٥- ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب.

تنبيه: قال القرطبي: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع، ومنه أصحاب البدع، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام، وفي البخاري «ونعمت البدعة هذه» يعني قيام رمضان.. ثم قال: وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أو لا، فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح، ويعضده قول عمر: «نعمت البدعة هذه» وإلا فهي في حيز الذم والإنكار ويؤيد هذا الحديث الشريف «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها» (١).

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إلى ... ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من آية (١٢٤) إلى نهاية آية (١٢٩).

المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل وبيّن كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال، وقرن حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرون بفضله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم محمد ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم، فهو من ولد إسماعيل عليه السلام فكان أولى بالاتباع والتمسك بشريعته الحنيفة السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام.

اللغة: ﴿ابْتَلَىٰ﴾ امتحن واختبر، والابتلاء: الاختبار ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي قام بهن على التمام والكمال ﴿إِمَامًا﴾ الإمام: القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مَثَابَةً﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع، أي أنهم يترددون إليه يقصدونه لا يقضون منه وطرهم قال الشاعر:

جُعل البيت مثاباً لهم ... ليس منه الدهرَ يقضون الوطر

﴿وَأَمْنًا﴾ الأمن: السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وَعَهِدْنَا﴾ أمرنا وأوصينا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف وهو الإقامة على الشيء والملازمة له، والمراد: المقيمون في الحرم بقصد العبادة

---

(١) القرطبي ٢/٨٧.

عذاب النار فلا يجد منها محيصًا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب، وهو رفع الرسولين العظيمين إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين: يا ربنا تقبل منا أي اقبل منا عملنا هذا واجعله خالصًا لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم. وهذا من جملة دعواته المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب، والحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

البلاغة

١- التعرض لعنوان الربوبية ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير، والمعنى: عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

٢- إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ للمبالغة، والإسناد مجازي، أي آمنًا من دخله كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وغير ما فسرته بالموارد.

٣- إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وَطَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ للتشريف والتعظيم.

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي وذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع، والبناء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة[1].

٥- ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة.

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤.

الفوائد:

الأولى: تقديم المفعول في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ واجب، لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، فلو قُدِّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة قال ابن مالك:

وشاع نحو خاف ربَّه عمر وشذَّ نحو زان نورُه الشجر

الثانية: الاختبار في الأصل: الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق.

الثالثة: اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال: ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: «الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن. فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، ومحاجة نمرود في الله وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أُمر بالخروج عنهم، وما ابتُلي به من ذبح ابنه حين أُمر بذبحه»[1].

الرابعة: المراد من الإمامة في الآية الكريمة (الإمامة في الدين) وهي النبوة التي حُرمها الظالمون، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة.

الخامسة: ذكر العلامة ابن القيم أن السر في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب ومحبتها له، فجذبُه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا[2].

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاق

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. إلى .. وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٣٤)

المناسبة: لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق مصدر التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان.

اللغة: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ امتهنها واستخف بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ أي جعلناه صافيًا من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلة والإمامة العظمى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ التوصية: إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خَلَتْ﴾ مضت وانقرضت.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

(١) الدر المنثور ١/١١ (٢) محاسن التأويل ٦/٢٤٧

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

التفسير : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخف نفسه وامتهنها ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلص نفسك له ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام دينًا وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهم ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي لا نعبد إلا إلهًا واحدًا هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيرًا إلى تلك الذرية الطيبة : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ، ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تُسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفس تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء .

البلاغة

١ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ استفهام يراد به الإنكار والتقريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه . والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

٢ - التأكيد بـ «إنَّ» و «اللام» ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لأنه لما كان إخبارًا عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

٣ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ هو من باب الالتفات ، إذ السياق (إذ قلنا) والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُ﴾ لإظهار مزيد اللطف والاعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل : أسلمتُ لك ، للإيذان بكمال قوة إسلامه ، والإشارة إلى أن من كان ربًّا للعالمين لا يليق إلا أن يُتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة .

٤ - قوله : ﴿آبَائِكَ﴾ شمل العم والأب والجد ، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب

بإسحاق وهو من باب «التغليب» وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام.

فائدة: قال أبو حيان: «كنّى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً وفي قوله: «حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ» كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خير غائب ننتظره»[1]

تنبيه: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ النهي عن الموت إلا على هذه الحالة من الإسلام، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبداً، واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ... إلى ... وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من آية (١٣٥) إلى نهاية آية (١٤١).

المناسبة: لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، وذكر تعالى هنا ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية أو النصرانية، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، والحنَفُ: الميل، وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قال الشاعر:

ولكنّا خُلقنا إذ خُلقنا ... حنيفاً ديننا عن كل دين[2]

﴿الْأَسْبَاطِ﴾ جمع سِبْط وهم حفدةُ يعقوب أي ذريات أبنائه، وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق، وهذا في شق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الصبغة مأخوذة من الصَّبْغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان، والمراد بها الدِّين ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا من المحاجّة وهي المجادلة ﴿مُخْلِصُونَ﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

(١) البحر المحيط ١/٤٠١. (٢) الكشاف ١/٤١٤.

بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقَّنه الحجة الدامغة ليَرُدَّ عليهم، وليوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام.

اللغَة: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، وأصل السفه الخفة والرقة من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ﴿وَلَّاهُمْ﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولى عنه أي انصرف ﴿وَسَطًا﴾ قال الطبري: الوسط في كلام العرب: الخيار، وقيل: العدل[1]. وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عَقِبَيْهِ﴾ تثنية عقب وهو مؤخر القدم ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة وثقيلة ﴿شَطْرَ﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر: تعدو بنا شطر نجد وهي عاقدة، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث «الطهور شطرُ الإيمان».

سَبَبُ النّزول: عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود -: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[2] إلى آخر الآية، أخرجه البخاري.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

التفسِير: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أي ما صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبلة المرسلين من قبلهم؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي قل لهم يا محمد: الجهات كلها لله، له المشرق والمغرب، فأينما وليتم وجوهكم فهناك وجه الله ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خيارًا

(١) مختصر الطبري ١/ ٥٥ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢٣ .

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ما صحّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، فنزلت، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه كثيراً ما، أي كثيراً ما نرى تردد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي فلنوجهنك إلى قبلة تحبها - وهي الكعبة - قبلة أبيك إبراهيم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌّ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

البلاغة:

١- في قوله ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ استعارة تمثيلية حيث مثّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه، أفاده الإمام الفخر.

٢- ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وكلاهما من صيغ المبالغة.

٣- ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وهذا النوع يسمى «المجاز المرسل» من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

الفوائد:

الأولى: أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ، فذلك قوله عز وجل ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

الثانية: سمّى الله تعالى الصلاة «إيماناً» في قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلا بها، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل.

الثالثة : في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ؛ لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجًا عظيمًا على الناس .

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ... إلى ... ولعلكم تهتدون﴾ من آية (١٤٥) إلى نهاية آية (١٥٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق ، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم ، فإنهم ما تركوا اتباعك لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عنادًا واستكبارًا ، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب .

اللغة : ﴿آية﴾ الآية : الحجة والعلامة ﴿أهواءهم﴾ جمع هوى مقصورًا ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه ﴿الممترين﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الشيء شك فيه ، ومنه المراء والمرية ﴿ولا تزال في مرية منه﴾ أي شك ﴿وجهة﴾ قال الفراء : وجهة وجهة ووجه بمعنى واحد ، والمراد بها القبلة ﴿هو موليها﴾ أي هو موليها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه ، قال الفراء : أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي بادروا وسارعوا ﴿الخيرات﴾ الأعمال الصالحة جمع خيرة ﴿تخشوهم﴾ تخافوهم ، والخشية : الخوف .

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ۞ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ۞ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ۞ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ۞ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ۞ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ .

التفسير : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ، ولا صلوا إلى قبلتك ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها ، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريرًا له عليه السلام ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ؛ لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي ولئن فرض وقدر أنك سايرتهم على

أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأحبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي لكل أمة من الأمم قبلة هو موليها وجهه أي مائل إليها بوجهه، فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي من أي مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقدم تفسيره وكرره لبيان تساوي حكم السفر والحضر ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نُسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي عرفتكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين: يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أي تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أتم فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين.

البلاغة

١ - وضع اسم الموصول موضع الضمير في قوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد.

٢ - ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق.

٣ - ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله: ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنها جملة اسمية أولاً وتأكيد نفيها بالباء ثانياً. ذكره صاحب الفتوحات الإلهية.

٤ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فيه تشبيه مرسل مفصل أي يعرفون محمداً معرفةً واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم

والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي، كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح العمل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد، والسنة النبوية المطهرة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان، رُوي أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: اتذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني[1] ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي لا تقولوا للشهداء: إنهم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع، وذهاب بعض الأموال، وموت بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم، ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله يفعل بهم ما يشاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله، وهم المهتدون إلى طريق السعادة.

البَلَاغَة:

١- بين كلمتي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و ﴿رَسُولًا﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية.

٢- قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب).

٣- ﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي لا تقولوا: هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق).

٤- التنكير في قوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ للتقليل أي بشيء قليل.

٥- ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ التنوين فيهما للتفخيم، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿رَّبِّهِمْ﴾ لإظهار مزيد العناية بهم.

---

(١) ابن كثير المختصر ١/١٤٣.

أعلام دينه ومناسكه التي تعبدنا الله بها ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام، فاسعوا أنتم لله رب العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيرًا فرضًا كان أو نفلًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء؛ لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ أي يُخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبيّنوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا بالله واستمروا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعًا، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في النار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يُخفف عنهم طرفة عين ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يُمهلون أو يؤجلون بل يلاحقهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

سبب النزول: عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [1]

البلاغة:

١ - ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف.

٢ - ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود: عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز.

٣ - ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل «نلعنهم» ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب.

٤ - ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ فيه جناس الاشتقاق، وهو من المحسنات البديعية.

---

(١) أخرجه البخاري وانظر الدر المنثور للسيوطي ١/١٥٩.

٥ - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيمًا لشأنها وتهويلاً لأمرها.

٦ - ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إيثار الجملة الاسمية لإفادة دوام النفي واستمراره.

الفوائد

الأولى: كان على الصفا صنم يقال له «إساف» وعلى المروة صنم يقال له «نائلة» فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تحرجوا من الطواف بهما لهذا السبب، فنزلت الآية تبيّن أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام.

الثانية: الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمله العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين. أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت فهو شكر يليق بجلاله وكماله.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ... إلى ... وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ من آية (١٦٣) إلى نهاية (١٦٧).

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله، وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والغروس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان، وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في عجيب خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم.

اللغة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الإله: المعبود بحق أو باطل، والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿الْفُلْكِ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وَبَثَّ﴾ فرّق ونشر ومنه ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿دَابَّةٍ﴾ الدابة في اللغة: كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويدًا، وقد خصه العرف بالحيوان، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ الرياح: جمع ريح وهي نسيم الهواء، وتصريفها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال، فتهب حارة وباردة، وعاصفة ولينة، وملقحة للنبات وعقيمًا ﴿الْمُسَخَّرِ﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أَندَادًا﴾ جمع ند وهو المماثل، والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿الْأَسْبَابُ﴾ جمع سبب وأصله الحبل،

والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة ﴿كَرَّةً﴾ الكرّة: الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع حسرة وهي أشد الندم على شيء فائت، وفي التنزيل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

سبب النزول: عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلى قوله .. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

التفسير: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مولي النعم ومصدر الإحسان ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوبًا وشمالاً، حارة وباردة، ولينة وعاصفة ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبّه على الأرض قطرات قطرات، قال كعب الأحبار: السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطرُ ما يقع عليه من الأرض[2] ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على

---

(1) أسباب النزول للواحدي ص٢٥ والقرطبي ٢/ ١٩١ .
(2) البحر المحيط ١/ ٤٦٧ .

للقدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي، وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم.

ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا أي رؤساء وأصنامًا ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين للأنداد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله شديد أليم، وجواب «لو» محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

البلاغة:

١ - ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ورد الخبر خاليًا من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع.

٢ - ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير في «آيات» للتفخيم، أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة.

٣ - ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ التصريح بالأشدية أبلغ من أن يقال: «أحب لله» كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ مع صحة أن يقال: أو أقسى.

٥ - ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير (ولو يرون) لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح.

٦ - في قوله ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ«الترصيع» وهو أن يكون الكلام مسجوعًا.

٧ - ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ الجملة اسمية، وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود.

الفوائد

الأولى: ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبيهًا على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحدانية من الأثر. الأول: خلق السموات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني: الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث: اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع: السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة بالأثقال والرجال تجري بها الريح مقبلة ومدبرة، الخامس: المطر الذي جعله الله سببًا لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس: ما بثّ في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع: تصريف الرياح، والهواء جسم لطيف وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض. الثامن: السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقًا بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار.

الثانية: ورد لفظ الرياح في القرآن مفردة ومجموعة، فجاءت مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وجاءت مفردة في العذاب كقوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ وقوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا».

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ... إلى ... لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ من آية (١٦٨) إلى نهاية آية (١٧٦).

المناسبة: لما بيّن تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن؛ ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام؛ لأنه تعالى رب العالمين، وإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلّ وعلا وإلى الأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث.

اللغة: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جمع خُطوة، وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي، وتستعمل مجازًا في تتبع الآثار ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾ أصل السُّوء: ما يسوء الإنسان أي يحزنه، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقادًا لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المآل ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما يُستعظم ويُستفحش من المعاصي، فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ومنه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي وجدوا ﴿يَنْعِقُ﴾ يصيح يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقًا

إذا صاح به وزجره قال الأخطل:

فانعق بضأنك يا جرير فإنما ... منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

﴿أُهِلَّ﴾ الإهلال: رفع الصوت، يقال: أهلَّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية، ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند ولادته، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزّى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿اضْطُرَّ﴾ أُلجئ أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ الباغي من البغي، والعادي من العدوان، وهما بمعنى الظلم ومجاوزة الحد ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم، من التزكية وهي التطهير ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطابًا في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرّم عليكم فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، قال تعالى في الرد عليهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافر في غاية الوضوح والجلاء، فقال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ

إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ أي ومثلُ الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى: كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها. فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق، بُكم أي خرسٌ عن النطق به، عميٌ عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم؛ لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون. وخلاصة المثل - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى، وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية، والمعنى: كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ أي ما حرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي وما ذُبح للأصنام فذكر عليه اسمُ غير الله كقولهم: باسم اللات والعزى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعياً في فساد، ولا متجاوزٌ مقدار الحاجة ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد. ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يأخذون بدله عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي ولا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي اعتاضوا الضلالة بدل الهدى، والكفر بدل الإيمان ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي ما أشد صبرهم على نار جهنم وهو تعجيب للمؤمنين من جرأة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي، ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه التوراة ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

■ التفسير: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالح محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ولكنّ البر الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم أولى بالمعروف ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وأعطى المال أيضًا اليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي وأتى بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله، وهو منصوب على المدح ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيماء إلى ما يلاقونه من مشقات وتحمل من صعوبات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط، فإذا قتل الحرّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلًا بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس قصاصًا بل هو ظلم واعتداء ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء بأن ترك وليُّه القَوَد وأسقط القصاص راضيًا بقبول الدية ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداء الدية إلى العافي (ولي المقتول) بلا مطل ولا بخس ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول

الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياةٌ وأيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قُتل بها يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتُحفظ حياة الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي فرض عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالاً كثيراً ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقاً لازماً على المتقين لله، وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نُسخ بآية المواريث ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيٍّ أو شاهد ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد شديد للمبدلين ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ أي فمن علم أو ظنَّ من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي أصلح بين الموصي والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

البلاغة

١ - ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ جعل البر نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون: السخاء حاتم، والشعر زهير، أي أن السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير، وعلى هذا خرّجه سيبويه حيث قال في كتابه: قال جلّ وعز: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ وإنما هو: ولكنَّ البرَّ برُّ من آمن بالله. انتهى(١) وتقدير ذلك أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهماً ولكنَّ الكرم بذل الآلاف، فلا يناسب ولكنَّ الكريم من يبذل الآلاف.

٢ - ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى، وفي لفظ الرقاب مجاز مرسل حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٣ - ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخصُّ بالذكر الصابرين. وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفنّن ويسمى قطعاً؛ لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه.

٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً «صدقوا» لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر، وأتى بخبر الثانية في جملة اسمية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً.

٦ - ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهييج.

٧ - الطباق بين «اتباع» و«أداء» وبين «الحر» و«العبد».

---

(١) البحر المحيط ٢/٣.

الفوائد:

الأولى: في ذكر «الأخوة» تعطُّفٌ داعٍ إلى العفو، فقد سمّى الله القاتل أخاً لولي المقتول ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ تذكيراً بالأخوة الدينية والبشرية حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان.

الثانية: كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيّرها بين القصاص والدية والعفو، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيد الأنبياء ﷺ.

الثالثة: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم: "القتل أنفى للقتل" ولكن لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حسن البيان، وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما تنطق به بلغاء البشر، فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما يبهتك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق: أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاصَ وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلماً فيكون سبباً للفناء، وتصحيح العبارة أن يقال: القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كُرِّر فيه لفظ القتل فمسّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة... الخ وقد عدّ العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية والحكمة العربية وقد ذكرها السيوطي في الإتقان فارجع إليه تجد فيه شفاء الغليل.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... إلى... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ من آية (١٨٣) إلى نهاية آية (١٨٧).

المناسبة: ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقّبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيّئ عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار.

اللغة: ﴿الصِّيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك عن الشيء، قال أبو عبيدة: كل ممسك عن الطعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر:

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللُّجما

وفي الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النية ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ أي

يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف إذا أفطروا، عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فمن تطوع خيرا﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خير له﴾ ثم قال تعالى: ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي ومن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر فعليه صيام أيام أخر، وكرر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ولتكملوا العدة﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه.

ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم كقوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾، ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين... ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس: هن سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرمًا في صدر الإسلام ثم نسخ. روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي قبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي كلوا واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهارًا ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تلك حدود الله فلا

تَقْرَبُوهَا﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون المحارم.

البَلاغَة:

١ - ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي في فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلاً مجملاً».

٢ - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر، أو على سفر فأفطر، فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر.

٣- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف «لا» أي لا يطيقونه، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة، والطاقة اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة.

٤ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «طباق السلب».

٥ - ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ «إلى» لتضمنه معنى «الإفضاء» وهو من الكنايات الحسنة كقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: إن الله عز وجل كريم حليمٌ يكني[1].

٦ - ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استعارة بديعة شبّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه. قال في تلخيص البيان: «المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة»[2].

٧- ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل، والخيطان هنا مجاز، وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً، ويكون سواد الليل منقضياً مولّياً، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ.

الفوائد

الأولى: روي عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك: نزيد فيه فزادوا عشراً، ثم بعد زمان اشتكى[3] ملكهم فنذر سبعاً فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال: ما بال هذه الثلاثة! فأتمه خمسين يوماً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾[4].

---

(١) روائع البيان ١/١٩٠، وتلخيص البيان ص١٢

(٢) انظر الكشاف ١/١٧٥. (٣) اشتكى: أي مرض. (٤) التفسير الكبير ٥/٧٦.

الثانية: قال الحافظ ابن كثير: وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث «إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرد» وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي.

الثالثة: ظاهر نظم الجملة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ أنهم سألوا عن الله، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقوله في الجواب: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد، ولم يُصَدِّر الجواب بـ «قل» أو «فقل» كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ بل تولى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات.

الرابعة: قال الإمام ابن تيمية: «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه وفي الصحيح «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء».

الخامسة: عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف «لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل كريم حليم يكْني.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ... إلى ... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ من آية (١٨٨) إلى نهاية آية (١٩٥).

المناسبة: لما بيّن تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقّبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة، جاءت الآيات الكريمة تبيّن أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات.

اللغة: «الباطل» في اللغة: الزائل الذاهب، يقال: بطل الشيء بطولاً فهو باطل وفي الشرع هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وَتُدْلُوا﴾ الإدلاء في الأصل: إرسال الدلو في البئر ثم جُعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاء يقال: أدلى بحجته أي أرسلها والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدراً حين يتكامل نوره ﴿مَوَاقِيتُ﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد

بمعنى الوعد وقيل: الميقات منتهى الوقت ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ثقِفَ الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة، ورجل ثَقِفٌ: سريع الأخذ لأقرانه قال الشاعر:

فإما تثقفوني فاقتلوني ... فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿التَّهْلُكَةِ﴾ الهلاك يقال هلك يهلك هلاكًا وتهلكة.

سبب النزول

أولا: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس؟! فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ...﴾ (١) الآية

ثانيا: روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتًا من بابه بل كان يدخل من نقب في ظهره، أو يتخذ سلّمًا يصعد فيه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

التفسير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لمَ يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟! ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي قل لهم: إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ أي ولكنّ العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الرازي ٥/ ١٣٢ وأسباب النزول للواحدي ص٣٨.

تفلحون﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ وقيل: نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله، أو كفر الكافر أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته، والبادي بالشر أظلم ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفّوا عنهم، فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفّوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم، ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله (١) ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوّى عليكم الأعداء، وقيل معناه: لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين.

البلاغة:

١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ هذا النوع من البديع يسمى «الأسلوب الحكيم» فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره، فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب

---

(١) والمراد: هذا الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صُددتم فيه عن دخولها، وكان ذلك تعويضاً لحرمان النبي ﷺ من دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة.

تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره، وهذا ما يسميه علماء البلاغة «الأسلوب الحكيم».

- ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره: هتك حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام، ويسمى حذف الإيجاز.

- ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ سمى جزاء العدوان عدواناً من قبيل «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ قال الزجاج: العرب تقول: ظلمني فلان فظلمته، أي جازيته بظلمه.

فائدة: لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة «سبيل الله» وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة.

تنبيه: كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ «قل» بلا فاء إلا في طه ﴿فقل ينسفها ربي نسفا﴾ فقد وردت بالفاء، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سُئلت عن الجبال فقل: ينسفها ربي نسفاً.

فائدة: روي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله ... إلى ... واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ من آية (١٩٦) إلى نهاية آية (٢٠٣).

المناسبة: لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأما آيات القتال فقد ذكرت عرضاً لبيان حكم هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم رد العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبين حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بينت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصده المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لما أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبين أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/١٥٢.

على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الارتباط بين الآيات السابقة واللاحقة.

اللغة: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار: معناه المنع والحبس، يقال: حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه قال الأزهري: حُصر الرجل في الحبس، وأُحصر في السفر من مرض أو انقطاع به ﴿الْهَدْيِ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحِلَّهُ﴾ المَحِلُّ: الموضع الذي يحل به نحر الهدْي وهو الحرم، أو مكان الإحصار للمحصَر ﴿نُسُكٍ﴾ جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿رَفَثَ﴾ الرفث: الجماع وأصله من الفحش ﴿أَفَضْتُم﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصبّاً ومعنى ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي دفعتم منها بكثرة تشبيهاً بفيض الماء ﴿خَلَاقٍ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب.

سبب النزول:

أولاً: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله عز وجل ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾(١).

ثانياً: وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يُسمّون الحُمْس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(٢).

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۝ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ وَاذْكُرُوا اللَّهَ

(١) و (٢) أسباب النزول ص ٣١ للواحدي

في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴿﴾ ﴾.

التفسير: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أدوهما تامين بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرة أو شاة ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ أي فمن كان منكم معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلق في الإحرام، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فإذا أمنتم﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها، فعليه ما تيسر من الهدي وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم﴾ أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تلك عشرة كاملة﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ أي ذلك التمتع أو الهدي خاص بغير أهل الحرم، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره.

ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي من ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن لأنه مقبل على الله قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ أي خافوني واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك، فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي

٤ - ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فيه إجمال بعد التفصيل، وهذا من باب «الإطناب» وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها.

٥ - ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً فإنَّ ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع، ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغةٌ واضحة.

٧ - ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى «مرسلاً مجملاً».

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وبين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ الآية.

فائدة: أصل النسك: العبادة، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى.

فائدة ثانية: زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة، ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ إلى... ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تطهّر القلوب، وتزكي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، ثم حذّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبيّن لنا عداوته الشديدة.

اللغة: ﴿أَلَدُّ﴾ الألدّ: شديد الخصومة، قال الطبري: الألدّ: الشديد الخصومة وفي الحديث «إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم» ﴿الْحَرْثَ﴾: الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿النَّسْلَ﴾: الذرية والولد. وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ وسمي نسلاً لأنه ينسل - ينفصل - من بطن أمه بسرعة ﴿الْعِزَّةُ﴾ الأنفة والحمية ﴿فَحَسْبُهُ﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيه ﴿الْمِهَادُ﴾ الفراش الممهد للنوم ﴿يَشْرِي﴾ يبيع ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب ﴿السِّلْمِ﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قال الشاعر:

دعوت عشيرتي للسلم حتى ... رأيتهم تولوا مدبرينا

﴿زللتم﴾ الزلل: الانحراف عن الطريق المستقيم، وأصله في القدم، ثم استعمل في الأمور المعنوية ﴿ظلل﴾ جمع ظلة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية.

سبب النزول:

١ - روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع وقتل الحُمُر، فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿ومن الناس من يعجبك قوله ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ...﴾ الآية.

٢ - وروي أن صهيباً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً وايم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير! فقال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم فدلّهم على ماله بمكة، فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام: ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب! وأنزل الله عز وجل فيه ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ...﴾ الآية.

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

التفسير: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بحلاوة لسانه وقوة بيانه، ولكنه منافق كذاب ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي في هذه الحياة فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي يحلف لك بالأيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي

منفخر الرازي ٥/٢١٥ وأسباب النزول ص ٣٤.
نفس المرجع السابق.

شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذُكِّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة، والمعنى: ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يقصد بعمله إلا وجه الله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً، فالإسلام كلٌّ لا يتجزأ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدوٌّ لكم ظاهر العداوة ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه، حكيم في خلقه وصنعه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق[1] حيث تنشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام، وحملةُ العرش والملائكة الذين لا يعلم

---

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وهو مجاز مشهور يقال: ضرب الأمير فلاناً وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك، واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية مع نفي التشبيه إلى الله تعالى.

تنزلهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين.

ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أي سل يا محمد بني إسرائيل - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلة ومكانة، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة، والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي والله يرزق أولياءه رزقاً واسعاً رغداً لا فناء له ولا انقطاع كقوله: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمناً كان أو كافراً، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى.

البلاغة

١ - ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ ذكر لفظ «الإثم» بعد قوله «العزة» يسمى عند علماء البديع بـ «التتميم» لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة.

٢ - ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللين.

٣ - ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء (إلا) بعدها أي ما ينتظرون.

٤ - ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ التنكير للتهويل، فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها وقوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ هو عطف على المضارع ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان.

٥ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦- ﴿زُيِّنَ ... وَيَسْخَرُونَ﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركوزاً في طبيعتهم، وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم، لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار.

تنبيه: قال ابن تيمية رحمه الله في رسالته التدمرية: «ووصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صح عن رسوله ﷺ، والقولُ في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، أنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليقل له: كما لا نعلم كيفية ذاته كذلك لا نعلم كيفية صفاته».

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... إلى ... أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من آية (٢١٣) إلى نهاية آية (٢١٨).

المناسبة: ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى في الأرض فساداً ويخدع الناس بخلابة لسانه وقوة بيانه، وفريق باع نفسه لله يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه، ولما كان لا بدّ من التصارع بين الخير والشر، ولا بدّ للحق من سيف مصلت إلى جانبه، لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف دفاعاً عن الدين وقمعاً للشهوات دفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان.

اللغة: ﴿بَغْيًا﴾ البغي: العدوان والطغيان ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ الزلزلة: شدة التحريك، وزلزلة الأرض هو اضطرابها، والزلزلة: التحريك الشديد ﴿كُرْهٌ﴾ مكروه تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة: الكُره (بالضم) المشقة، (وبالفتح) الإكراه والقهر ﴿وَصَدٌّ﴾ الصدُّ المنع يقال: صدَّه عن الشيء أي منعه عنه ﴿يَرْتَدِدْ﴾ يرجع، والردة: الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب: «الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾»[1] ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت، قال في اللسان: حبط: عمل عملاً ثم أفسده، وفي التنزيل ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطل ثوابهم ﴿يَرْجُونَ﴾ الرجاء: الأمل والطمع في حصول ما فيه نفع ومصلحة[2].

سبب النزول: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليترصدوا عيراً لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة، وكان

---

(١) مفردات القرآن للراغب. (٢) لسان العرب مادة حبط.

ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم! وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه..﴾ الآية.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

التفسير: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أي أنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلة وجهل ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان واختبار ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي والحال لم يصبكم مثل ما أصاب من سبقكم من المؤمنين من المحن والشدائد، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتُلوا به من النكبات ﴿مستهم البأساء والضراء﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي أزعجوا إزعاجاً

شديدًا شبيهًا بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه: متى نصر الله؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاء منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها، قال تعالى جوابًا لهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة: يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي قل لهم يا محمد: اصرفوها في هذه الوجوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء، ثم قال تعالى مبينًا حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئًا وفيه كل النفع والخير ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئًا وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيرًا، لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شرًّا لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي قل لهم: القتال فيه أمره كبير، ووزره عظيم، ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرهم بالله وصدهم عن المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته، كلُّ ذلك أعظم وزرًا وذنبًا عند الله من قتل من قتلتم من المشركين، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يرده إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبدًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر هم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

البلاغة

١- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلفوا فبعث الله النبيين، ودلّ على المحذوف قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

٢- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ (أم) منقطعة، والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم؟ ففيه استفهام إنكاري.

٣- ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ (لمّا) تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري، والمعنى: لم ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا. قال المبرد: إذا قال القائل: لم يأتني زيد فهو نفي لقولك: أتاك زيد؟ وإذا قال: لمّا يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعدُ وأنا أتوقعه، وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعًا منتظرًا.

٤- ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة عدة مؤكدات تدل على تحقق النصر أولاً: بدء الجملة بأداة الاستفتاح «ألا» التي تفيد التأكيد، ثانيًا: ذكر «إنّ» الدالة على التوكيد أيضًا، ثالثًا: إيثار الجملة الاسمية على الفعلية فلم يقل «ستنصرون» والتعبير بالجملة الاسمية يفيد التأكيد، رابعًا: إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء.

٥- ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول «كُره» مكان «مكروه» للمبالغة كقول الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.

٦- ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ... وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ«المقابلة» فقد قابل بين الكراهة والحب، وبين الخير والشر.

٧- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ طباق بالسلب.

فائدة: عبّر تعالى بصيغة المفرد عن كتب النبيين ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هي في حقيقة جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ الآية.

تنبيه: روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... إلى ... إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ من آية (٢١٩) إلى نهاية آية (٢٢٥).

المناسبة: لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يتهجمها العدو الخارجي، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمها على أسس متينة وتبقى صرحًا شامخًا لا تؤثر فيه الأعاصير.

اللغة: ﴿الْخَمْرِ﴾ المسكر من الأشربة سميت خمرًا لأنها تستر العقل وتغطيه ومنه خمّرت الإناء أي غطيته ﴿الْمَيْسِرِ﴾ القمار، وأصله من اليسر؛ لأنه كسبٌ من غير كدٍّ ولا تعب، وقيل: من اليسار لأنه سبب الغنى ﴿إِثْمٌ﴾ الإثم: الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ «الإثم» لأن شربها سبب في الإثم قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي ... كذاك الإثم تذهب بالعقول

﴿الْعَفْوَ﴾ الفضل والزيادة على الحاجة ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة، وأصل العنت: المشقة ﴿أَمَةٌ﴾ الأمة: المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء ﴿الْمَحِيضِ﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش، وأصل الحيض: السيلان يقال: حاض السيل وفاض، وحاضت الشجرة أي سالت، ويقال للمرأة: حائض وحائضة وأنشد الفراء: «كحائضة يُزنى بها غير طاهر» ﴿حَرْثٌ﴾ الحرث: إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب. وقال الجوهري[1]: الحرث: الزرع، والحارث: الزارع ومعنى حرث أي مُزدرع ومنبت للولد على سبيل التشبيه ﴿عُرْضَةً﴾ مانعًا وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرضة ولهذا يقال للسحاب: عارض لأنه يمنع رؤية الشمس ﴿اللَّغْوِ﴾ الساقط الذي لا يُعتدّ به سواء كان كلامًا أو غيره ولغو الطائر: تصويته.

سبب النزول:

أ - جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...﴾ الآية.

ب - عن ابن عباس قال: لمّا أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ...﴾ الآية.

ج - عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل

(١) الصحاح للجوهري مادة حرث.

الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام.

ثم قال تعالى محذرًا من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولَأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أي ولا تزوّجوا بناتكم من المشركين - وثنيين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولأنْ تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حرٍّ مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوّجوهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب.

ثم بين تعالى أحكام الحيض فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم؟ فقل لهم: إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي لا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن.

والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهَّرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد القُبُل لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحبُّ التائبين من الذنوب، المتنزهين عن الفواحش والأقذار ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس: (اسق نباتك من حيث ينبت) ومعنى ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم قائمة وقاعدة ومضطجعةً بعد أن يكون في مكان الحرث الفرج، وهو ردٌّ لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخرًا في الآخرة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سببًا مانعًا عن فعل الخير فتتعللوا

باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفت بالله ألا أفعله وأريد أن أبرّ يميني بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم[1] قال ابن عباس: لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلّم ختنه «النعمان بن بشير» ولا يصلح بينه وبين أخته ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

ثم قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به اليمين ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الأيمان إذا حنثتم فيها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة.

البلاغة:

١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر.

٢ - ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ «الإطناب».

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل.

٤ - ﴿الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ في الآية طباق بين كلمة «المفسد» و«المصلح» وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة «النار» وكلمة «الجنة».

٦ - ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، وأصله: المحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم: عليّ أسد.

٧ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع.

٨ - ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ على حذف مضاف أي موضع حرث أو على سبيل التشبيه فالمرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات الخارج، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة.

الفوائد:

الأولى: تسمى الخمر أم الخبائث لأنها سبب في كل فعل قبيح. روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد فعلقته

---

(١) وقيل المعنى: لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير، عظيم أو حقير لإرادة أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلّاف لا يكون برّاً ولا تقياً.

امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت : إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام، قال : فاسقيني من هذه الخمر كأسًا، فسقته كأسًا فقال : زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه)

الثانية: كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية «المنافع المادية» حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش، ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبّر عنها الشاعر بقوله :

ونشربها فتتركنا ملوكًا وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقاء

قال القرطبي: وشارب الخمر يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورؤي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله كما أكرمتني[1].

الثالثة: قال الزمخشري : ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم[2].

□□□

قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ .. إلى .. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٢٢٦) إلى نهاية آية (٢٣٠)

المناسبة: ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحلُّ عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبّه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات، ثم بيّن في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء، والطلاق والخلع وبيّن العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة

(١) القرطبي ٣/ ٥٧ . (٢) الكشاف ١/ ٢٠٢ .

اللغَة: ﴿يُؤْلُونَ﴾ الإِيلاء لغة: الحلف يقال: آلى يؤالي إيلاءً قال الشاعر:

فآليتُ لا أنفكُّ أحدو قصيدةً ... تكون وإِياها بها مثلاً بعدي

وفي الشرع: اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تَرَبُّصُ﴾ التربص: الانتظار ومنه ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي انتظروا ﴿فَآءُوا﴾ الفيء: الرجوع ومنه قيل للظل فيء لأنه يرجع بعد أن تقلّص، قال الفراء: العرب تقول: فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب قال الشاعر:

ففاءت ولم تقضِ الذي أقبلت له ... ومن حاجة الإِنسان ما ليس قاضيا

﴿قُرُوءٍ﴾ جمع قرء، اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد، وأصل القرء: الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في القاموس: القُرْء بالفتح ويضم: الحيض والطهر والوقت، جمع الطهر قروء، وجمع الحيض أقراء ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل ويعني الزوج ﴿وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ والمرأة بعلة ﴿دَرَجَةٌ﴾ الدرجة: المنزلة الرفيعة ﴿الطَّلاَقُ﴾ مصدر طلقت المرأة ومعنى الطلاق: حلّ عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية. يقال: ناقة طالق أي مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعٍ، فسميت المرأة المخلّى سبيلها طالقاً لهذا المعنى ﴿تَسْرِيحٌ﴾ التسريح: إرسال الشيء، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرّح الماشية أرسلها قال الراغب: والتسريح في الطلاق مستعار من تسريح الإِبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإِبل (1).

سَبَبُ النّزول: كان الرجل في الجاهلية يطلّق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تمضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: لا آويك ولا أدعك تحلّين! قالت: وكيف؟ قال أطلّقك فإذا دنا مضيّ عدتك راجعتك، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ...﴾ الآية.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228) الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)﴾.

التفسير: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي للذين يحلفون ألاّ يجامعوا نساءهم للإِضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم

(1) المفردات ص ٢٢٩

من إساءة وتربصهم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن صمّموا على عدم الإمساك والامتناع عن المعاشرة فإن الله سميع لأقوالهم عليم بنياتهم، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظر الزوجة مدة أربعة أشهر، فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي: ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق فإن امتنع عنهما طلّق عليه الحاكم، هذا هو خلاصة حكم الإيلاء... ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي الواجب على المطلقات المدخول بهن أن يمكثن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد، ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبل أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يُعلم إلا من جهتهن ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من الأجانب إذا لم تنقض عدتهن وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهن على الرجال من الحقوق مثل ما للرجال عليهن بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي وللرجال على النساء ميزة، وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليف لا تشريف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه، حكيم في أمره وتشريعه.

ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان، وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالتنازل عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مما لم

بشرع الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعذاب الشديد ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرّح به الحديث الشريف، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور(1).

البلاغة

١ - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد.

٢ - ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر، وأصل الكلام وليتربص المطلقات. قال الزمخشري: إخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً، وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد(2).

٣ - ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهييج وتهويل الأمر في نفوسهن.

٤ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول، والمعنى: لهنّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً «الطباق» بين «لهنّ» و«عليهنّ» وهو طباق بين حرفين.

٥ - ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ بين لفظ الإمساك ولفظ التسريح طباقٌ أيضاً.

٦ - ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

٧ - ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر صفة على موصوف.

فائدة: أول خلع كان في الإسلام في امرأة ثابت بن قيس، أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، والله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام، فقال لها عليه السلام: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، ففرّق بينهما

(1) انظر الحكمة التشريعية مفصلاً في كتابنا روائع البيان ١/٣٤٣.
(2) الكشاف ١/٢٠٧.

لطيفة: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ...﴾ إلى ... ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ من آية (٢٣١) إلى نهاية آية (٢٣٢).

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضيح طريقته وشروطه وآدابه والنهي عن الإيذاء والإضرار، فوجه المناسبة إذاً ظاهر.

اللغة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة ﴿ضِرَارًا﴾ أي بقصد الإضرار قال القفال: الضرار هو المضارة كقوله ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي ليضاروا المؤمنين ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العضل: المنع والتضييق، يقال: أعضل الأمر أي أشكل وضاقت فيه الحيل، وداء عُضال أي عسير أعيا الأطباء قال الأزهري: وأصله من عضلت الناقة: إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه[1] ﴿يُوعَظُ بِهِ﴾ يوصى ويؤمر به ﴿أَزْكَى﴾ أنمى وأنفع يقال: زكا الزرع إذا نما بكثرة وبركة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ الطهارة: التنزه عن الدنس والمعاصي.

سبب النزول: روي أن معقل بن يسار زوّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له: يا لُكَع أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها!! والله لا ترجع إليك أبداً. فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ...﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك[2].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

التفسير: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقاربن انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجر لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك معتدته حتى إذا شارفت انقضاء العدة يراجعها للإضرار بها ليطوّل عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها

(١) تهذيب اللغة مادة عضل.
(٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/٥٣.

على الاعتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه؛ لأنه عرّضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي يرشدكم ويذكركم بكتابه وهدي رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم.

ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما بالعودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون.

البلاغة:

١ - ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن، أطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل؛ لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

٢ - ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن النعمة يراد بها نعم الله، والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم.

٣ - ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بين كلمة «اعلموا» و«عليم» من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق.

٤ - ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ يريد بأزواجهن المطلقين لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان.

فائدة: قال الإمام الفخر: الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشق عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه، فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعبده[١].

(١) التفسير الكبير ٦/١٠٥.

قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ .. إلى .. وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من آية (٢٣٣) إلى نهاية آية (٢٣٧).

المناسبة: لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع، لأن الطلاق يحصل به الفراق، فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه، وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعايةً لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدة، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق.

اللغَة: ﴿فِصَالًا﴾ الفصال والفصل: الفطام، سمي به لأن الولد ينفصل عن ثدي أمه إلى غيره من الأقوات. قال المبرد: الفِصال أحسن من الفَصل، لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فِصال كالقتال والضراب ﴿تَشَاوُرٍ﴾ التشاور: استخراج الرأي، ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل ﴿يَذَرُونَ﴾ يتركون، وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر ﴿عَرَّضْتُم﴾ التعريض: الإيماء والتلويح من غير كشف وإظهار، مأخوذ من عُرْض الشيء أي جانبه كقول الفقير للمحسن: جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خِطْبَةِ﴾ بكسر الخاء طلب النكاح، وبالضم الموعظة كخطبة الجمعة والعيدين ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ سترتم وأضمرتم، والإكنان: الستر والإخفاء ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من العقد وهو الشدُّ وفي المثل "يا عاقد اذكر حلاً" قال الراغب: العُقْدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما ﴿حَلِيمٌ﴾ يمهل العقوبة فلا يعجل بها للعاصي ﴿الْمُقْتِرِ﴾ الفقير، يقال: أقتر الرجل إذا افتقر.

سبب النزول: روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسمّ لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسها فنزلت الآية ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فقال له النبي ﷺ: (متّعها ولو بقلنسوتك)(١).

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا

(١) القرطبي ٣/ ٢٠٢.

أنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ۞ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

التفسير: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن مدة سنتين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير ليقوم بخدمته حق القيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة؛ لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي لا يضرّ الوالدان بالولد فيفرّطا في تعهده ويقصرا فيما ينبغي له، أو يضارّ أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضرّ أباه بتربيته، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه، قاله مجاهد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي وعلى الوارث مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، والمراد به وارثُ الأب، وقيل: وارثُ الصبي، والأول اختيار الطبري ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهن الشرع من الزينة والتعرض للخطّاب ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عباس: كقول الرجل: وددت أن الله يسّر لي امرأة صالحة، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما

أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن، فرفع عنكم الحرج، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرًّا إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه، ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس فقال ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس "الجماع" وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهرًا، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وإذا طلقتموهنَّ فادفعوا لهنَّ المتعة تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لوحشة الفراق، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعًا بالمعروف حقًّا على المؤمنين المحسنين ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهرًا معينًا فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن، لأنه طلاق قبل المسيس ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلّقة حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحقَّ إذا كانت صغيرة، وقيل: هو الزوج؛ لأنه هو الذي يملك عُقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير، وقال الزمخشري: القول بأنه الوليُّ ظاهر الصحة[1] ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعًا لروابط المصاهرة ووشائج القربى.

البلاغة:

١- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ أمرٌ أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه، أي ليرضعن كالآية السابقة ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾.

٢- ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، لأن ما قبله ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء.

---

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم، قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري: وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لو جرى منه سياقها بالطف بيان فانظرها في الكشاف ٢١٧/١.

٣- ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، وإذا نُهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

٤- ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنّى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به.

٥- ﴿وَأَن تَعْفُوا﴾، ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب.

٦- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة.

الفوائد:

الأولى: التعبير بلفظ «الوالدات» دون قوله «المطلقات» أو «النساء المطلقات» لاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهنّ لا ينبغي أن يَحْرِمهنّ عاطفة الأمومة.

الثانية: أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كلٍّ من الأبوين في قوله ﴿وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ و﴿مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين، هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به.

الثالثة: الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيحاش الطلاق، قال ابن عباس: إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب، وإن كان موسراً متعها بخادم.

الرابعة: روي أن الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم، فقالت المرأة «متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق» وسبب طلاقه إياها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرّم الله وجهه وبويع الحسن بالخلافة قالت له: تهنئك الخلافة يا أمير المؤمنين! فقال: يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثاً، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعةً وبقيةَ ما بقي لها من صداقها، فقالت ذلك، فلما أخبره الرسول بكى وقال: لولا أني طلقتها ثلاثاً لراجعتها[1].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ... إلى ... يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من آية (٢٣٨) إلى نهاية (٢٤٢).

المناسبة: توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق، وذلك لحكمة بليغة، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها، ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌّ فزع إلى الصلاة، فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية

(١) القرطبي ٣/٢٠٢.

اللغَة: ﴿حَافِظُوا﴾ المحافظة: المداومة على الشيء والمواظبة عليه ﴿الْوُسْطَىٰ﴾ مؤنث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، قال أعرابي يمدح الرسول ﷺ:

يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم ... وأكرم الناس أماً برةً وأبا

﴿قَانِتِينَ﴾ أصل القنوت في اللغة: المداومة على الشيء، وقد خصه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع، قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.
﴿فَرِجَالًا﴾ جمع راجل وهو القائم على القدمين قال الراغب: اشتُقَّ من الرِّجْل: راجل، للماشي بالرِّجْل، ويقال: رجل راجلٌ أي قويٌّ على المشي[1] ﴿رُكْبَانًا﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

التفسِير: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ أي واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍّ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم. وهذه كقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والذكر في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، قال الزمخشري: المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن.

ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم، على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تُمتَّع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، يُنفَق عليهنَّ من تركته ولا يخرجن من مساكنهن، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي فإن خرجن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخُطَّاب ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ

---

(١) مفردات الراغب مادة رجل.

﴿مَتَاعٌۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتّعن المطلقات بقدر استطاعتهم جبرًا لوحشة الفراق، وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة بين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

البلاغة:

١- ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ عطف خاص على عام لبيان مزيد فضلها.

٢- ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ بين لفظ «خفتم» و«أمنتم» طباق وهو من المحسنات البديعية، قال أبو السعود: وفي إيراد الشرطية بكلمة «إنْ» المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف، وإيراد الثانية بكلمة «إذا» المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار[1].

تنبيه: الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر؛ لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء، ويقوي هذا ما ورد في الصحيحين: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا» وفي الحديث: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله» أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ ... إلى ... وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ من آية (٢٤٣) إلى نهاية آية (٢٥٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لهم ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال، وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله.

اللغة: ﴿أُلُوفٌ﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف، ومعناه كثرة كاثرة والوف مؤلفة ﴿حَذَرَ﴾ خشية وخوف ﴿يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقتير، والبسط ضده، والمراد به التوسيع قال أبو تمام:

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو انه ... دعاها لقبضٍ لم تجبه أناملُه

﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ الأشراف من الناس، سموا بذلك لأنهم يملأون العين مهابةً وإجلالاً ﴿فَصَلَ﴾

(١) تفسير أبي السعود ١/١٨٠.

انفصل من مكانه يقال: فصل عن الموضع أي انفصل عنه وجاوزه ﴿مبتليكم﴾ مختبركم ﴿يظنون﴾ يستيقنون ويعلمون ﴿فئة﴾ الفئة: الجماعة من الناس لا واحد له كالرهط والنفر ﴿أفرغ﴾ أفرغ الشيء صبه وأنزله.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿٢٤٣﴾ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴿٢٤٤﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴿٢٤٥﴾ ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ﴿٢٤٦﴾ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴿٢٤٧﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٢٤٨﴾ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴿٢٤٩﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿٢٥٠﴾ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿٢٥١﴾ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

التفسير: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حذر الموت﴾ أي خوفاً من الموت وفراراً منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذرٌ من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة

والمصالح القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل يكفرون ويجحدون ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلاً ولا يبعده ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جلّ جلاله وفي الحديث "من يقرض غير عديم ولا ظلوم"(١) ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أي يقتّر على من يشاء، ويوسّع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي حين قالوا لنبيّهم "شمعون" - وهو من نسل هارون(٢) - أمّر لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي قال لهم نبيهم: أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أُخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، قال القرطبي: وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جبنت وانقادت لطبعها(٣) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصياناً لأمره تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أي قالوا معترضين على نبيهم: كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحقّ بالملك منه، لأن فينا من هو من أولاد الملوك، وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض فقال: إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث البزار، وانظر مختصر ابن كثير ١/ ٢١٤.
(٢) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل. (٣) القرطبي ٣/ ٢٤٥.

منصور بعون الله ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرب على الحروب ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائنا ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، وهي الدعوة الثانية ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده، وهي الدعوة الثالثة، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابة لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه. قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي لولا أن يدفع الله شر الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي ذو تفضل وإنعام على البشر حيث لم يمكّن للشر من الاستعلاء ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل.

البلاغة:

١- قال أبو حيان: تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة، منها الاستفهام الذي يجري مجرى التعجب في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ والحذف بين ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي فماتوا ثم أحياهم، والطباق في قوله ﴿مُوتُوا﴾ و﴿أَحْيَاهُمْ﴾ وكذلك في قوله ﴿يَقْبِضُ﴾ و﴿يَبْسُطُ﴾ والتكرار في قوله ﴿فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ و﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ والالتفات في ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه، والتجنيس المغاير في قوله ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ وقوله ﴿أَضْعَافًا﴾ (١).

٢- ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ فيه استعارة تمثيلية، فقد شبه حالهم - والله تعالى يفيض عليهم بالصبر - بحال الماء يُصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً.

---

(١) البحر المحيط ٢/٢٦٤.

الفوائد:

الأولى: أسند الاستقراض إلى الله في قوله ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جل وعلا في الحديث القدسي: «ابن آدم مرضتُ فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني، واستسقيتك فلم تسقني» الحديث الذي رواه الشيخان.

الثانية: روي أنه لما نزلت الآية الكريمة جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وإنّ الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح! قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني - وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[1] وفي رواية قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح، وخرجت منه مع عيالها.

الثالثة: قال البقاعي: ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته، لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل[2].

□□□

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... إلى ... وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ من آية (٢٥٣) إلى نهاية آية (٢٥٤).

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر.

اللغة: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ جمع درجة، وهي المنزلة الرفيعة السامية ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه، من التأييد بمعنى التقوية ﴿رُوحِ الْقُدُسِ﴾ القدس: الطهر، وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ﴿خُلَّةٌ﴾ الخُلّة: الصداقة والمودة، سميت بذلك لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها، ومنه الخليل ﴿شَفَاعَةٌ﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود.

(٢) محاسن التأويل ٣/٦٥٠.

آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

التفسير: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقاً، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي منهم من خصه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أي ومنهم من خصه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكلُّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعّال لما يريد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب.

البلاغة:

١- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الإشارة بالبعيد لبعد مرتبتهم في الكمال.

٢- ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ...﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل، ويسمى هذا في البلاغة: التقسيم، وكذلك في قوله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وبين لفظ «آمن» و«كفر» طباقٌ.

٣- الإطناب وذلك في قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ حيث كرر جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾

٤- ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر الصفة على الموصوف، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل.

فائدة: روي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم

يخلص منه إلا من عصمه الله.

تنبيه: يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مكان (ومن لم يحج) ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...﴾ إلى ... ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ من آية (٢٥٥) إلى نهاية آية (٢٥٧).

المناسبة: لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يقتضي التنازع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوة واحدة هي الدعوة إلى التوحيد فرسالتهم واحدة ودينهم واحد، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه.

اللغة: ﴿الْحَيُّ﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنَةٌ﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر:

وسنان أقصده النعاس فرنّقت ... في عينه سِنَةٌ وليس بنائم

﴿يَئُودُهُ﴾ يُثقله ويتعبه ﴿الْعَلِيُّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه ﴿إِكْرَاهَ﴾ الإكراه: حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿الطَّاغُوتِ﴾ من الطغيان وهو كل ما يُطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الْوُثْقَىٰ﴾ مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثّق ﴿انفِصَامَ﴾ الانفصام: الانكسار، قال الفراء: الانفصام والانقصام لغتان وبالقاف أفصح وقال بعضهم: الفصم انكسار بغير بينونة، والقصم انكسار ببينونة.

سبب النزول: كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تُسلما فنزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [1] الآية.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى

(١) القرطبي ٣/٢٨٠.

الطَّـٰغُوتُ أَوْلِيَآؤُهُمُ ... أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾

التفسير: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي هو الله جلّ جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الحياة الكاملة، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في الحديث: «إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه» ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إياه على ألسنة الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أحاط كرسيه بالسموات والأرض لبسطته وسعته، والسموات السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاة في فلاة، وروي عن ابن عباس ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء[1] وقال الحسن البصري: الكرسي هو العرش قال ابن كثير: والصحيح أن الكرسي غير العرش، وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله: وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي من كفر بما يُعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال ﴿أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً.

البلاغة:

١ – في آية الكرسي أنواعٌ من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل

---

(١) قال ابن جرير: وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن، ولأن أصل الكرسي العلم، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال: أوتاد الأرض. انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير.

أسماء الله تعالى، وتكرار اسمه ظاهرًا ومضمرًا في ثمانية عشر موضعًا، والإطناب بتكرير الصفات، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف، والطباقُ في ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أفاده صاحب البحر المحيط.

٢- ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم، وعدم الانفصام ترشيح.

٣- ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في تلخيص البيان: وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبةُ الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[1].

فائدة: أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة.

تنبيه: آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله، وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف: (اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه) قال هشام: أما البقرة فقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن كثير: وقد اشتملت على عشر جمل مستقلة، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد[2].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ... إلى ... وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ من آية (٢٥٨) إلى نهاية آية (٢٦٠).

المناسبة: لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجًا عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر ضمنها قصصًا ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم، والثانية والثالثة في إثبات الحشر، والبعث بعد الفناء.

اللغَة: ﴿حَاجَّ﴾ المحاجّة: المغالبة يقال: حاججته فحججته، وحاجه أي بادله الحجة ﴿فَبُهِتَ﴾ انقطع وسكت متحيرًا، قال العذري:

فما هو إلا أن أراها فجاءةً ... فأبهت حتى ما أكاد أجيب

﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عُرُوشِهَا﴾ العرش: سقف البيت، وكلُّ ما يهيأ ليُظِلَّ أو يُكِنَّ فهو عريش

---

(١) تلخيص البيان ص ١٥.   (٢) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠.

﴿يَتَسَنَّهْ﴾ يتغير ويتبدل من تسنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيّرتها ﴿نُنشِزُهَا﴾ نركب بعضها فوق بعض، من النشز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض نَشْز، ومنه نشوز المرأة ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ ضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ، من صار الشيء يصوره إذا قطعه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو «النمرود بن كنعان» الذي جادل إبراهيم في وجود الله؟ ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعيم الملك على إنكار وجود الله، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله: إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي قال ذلك الطاغية: وأنا أيضاً أحيي وأميت، روي أنه دعا برجلين حُكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال: هذا قتلته، وأمر بإطلاق الآخر وقال: هذا أحييته، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحاماً ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي أُخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوتاً دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثلٌ لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثلُ الذي مرّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي «قرية بيت المقدس» لما خرّبها بختنصر ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه «عزير» على الرأي الأشهر: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي

خاوية من الخراب والدمار، وكان راكبًا على حماره حينما مرّ عليها ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتًا مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال له ربه بواسطة الملَك: كم مكثتَ في هذه الحال؟ قال يومًا ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال: أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي بل مكثت ميتًا مائة سنة كاملة ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه سلّةُ تينٍ وعصير فوجدهما على حالهما لم تفسد ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلاً من البلى ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحمًا بقدرتنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال: أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء، والمعنى: اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي أوَلم تصدّق بقدرتي على الإحياء؟ قال: بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي فرّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ادعهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد: كانت طاوسًا وغرابًا وحمامة وديكًا فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي لا يعجز عما يريده، حكيم في تدبيره وصنعه. قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزّأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيرًا كما كانت وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل. ذكره ابن كثير.

البلاغة:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب.

٢ - ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار، والصيغة تفيد القصر ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين، والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وبين كلمتي «يحيي» و«يميت» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ «المشرق» و«المغرب».

٣ - ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ التعبير بالاسم الموصول يشعر بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال: فبهت الكافر لما أفاد ذلك المعنى الدقيق.

٤ - ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ موت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل.

٥ - ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يستر الجسد باللباس قال أبو حيان: الكسوة حقيقة هي ما وارى الجسد من الثياب، واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطّى العظم وهي استعارة في غاية الحسن(١).

الفوائد:

الأولى: قال مجاهد: ملك الدنيا مشرقها ومغربها أربعة: مؤمنان، وكافران. فالمؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران النمرود وبختنصر(٢) الذي خرّب بيت المقدس.

الثانية: لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه.

الثالثة: سؤال الخليل ربه بقوله: ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كَيْفَ﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعناه: ونحن لم نشك فلأنْ لا يشك إبراهيم أحرى وأولى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... إلى ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ من آية (٢٦١) إلى نهاية آية (٢٦٩).

المناسبة: لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: أولياء الله وهم المؤمنون، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان، ذكر هنا ما يرغّب في الإنفاق في سبيل الله، خاصة في أمر الجهاد لأعداء الله، لأن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة: أولها: الإقناع بالحجة والبرهان. وثانيها: الجهاد بالنفس. وثالثها: الجهاد بالمال، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال.

اللغة: المنُّ أن يعتدّ بإحسانه على من أحسن إليه، وأن يذكره النعمة على سبيل التطاول

---

(١) البحر المحيط ٢/٢٩٤ (٢) مختصر ابن كثير ١/٢٣١

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

التفسير: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ قال ابن كثير: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي كل سنبلة منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّت سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بنيّة المنفق ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنّ على من أحسنوا إليه كقوله: قد أحسنت إليك وجبرت حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يعتريهم فزعٌ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فاتهم من زهرة الدنيا ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره... ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنّ والأذى ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضاً طيبة منبتة ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد... ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً بلقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض، وخُصَّت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنيّة

مرتفعة، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف، أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر، فكيف تؤدون منه حق الله!! ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي أنه سبحانه غني عن نفقاتكم، حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء. ثم حذّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرة للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لأنها تصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

البلاغة

١ - ﴿كمثل حبة﴾ شبه سبحانه الصدقة التي تنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمائة حبة، ففيه تشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان: وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر[1].

٢ - ﴿أنبتت سبع سنابل﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسناد مجازي ويسمى المجاز العقلي لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٥

٣- ﴿مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المن.

٤- ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ فيه تشبيه يسمى "التشبيه التمثيلي" لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾

٥- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ...﴾ الآية، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة "استعارة تمثيلية" وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، والهمزة للاستفهام، والمعنى على التبعيد والنفي، أي ما يود أحدٌ ذلك.

٦- ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة، لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك، ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة(١).

الفوائد:

الأولى: قال الزمخشري: المنّ أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، وفي نوابغ الكلم "صنوان: من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضنّ" وطعم الآلاء أحلى من المنّ، وهو أمرّ من الآلاء مع المنّ(٢) وقال الشاعر:

وإن امرءاً أسدى إليّ صنيعة ... وذكّرنيها مرةً للئيم

الثانية: المطر أوله رشٌّ ثم طشٌّ ثم طلٌّ ثم نضحٌ ثم هطلٌ ثم وبلٌ، والوابل المطر الشديد الغزير.

الثالثة: قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس: ضُربت مثلاً بعمل لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله) أخرجه البخاري.

الرابعة: قال الحسن البصري: هذا مثلٌ قلّ والله من يعقله: شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإعصار فأحرقها، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ إلى ... ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من آية (٢٧٠) إلى نهاية آية (٢٧٤).

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأفضلها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته، وترغّب في إخفاء الصدقات؛ لأنها أبعد عن الرياء، فوجه

(١) الفتوحات الإلهية ١/٢٢٢
(٢) الكشاف ١/٢٣٨ والآلاء (بالمد) شجر حسن المنظر مر الطعم، كذا في الصحاح.

خبرٌ بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تُنقصون شيئاً من حسناتكم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح، وقيل: معناه: إن سألوا سألوا بتلطف ولم يُلحوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

البلاغة:

١ - ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بين «أنفقتم» و«نفقة» جناس الاشتقاق وكذلك بين «نذرتم» و«نذر».

٢ - ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ في الإبداء والإخفاء طباق لفظي، وكذلك بين لفظ «الليل والنهار» و«السر والعلانية» وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إطناب لوروده بعد قوله ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي معناه يصلكم وافياً غير منقوص.

فائدة: قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطُنع إليك فانشره. وأنشدوا:

يُخفي صنائعه والله يُظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ﴾ .. إلى .. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من آية (٢٧٥) إلى نهاية آية (٢٨١).

المناسبة: لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وحضّ على الصدقة ورغّب في الإنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح، الذي هو شحٌ وقذارة ودنس، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك التوجيه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق جلياً بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء».

اللغَة: ﴿الرِّبَا﴾ لغة: الزيادة، يقال: ربا الشيء إِذا زاد، ومنه الربوة والرابية، وشرعاً: زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ التخبط: الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه، ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط في عشواء وتورط في عمياء. وتخبطه الشيطان: إِذا مسّه بخبل أو جنون ﴿الْمَسِّ﴾ الجنون، وأصله من المس باليد كأن الشيطان يمسُّ الإِنسان فيحصل له الجنون ﴿سَلَفَ﴾ مضى وانقضى، ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يَمْحَقُ﴾ المحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال، ومنه المحاق في الهلال يقال: محقه الله فانمحق وامتحق. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإِثم المتمادي في الذنوب والآثام.

سَبَبُ النّزول: كان لبني عمرو من ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة، فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾ الآية فقالت ثقيف: لا يدان لنا أي لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط[1].

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

التفسير: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سويًّا، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرمه الله، وقولهم: الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً؟ قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي أحلّ الله البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، لأن فيه زيادة مقتطعة من جهد المدين ولحمه ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أمره موكول إِلى الله إِن شاء عفا عنه وإِن شاء عاقبه ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ومن عاد إِلى التعامل

(1) البحر المحيط ٢/٣٣٧.

بالربا واستحله بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر، ويُكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصاناً في الشاهد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي صدقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، قال ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي وإذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إما أن تقضي وإما أن تربي ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن تجاوزتم عنه وأبرأتموه فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم.

ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفس حسابها وأنتم لا تظلمون، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن، وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم، وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

البلاغة:

١- ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبه مكان المشبه به كقول الشاعر: كأنّ ضياء الشمس غرة جعفر، والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع، ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع.

٢- ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ بين لفظ (أحلّ) و(حرّم) طباق، وكذلك بين لفظ (يمحق) و(يربي).

٣- ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ صيغة فعّال وفعيل للمبالغة فقوله ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم.

٤- ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ التنكير للتهويل أي بنوع من الحرب عظيم لا يُقادر قدره كائن من عند الله. أفاده أبو السعود.

٥- ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف الشكل.

٦- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

الفوائد:

الأولى: عبّر بقوله ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواءٌ في ذلك المعطي والآخذ، لقول جابر في الحديث الشريف «لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء».

الثانية: شبّه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون. قال سعيد بن جبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

الثالثة: يقول شهيد الإسلام سيد قطب عليه الرحمة عند هذه الآية ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ما نصه: «إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب، وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة الحية المجسّمة، صورة الممسوس المصروع، ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث، ولكنها - فيما نرى - واقعة في هذه الأرض أيضًا على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي، إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي، ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك»[1] وهذا رأي حسن.

الرابعة: أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيتَ معسرًا فتجاوزْ عنه؛ لعلّ الله أن يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»[2].

□□□

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾.. إلى.. ﴿وَلَقَدْ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ من آية (٢٨٢) إلى نهاية آية (٢٨٣)

المناسبة: لما ذكر تعالى الربا وبيّن ما فيه من قباحة وشناعة، لأنه زيادة مقتطعة من عرق

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٨٢.

(٢) انظر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩.

المدين ونحسه، وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع. وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

اللغة: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ من الإملاء وهو أن يلقي عليه ما يكتب يقال: أملّ وأملى ﴿يَبْخَسْ﴾ البخس: النقص ﴿تَسْأَمُوا﴾ السأم والسآمة: الملل من الشيء والضجر منه ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط بكسر القاف - العدل يقال: أقسط الرجل إذا عدل، وبفتح القاف الجور يقال: قسط أي جار ومنه ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ﴿تَضِلَّ﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل أي تنسى، والضلال عن الشهادة نسيان جزء منها ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب ﴿تَرْتَابُوا﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فَرِهَانٌ﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ أي إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علمه الله ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدين وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي وليخش الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبياً أو شيخاً هرماً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيّ أو خرس أو عجمة فليملل قيّمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم

شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى، وهذا علةٌ لوجوب الاثنتين لنقص الضبط فيهن ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلاً أو كثيرًا إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي ما أمرتكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لئلا تنسى، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّين والأجل ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضرًا يدًا بيد والثمن مقبوضًا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقًا، سواءً كان البيع ناجزًا أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي لا يضرّ صاحبُ الحق الكُتّاب والشهود ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما نُهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقةً لدينه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي فإن أمن الدائنُ المدينَ فاستغنى عن الرهن ثقةً بأمانة صاحبه فليدفع ذلك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي إذا دُعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثمًا وصاحبه فاجرًا، وخُصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد.

البلاغة

١- في الآية من ضروب الفصاحة «الجناس المغاير» في قوله ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ وفي ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ وفي ﴿اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ وفي ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾.

٢- الطباق في قوله ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ وفي ﴿أَن تَضِلَّ﴾ و﴿فَتُذَكِّرَ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان.

٣- وفي الآية أيضًا الإطناب في قوله ﴿فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ وفي ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ و﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وفي ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾.

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلة صاحب البحر المحيط.

٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس.

٦ - ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير.

فَائدَة: العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللَّدُني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ... ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... إلى ... فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من آية (٢٨٤) إلى نهاية آية (٢٨٦) آخر سورة البقرة.

المنَاسَبَة: ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات؛ لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين .. إلخ فناسب تكليفه سبحانه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السماوات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء وهو مجازيه على الأعمال بما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد ..

اللغَة: ﴿إِصْرًا﴾ الإصر في اللغة: الثقل والشدة قال النابغة:

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم ... والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

وسميت التكاليف الشاقة إصراً، لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصراً لأنه ثقيل. ﴿طَاقَةَ﴾ الطاقة: القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ العفو: الصفح عن الذنب ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: ستر الذنب ومحوه.

سَبَبُ النّزول: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها! فقال ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فلما اقترأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [1] الآية.

(١) أخرجه مسلم وانظر أسباب النزول للواحدي ص ٥٦.

﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير (٢٨٤) آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢٨٥) لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

التفسير: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدّق بوحدانية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك يا الله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب. ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لكل نفسٍ جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم، والمعنى: لا تعذبنا يا الله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي أنت يا الله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائك وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ. روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلتُ.

البلاغة:

١- تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها: الطباق في قوله: ﴿وإن تبدوا ... أو تخفوه﴾ وبين «يغفر» و«يعذب»، ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كسبت﴾ و﴿اكتسبت﴾

لأن كسب في الخير، واكتسب في الشر.

٢- ومنها الجناس ويسمى الاشتقاق في قوله ﴿ءَامَنَ... وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٣- ومنها الإطناب في قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

٤- ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي آمنوا بالله ورسله ومواضع أخرى

فائدة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) أخرجه البخاري، وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له: «أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته».

تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة

تفسير سورة آل عمران

بين يدي السورة

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامّين من أركان الدين هما: الأول: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا. الثاني: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.. أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم «النصارى» الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذّبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذّة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فضلها: عن النواس بن سمعان قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران»[1].

(١) أخرجه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم ۝ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ۝ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ۝ من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ۝ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ۝ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ۝ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ۝ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ۝ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾.

التفسير: ﴿الم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدم في أول البقرة ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحق غيره ﴿الحي القيوم﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون عباده ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزّلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وأنزل التوراة والإنجيل ۝ من قبل هدى للناس﴾ أي أنزل الكتابين العظيمين «التوراة والإنجيل» من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان: القرآن وكرر تعظيماً لشأنه[1] ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره لا يُغلب، منتقم ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب ولا يعزب عن علمه أمرٌ من الأمور، فهو مطّلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكرٍ وأنثى، وحسن وقبيح ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي لا ربَّ سواه، متفردٌ بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى، فنبّه تعالى بكونه مصوّراً في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هنَّ أصل الكتاب وأساسه ﴿وأخر متشابهات﴾ أي وفيه آيات أُخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، فمن ردّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي فأما من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال فيتبع المتشابه

[1] وهو قول قتادة والربيع واختيار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿نزل عليك الكتاب﴾

مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الآية ثم قال: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم».

الثانية: قال القرطبي: أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم: أنَّ المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال، وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور[1].

الثالثة: ثبت القرآن قسمين: محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة، فإن قيل كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كله محكم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وما جاء في الزمر أن القرآن كله متشابه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾؟ فالجواب: أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده، فقوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ بمعنى أنه ليس به عيب، وأنه كلامٌ حقٌ فصيح الألفاظ، صحيح المعاني وقوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ بمعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في الحسن ويصدق بعضه بعضًا، فلا تعارض بين الآيات.

الرابعة: روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلًا قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: ما هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وقال: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وفي النازعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، وفي فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالوا نقل: لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتم حديثًا وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سموات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فسمى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك، ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلًّا من عند الله.

□ □ □

(١) القرطبي ٩/٤

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم . . إلى . . وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ من آية (١٠) إلى نهاية آية (١٧).

المناسبة: لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإِيمان، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين، وبيّن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت نتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خيرٌ للأبرار.

اللغة: ﴿تُغْنِيَ﴾ الإِغناء: الدفع والنفع ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ الوَقود (بفتح الواو) الحطب الذي توقد به النار (وبالضم) مصدر بمعنى الاتقاد ﴿دَأْبِ﴾ الدأب: العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إِذا جدَّ فيه واجتهد ثم أُطلق الدأب على العادة والشأن؛ لأن من دأب على شيء أمداً طويلاً صار له عادة ﴿آيَةٌ﴾ علامة ﴿فِئَةٍ﴾ جماعة وسميت الجماعة من الناس فئة؛ لأنه يُفاء إليها في وقت الشدة ﴿عِبْرَةً﴾ العبرة: الاتعاظ ومنه يقال: اعتبر، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ومنه عبور النهر، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زُيِّنَ﴾ التزيين: تحسين الشيء وتجميله في عين الإِنسان ﴿الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه والفعل منه اشتهى ويُجمع على شهوات ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو العُقْدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿الْمُقَنطَرَةِ﴾ المضعَّفة وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة قاله الطبري، وروي عن الفراء أنه قال: القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسعة قناطير[١] ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلَّمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل: المسوّمة: الراعية وقال مجاهد وعكرمة: إِنها الخيل المطهّمة الحسان[٢] ﴿الْمَآبِ﴾ المرجع يقال: آب الرجل إِياباً ومآباً قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

سبب النزول: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر، ورجع إِلى المدينة جمع اليهود فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبيٌّ مرسل، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب، إِنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الرجال، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[٣] الآية.

(١) القرطبي ٤/٣١. (٢) تفسير الرازي ٧/٢١١.
(٣) مختصر ابن كثير ١/٢٦٩ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسجر وتوقد به النار ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون، وصنيعهم مثل صنيعهم ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية: أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال، وقيل: المراد يرى المؤمنون الكافرين ضعفيهم في العدد، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يقوي بنصره من يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي لآية وموعظة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر

لا يكون بكثرة العدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي حُسِّن إليهم وحُبِّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات وبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث «ما تركتُ بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء»[1] ثم ذكر ما يتولد منهن فقال: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ وإنما ثنّى بالبنين؛ لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين كما قال القائل:

وإنمـــا أولادنـــا بيـنـنـــا أكبادُنا تمشـي علـى الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

وقدّموا على الأموال؛ لأن حب الإنسان لولده أكثر من حب لماله ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة. وإنما كان المال محبوبًا؛ لأنه يحصل به غالب الشهوات، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خصّا بالذكر ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿وَالْحَرْثِ﴾ أي الزرع والغراس؛ لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل يا محمد. أأخبركم بخيرٍ ممّا زُيّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحاتٌ تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهةٌ عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأيُّ رضوان، وقد جاء في الحديث «أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلًّا بحسب ما يستحقه من العطاء. ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ أي الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخير ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي وقت السحر قُبيل طلوع الفجر.

البلاغة: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ التنكير للتقليل أي من

---

(١) أخرجه البخاري.

تنفعهم أي نفع ولو قليلاً ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الجملة اسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر، والأصل فأخذناهم ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ الأصل آية لكم وقدّم للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والتنكير في (آية) للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وقوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُم﴾ و﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يراد به المشتهيات. قال الزمخشري: عبّر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات، وتنبيهاً على خستها؛ لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو السعود: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم[1] ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص.

فائدة

الأولى: من هو المزين للشهوات؟ قيل: هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وتزيين الشيطان: وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل: المزين هو الله ويدل عليه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر: «اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك»[2].

الثانية: تخصيص الأسحار بالاستغفار؛ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن النفس أصفى، والروح أجمع، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول. قال ابن كثير: كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[3].

* * *

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى ... ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من آية (١٨) إلى نهاية آية (٢٥).

المناسبة: لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أردفه بأن بين أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بين أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله.

اللغة: ﴿شَهِدَ﴾ الشهادة: الإقرار والبيان ﴿الْقِسْطِ﴾ العدل ﴿الدِّينَ﴾ أصل الدين في اللغة: الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا ﴿الْإِسْلَامُ﴾ الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد

(١) تفسير أبي السعود ١/٢٢٠ (٢) رواه البخاري

(٣) مختصر ابن كثير ١/٢٧١

التام. قال ابن الأنباري: المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم: سلم الشيء لفلان أي خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حَاجُّوكَ﴾ جادلوك ونازعوك ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ فتنهم ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون.

سبب النزول: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم، قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فنزلت ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ [1].

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

التفسير: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيّن وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية، قال الزمخشري: شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي حال كونه مقيمًا للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضل عن علم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا كائنًا بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعًا فيجازيه على كفره ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل لهم: أنا

(١) القرطبي ٤/٤١ والبحر المحيط ٢/٤٠١.

عبدٌ لله قد استسلمت بكليتي إليه، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا ندّ ولا صاحبة ولا ولد ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا فقال عليه السلام لليهود: «أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟» فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: «أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عز وجل: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يكفرون بما أنزل الله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم بما يسوءهم وهو العذاب الموجع المهين، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه. ثم ذكر تعالى طرفاً من لجاج وعناد أهل الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؟ فالصيغة صيغة تعجب للرسول أو لكل مخاطب، قال الزمخشري: يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل، والآية كما يقول

(١) تفسير أبي السعود ١/٢٦٣.

المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم تجبيه بالتوراة توجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنّع تعالى عليهم بهذه الآية [1] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يومًا - مدة عبادتهم للعجل ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب!! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي نالت كل نفس جزاءها العادل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب.

البلاغة:

١ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الجملة معرّفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام.

٢ - ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله: «أوتوا الكتاب» لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة.

٣ - ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس.

٤ - ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٥ - ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى «الأسلوب التهكمي» حيث نزّل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو أسلوبٌ مشهور.

فائدة: قال القرطبي: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء» وفي حديث ابن مسعود أنَّ من قرأ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى: عبدي عهد إليَّ عهدًا وأنا أحقُّ من وفّى، أدخلوا عبدي الجنة [2].

لطيفة: من أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد:

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا	من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال: أنا أحرزتُ غايته	والعقلُ قال: أنا الرحمن بي عُرفا

---

(١) انظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

فأفصح العلم إفصاحًا وقال له ... بأيّنا الله في فرقانه اتّصفا
فبان للعقل أن العلم سيّده ... فقبّل العقل رأس العلم وانصرفا

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ...﴾ إلى ... ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٣٢).

المناسبة: لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين.

اللغة: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أصله يا ألله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿تَنزِعُ﴾ تسلب ويعبّر به عن الزوال يقال: نزع الله عنه الشر أي أزاله ﴿تُولِجُ﴾ الإيلاج: الإدخال يقال: ولج يلج ولوجًا ومنه ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ﴿أَمَدًۢا﴾ الأمد: غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تُقَىٰةً﴾ تقية وهي مداراة الإنسان مخافة شره.

سبب النزول:

أ - لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم!! هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ...﴾[1] الآية.

ب - عن ابن عباس أن عبادة بن الصامت وكان بدريًا تقيًا - كان له حلف مع اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة: يا نبيّ الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ...﴾[2] الآية.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

التفسير: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي قل: يا الله يا مالك كل شيء ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾

---

(١) القرطبي ٤/ ٥١. (٢) روائع البيان ١/ ٣٩٩.

وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير، وقال الطبري: «وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحيّ والأنعام والبهائم من النطف الميتة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء»[1] ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضييق.. ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه، قال الزمخشري: نُهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي «إنّا لنبشُّ في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم» ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عامل بعمله ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) تفسير الطبري ٥/٦ ٣٠ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة ننقله بإيجاز من الظلال يقول قدس الله روحه: «وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول ... سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة الملتهبة - يعني الشمس - وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء، شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف ... كذلك الحياة والموت يدب أحدهما إلى الآخر في بطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة، خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل، وهكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، تلمسها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري، ولا يستطيع إنسان أن يدعي أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئاً، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير، وإنما هي حركة خفية هائلة تدير هذا كله بقدرة المبدع اللطيف الخبير» ظلال القرآن ٣/٢ - ١٧٠ .

قديرٌ﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضرًا لا يغيب عنه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإن كان عمله حسنًا سرّه ذلك وأفرحه ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا﴾ أي وإن كان عمله سيئًا تمنى أن لا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي مكانًا بعيدًا كما بين المشرق والمغرب ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي قل يا محمد: إن كنتم حقًا تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله يحبكم الله ﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب، قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله[1] ثم قال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي:

١ - الطباق في مواضع مثل "تؤتي وتنزع" و"تعز وتذل" و"الليل والنهار" و"الحي والميت" و"تخفوا وتبدوه" وفي "الخير والسوء" و"محضرًا وبعيدًا".

٢ - والجناس الناقص في "مالك الملك" وفي "تحبون ويحببكم" وجناس الاشتقاق بين "تتقوا وتقاة" وبين "يغفر وغفور".

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تولج الليل في النهار﴾ ﴿وتولج النهار في الليل﴾.

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أي من تشاء أن تؤتيه ومثلها وتنزع، وتعز، وتذل.

٦ - ﴿تولج الليل في النهار﴾ قال في تلخيص البيان: وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ، لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيفة الممازجة وشديد الملابسة.

٧ - ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ الحي والميت مجاز عن المؤمن والكافر

---
(١) مختصر ابن كثير ١/٢٧٧.

قال القرطبي: والإبكار بالعشي وقد يستعمل في التحجين والمثنين(١) فالعشي من حين زوال الشمس إلى غروبها، والإبكار من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قال الشاعر:

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشي تذوق

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ أي اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي: وخصَّ هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعًا من نسلهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتقى والصلاح ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها حنّة بنت فاقوذ ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي مخلصًا للعبادة والخدمة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ أي لما ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار: يا رب إنها أنثى.

قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقُبلت مريم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وُهبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيمًا لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتها أنثى وإني

(١) القرطبي ٤/ ٦٨.

سميتها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي أجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي ربّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد فيه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً، قال مجاهد: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ ؟ أي من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي مجيب لدعاء من ناداك ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته، وسمي عيسى كلمة الله، لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وَحَصُورًا﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وما قاله بعض المفسرين إنه كان عنيناً فباطل لا يجوز على الأنبياء، لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء[1] ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير: وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يأتيني الولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكلٌّ من السببين مانع من الولد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها

---

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أي يمنع نفسه من الشهوات، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام انتهى.

(٢) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨١

كانت وحياً من عند الله العليم الخبير. روي أن حنّة حين ولدتها لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا تكفلها[1] قال ابن كثير: وإنما قدّر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي اسمه عيسى، ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي سيداً ومعظماً فيهما ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري: "ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة"[2] ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟! ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب، يقول له: كن فيكون ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامة تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآية صدقي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي أصور لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله[3]. وهذه المعجزة الأولى ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره، وكرر لفظة "بإذن الله" دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها! فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فيما أتيتكم به من

(١) الطبري ٣/ ٣٥١

(٢) الكشاف ١/ ٢٧٨

(٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨٤

بالمعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدقين بآيات الله، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيدًا لرسالة موسى فقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي وجئتكم مصدقًا لرسالة موسى، مؤيدًا لما جاء به في التوراة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ولأحل لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى، قال ابن كثير: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرر تأكيدًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جل وعلا ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي إن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

البلاغة:

١- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيمًا له ويسمى المجاز المرسل.

٢- ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾ تكرر لفظ «اصطفاك» كما تكرر لفظ «مريم» وهذا من باب الإطناب.

٣- ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كنى عن الجماع بالمس كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة.

٤- ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ﴾ بين لفظ «أحل» و «حرم» من المحسنات البديعية الطباق، كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع. وهناك نواح بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحًا خشية الإطالة.

فائدة: جاء التعبير هنا بقوله ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة يحيى ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ والسر في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إيجاد واختراع من غير سبب عادي فناسبه ذكر الخلق وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانع في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل والله أعلم.

تنبيه: قال بعض العلماء: الحكمة في أنه لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له ولهذا قال في الآية: ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

□ □ □

---

(١) انظر الجزء الأول من حاشية الصاوي على الجلالين.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ .. إلى .. فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٦٣).

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله «اليهود» على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء.

اللغة: ﴿أَحَسَّ﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل للحضريات حواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن قال الشاعر:

فقلْ للحواريات يَبْكِين غيرنا ولا تَبْكنا إلا الكلابُ النوابحُ

والحواريون: أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿وَمَكَرُوا﴾ المكر: الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج: يقال: مكر الليل وأمكر إذا أظلم، ومكرُ الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكي عن الفراء وغيره ﴿نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع في الدعاء، وأصل الابتهال: الاجتهاد في الدعاء باللعن، والبهلة: اللعنة.

سبب النزول: لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى قالوا للرسول ﷺ: مالك تشتم صاحبنا؟ قال: «وما أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد قال: «أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول» فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله! فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك. فقال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدًا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب» فقالوا: من أبوه؟! فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ .. إلى قوله .. ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارًا! فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب» فأقروا بالجزية[١].

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا

---

[١] القرطبي ٤/١٠٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٨.

كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

التفسير: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه: نحن أنصار دين الله ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق، ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ أي أرادوا قتله فنجاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء دون أن يمسه بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن يهوذا وسمي مكراً من باب المشاكلة[1] ولهذا قال ﴿والله خير الماكرين﴾ أي أقواهم مكراً بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم وفي الحديث: «اللهم امكر لي ولا تمكر علي» ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالماً دون أذى. قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك، وقد ذكره الطبري فقال: وقال آخرون: معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا[2] ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال الحسن: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة، وقال في تفسير الجلالين: ﴿الذين اتبعوك﴾ أي صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ثم

(١) المشاكلة: الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى وقد تقدم.

(٢) الطبري ٦/٤٥٨ وأما قول بعض المفسرين إنه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع [illegible] وهذا مردود لضعفه وعدم ثبوته بالمنقول، قال القرطبي: «والصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس».

مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لملتك فإني معذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا بالقتل والسبي، والآخرة بنار جهنم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب من كان ظالمًا فكيف يظلم عباده؟ ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له: كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس أنه قال لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا، قال أبو حيان: وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته[1] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

البلاغة:

١ - ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ قال أبو حيان: فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويُفطن به فإطلاق الحس عليه من نوع الاستعارة.

٢ - ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ بين لفظ «مكروا» و«الماكرين» جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة.

٣ - ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة.

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٨٠.

٤ ﴿الحق من ربك﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام.

٥ ﴿فلا تكن من الممترين﴾ هو من باب الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت. أفاده أبو السعود.

لطيفة: قال صاحب البحر المحيط: سأل رجل الجنيد فقال: كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر وقد عاب به غيره؟! فقال: لا أدري ما تقول ولكن أنشدني فلان الطهراني:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال له: قد أجبتك إن كنت تعقل.[1]

قال الله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء﴾ إلى ... ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (٦٤) إلى نهاية آية (٧٤).

المناسبة: لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا كما زعم كل من الفريقين، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمته.

اللغة: ﴿سواء﴾ السواء: العدل والنصف قال أبو عبيدة: يقال: قد دعاك إلى السواء فاقبل منه، قال زهير:

أروني خطة لا ضيم فيها ... يسوّي بيننا فيها السواء[2]

﴿لِمَ﴾ أصلها ﴿لِمَا﴾ حذفت ﴿تلبسون﴾ اللَّبْس: الخلط يقال: لبس الأمر عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وجه النهار﴾ أوله سمي وجهًا؛ لأن أول ما يواجه من النهار أوله، قال الشاعر:

من كان مسرورًا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

سبب النزول: روي عن ابن عباس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود: ما كان إلا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًا فأنزل الله: ﴿ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا﴾ الآية.[3]

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤) يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون (٦٥) ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٦٦) ما كان إبراهيم يهوديًا ولا

(١) البحر المحيط ٢/٤٧٢.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ٩٧.
(٣) مجمع البيان ٢/٤٥٦.

مشركاً، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وردٌّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم: أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا: نحن على دينه لا أنتم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حافظهم وناصرهم. ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي تمنوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يفطنون لذلك، ثم وبخهم القرآن على قبيح فعالهم فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبَه والتحريف والتبديل؟ ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك. ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ قال ابن كثير: وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين[1] ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ أي كفروا بالإسلام آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يشكّون في دينهم فيرجعون عنه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود حكاه الله عنهم والمعنى: لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطلعوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ

(١) مختصر ابن كثير ١/٢٩٦

يَشَآءُ﴾ أي يختص بالنبوة من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحدُّ ولا يُمنع.

البلاغة: جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي: المجازُ في قوله: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجميع، والتشبيهُ في قوله: ﴿أَرْبَابًا﴾ حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بطاعة الربّ المستحق للعبادة، والطباق في قوله: ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ والجناس التام في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ وجناس الاشتقاق في: ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿أُنزِلَ﴾ والتكرار في عدة مواطن، والحذف في عدة مواطن[1].

فائدة: كتب رسول الله ﷺ كتابًا إلى «هرقل» ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده، ونصُّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاحين والخدم - و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ .. إلى .. بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٠).

المناسبة: لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خياناتهم من الناحيتين: المالية والدينية، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

اللغة: «قنطار» القنطار المالُ الكثير وقد تقدم ﴿قَآئِمًا﴾ ملازمًا ومداومًا على مطالبته ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ المراد بهم العرب وأصل الأميّ: الذي لا يقرأ ولا يكتب والعربُ كانوا كذلك ﴿يَلْوُۥنَ﴾ من اللّيّ وهو اللّف والفتل تقول: لويتُ يده إذا فتلتها والمراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرّفة ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب قال الطبري: معناه: كونوا حكماء علماء[3].

سَبَبُ النُّزُول: عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «هل لك بيّنة؟» قلت: لا، قال لليهودي: «احلف» قلت: إذًا يحلف فيذهب بمالي فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ..﴾[4] الآية.

(١) نقلاً عن البحر المحيط.
(٢) انظر صحيح البخاري ومسلم.
(٣) الطبري ٦/٥٤٠
(٤) القرطبي ٤/١٢٠

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أدّاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي إلا إذا كنت ملازماً له ومشدداً عليه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب - روي أن اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، روي أنهم لما قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»، ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام أُنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يطهرهم من أوضار الأوزار، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه.

(١) القرطبي ٤/١١٩.

قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله، ثم قال تعالى ردًّا على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله. والنفيُ في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنما يؤتى به للنفي التام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته، والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل؛ لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟ ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين، قال ابن عباس: حكماء علماء حلماء، والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عبادًا لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إياه ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله -ملائكة أو أنبياء- لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟! والاستفهام إنكاري تعجبي.

البلاغة:

١ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد.

٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل.

٣ - ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.

٤ - ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم، وكذلك في الآتي بعدها.

٥ - ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم، لأن من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه.

بين لفظ: ﴿وَاتَّقَى﴾ و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ جناس الاشتقاق، وبين لفظ: ﴿الْكُفْرِ﴾ و﴿مُسْلِمُونَ﴾ طباق.

- روي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال

صفوة التفاسير ج١ ص ٢٠٧

أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الصدقة فقد حلّ لهم أموالهم ولا تطيب أنفسهما؛ ذكره ابن كثير.

□ □ □

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ... إلى ... وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من آية (٨١) إلى نهاية آية (٩١).

المناسَبَة: لمّا ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته[1]؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه.

اللغَة: ﴿مِيثَاقَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين وتحوه، وقد تقدم ﴿إِصْرِي﴾ عهدي وأصله في اللغة: الثقل، قال الزمخشري: وسمي إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد[1] ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿طَوْعًا﴾ انقياداً عن رغبة ﴿وَكَرْهًا﴾ إجباراً وهو كرهه ﴿الْأَسْبَاطِ﴾ جمع سبط وهو ابن الابن والمراد بهم حفدة يعقوب وهم من أولاد يعقوب ﴿يُنظَرُونَ﴾ يمهلون، يقال: أنظره بمعنى أمهله والنظرة: الإمهال ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ الخسران: النقصان في رأس المال، يقال: خسر فلان أي: أضاع من رأس ماله ﴿الضَّالُّونَ﴾ التائهون في متاهة الكفر.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: ارتدّ رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا ... إلى قوله ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم[2].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ

(١) الكشاف ١/٢٩٥. (٢) أخرجه النسائي وانظر القرطبي ٤/١٢٩.

عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿٨٨﴾ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴿٨٩﴾ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴿٩٠﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ .

التفسير: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة، قال الطبري: المعنى: لمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟ ﴿قالوا أقررنا﴾ أي اعترفنا ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيبتغي أهل الكتاب دينًا غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض﴾ أي وله استسلم وانقاد وخضع أهل السموات والأرض ﴿طوعا وكرها﴾ أي طائعين ومكرهين، قال قتادة: المؤمن أسلم طائعًا والكافر أسلم كارهًا حين لا ينفعه ذلك[1] قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعًا، والكافر مستسلم لله كرهًا فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالَف ولا يُمانَع[2] ﴿وإليه يرجعون﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي، والأسباطُ هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿والنبيون من ربهم﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحدًا أبدًا، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ أي من يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي مصيره إلى النار مخلدًا فيها ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم أي

---

(١) الطبري ٦/٥٧٦ (٢) مختصر ابن كثير ١/٢٩٧ .

كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿وَشَهِدُوٓا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمدًا رسول الله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم (١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ماكثين في النار أبد الآبدين، لا يُفتَّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفرًا حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا، وهو عام في جميع الكفار ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم موجع ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

١- الالتفات ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾.

٢- بين لفظ ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ و﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ جناس الاشتقاق، وكذلك بين لفظ ﴿كَفَرُوا۟﴾ و﴿كُفْرًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣- الطباق بين ﴿طَوْعًا﴾ و﴿وَكَرْهًا﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ «الكفر» و«الإيمان».

٤- ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ قصر صفة على موصوف، ومثله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٥- ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ هو من باب عطف العام على الخاص.

٦- ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم، والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة.

فائدة: الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٢- وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾

---

(١) الطبري ٦/٥٧٥

وقالوا: السلاحَ السلاحَ، فبلغ النبيَّ ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم؟! فعرف القوم أنها كانت نزغة من الشيطان وكيدًا من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [1] الآية.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۞ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

التفسِير: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وما تبذلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل وألبانها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: ائتوني بالتوراة واقرءوها عليّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم، قال الزمخشري: وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله فلما حاجّهم بكتابهم وبكّتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين، ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البيّنة على صدق النبي ﷺ [2] ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة

---

(١) أسباب النزول ص ٦٦ والكشاف ١/٣٠١.
(٢) الكشاف ١/٢٩٥.

وظهور البينة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة كلها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية، وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله: المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وضع مباركًا كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض؛ لأنه قبلتهم، ثم عدّد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود، أفلا يكفي برهانًا على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة المسلمين؟ ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبّر عنه بالكفر تغليظًا عليه، قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[1]. ثم أخذ يبكّت أهل الكتاب على كفرهم فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟ ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجًا ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد. وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ أي يصيّروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار واستبعاد، أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌّ بين أظهركم؟! ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ

---

[1] تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٢.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أي حق تقواه، قال ابن مسعود: هو أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر[1] والمراد بالآية ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام، والمقصود: الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعًا ولا تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداءً ألداء فألّف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البلاغة نوجزها فيما يلي:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾ الأمر للتبكيت والتوبيخ للدلالة على كمال القبح.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وضع هذا اللفظ موضع ومن لم يحج تأكيدًا لوجوبه وتشديدًا على تاركه. قال أبو السعود: ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه، وهي قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، والإجمال ثم التفصيل[2].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاة في كلٍّ.

﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفًا على حفرة عميقة وهوة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم.

وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب:

أنهم قالوا للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته

---
(١) مختصر ابن كثير ١/٣٠٤. (٢) تفسير أبي السعود ١/٢٥٥.

البينات ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإِيمان والطاعة، وتسودّ وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإِجمال. والمعنى: أمّا أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعدما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيد ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أُخرجت لأجلهم ومصلحتهم، روى البخاري عن أبي هريرة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإِسلام ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها»(١) ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام، والكثرة الكاثرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سبٍّ وطعن ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا يُنصرون، والجملة استئنافية ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت بساكنيه ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين، قال ابن عباس: بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى.

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٠٦.

الذين يفضي إليهم بأسراره، شبه ببطانة الثوب، لأنه يلي البدن ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ أي لا يقصّرون، قال الزمخشري: يقال: ألا في الأمر يألو إذا قصّر فيه ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الفساد والنقصان، ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عَنِتُّمْ﴾ العنت: شدة الضرر والمشقة ﴿الْأَنَامِلَ﴾ أطراف الأصابع.

سَبَبُ النُّزُولِ: لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم! وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم! فأنزل الله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ (١) الآية.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

التفسير: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوئ، وهنا تمّ الكلام ثم ابتدأ تعالى بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم – من عذاب الله شيئاً ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٦٨.

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو سبحانه عالم بما يدبّرونه لكم من مكايد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نياتهم الخبيثة.

البَلَاغَة:

١- ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ للدلالة على التجدد، ومثله في ﴿يَسْجُدُونَ﴾.

٢- ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل.

٣- ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه، وهو من نوع التشبيه التمثيلي، شبه ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطامًا.

٤- ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة؛ لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعار لجسمه، ففيه استعارة، أفاده في (تلخيص البيان) [١].

٥- ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ قال أبو حيان: يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة، ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين [٢].

٦- في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح، وهي مقابلة بديعة، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ وفي «الغيظ» و«غيظكم» وفي ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿آمَنَّا﴾.

لطيفة: عبّر بالمسّ في قوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وبالإصابة في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء حتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مسًّا خفيفًا، وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت، فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون، وهذا من أسرار بلاغة التنزيل، نقلاً عن حاشية الكشاف.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ...﴾ إلى ... ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ من آية (١٢١) إلى نهاية آية (١٣٢).

المناسبة: بدأ الحديث عن الغزوات في هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدال والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة «أحد» بالإسهاب، وقد

---

(١) تلخيص البيان ص ٦٦.

(٢) البحر المحيط ٣/٤١.

جاء الحديث عن غزوة (بدر) في أثنائها اعتراضًا ليذكرهم بنعمته تعالى عليهم لمّا نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعُدَد، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة (أحد) وقد أنزل فيها ستون آية.

ومناسبة الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما حذّر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم، وعلى رأسهم أبيّ بن سلول رأس النفاق، فالمناسبة واضحة، روى الشيخان عن جابر قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

اللغَة: ﴿غَدَوْتَ﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿تَفْشَلَا﴾ الفشل: الجبن والضعف ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنزل، يقال: بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوء اتخاذ المنزل ﴿أَذِلَّةٌ﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿فَوْرِهِمْ﴾ الفور: السرعة وأصله شدة الغليان من فارت القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول: من فوره أي من ساعته ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو بمعنى معلَّمين على القتال وبكسرها بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء ﴿طَرَفًا﴾ طائفة وقطعة ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾ الكبتُ: الهزيمة والإهلاك، وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿خَائِبِينَ﴾ الخيبة: عدم الظفر بالمطلوب.

سبب النزول: ثبت في (صحيح مسلم) أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قومٌ شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى؟!» فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أُحد من عند أهلك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي تنزل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي حين كادت طائفتان من

جيش المسلمين أن تجبن وتضعفا وهمّتا بالرجوع وهما بنو سلمة وبنو حارثة، وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أُبيّ بثلث الجيش وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟! فهمّ الحيّان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم، ثم ذكّرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلّوا عما أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروه على ما منّ به عليكم من النصر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بلى: تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي ويأتكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي يمددكم الله بمددٍ من الملائكة معلَّمين على السلاح ومدربين على القتال(١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العَدد والعُدد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب في أمره، الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يخزيهم ويحزنهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك يوم (بدر) حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة (أُحد)، وذلك أنه لما كُسرت رباعيته ﷺ وشُجّ وجهه الشريف قال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟! فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء، وإنما أمرهم إلى الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر، فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي له جلّ وعلا ملك السموات والأرض يعذب من يشاء

---

(١) وقال بعض المفسرين: أي معلَّمين بعلامة، قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بُلق عليهم عمائم صفر قد أرسلوها بين أكتافهم. انظر الطبري والكشاف.

ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ هذا نهيٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه. قال ابن كثير: كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدَّين يقول الدائن: إمّا أن تقضي وإما أن تُربي! فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر، وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

البلاغة:

١ ـ ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في الذهن.

٢ ـ ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم، أفاده أبو السعود.

٣ ـ «يغفر ويعذب» بينهما طباق.

٤ ـ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ جناس الاشتقاق.

٥ ـ ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ سمي الأخذ أكلاً؛ لأنه يئول إليه فهو مجاز مرسل.

تنبيه: ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيد ولا للشرط، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشنيع عليهم بأنّ في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة، قال أبو حيان: «نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين، وأشار بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام، والربا محرم بجميع أنواعه، فهذه الحال ليست قيداً في النهي»[2].

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ...﴾ إلى ... ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ من آية (١٣٣) إلى نهاية آية (١٤٨)

المناسبة: لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقّبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أُحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ، ثم بيّن أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يُدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين، ثم توالت الآيات

(١) مختصر ابن كثير ١/٣١٨. (٢) البحر المحيط ٣/٥٤.

الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أحد.

اللغَة: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا ﴿السَّرَّاءِ﴾ الرخاء ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الشدة والضيق ﴿وَالْكَاظِمِينَ﴾ كظم الغيظ: ردُّه في الجوف يقال: كظم غيظه أي لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه، مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وشدّ رأسها ﴿فَاحِشَةً﴾ الفاحشة: العمل الذي تناهى في القبح ﴿خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَنٌ﴾ السنن: جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها، ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا: الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿قَرْحٌ﴾ جرح بالفتح والضم، قال الفراء: هو بالفتح: الجرح وبالضم: ألمه[1] وأصل الكلمة: الخلوص ومنه ماءٌ قراح ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرّفها والمداولة: نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التخليص، يقال: محّصته إذا خلّصته من كل عيب، وأصله في اللغة: التنقية والإزالة ﴿وَيَمْحَقَ﴾ المحق: نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أَعْقَابِكُمْ﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال: انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مُؤَجَّلًا﴾ له وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَكَأَيِّن﴾ كم، وهي للتكثير وأصلها أيّ دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿رِبِّيُّونَ﴾ جمع ربّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم، وقيل: نسبة إلى الربة وهي الجماعة ﴿اسْتَكَانُوا﴾ خضعوا وذلوا، وأصله من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) القرطبي ٤/ ٢١٧.

وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

التفسير: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة الحديد ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والعرض بيان لسعتها، فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر(١) ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله، وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة، وبيان أن الذنوب - وإن جلّت - فإن عفوه تعالى أجلّ ورحمته أوسع ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله، ثم ذكر تعالى تتمة تفصيل غزوة أحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن(٢) فيه بيان شافٍ للناس عامة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهداية لطريق الرشد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس، ثم أخذ يسليهم عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتل أو هزيمة ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم، فإن كانوا قد أصابوكم يوم أحد فقد أبليتم فيهم يوم بدر

---

(١) قال ابن عباس: الفاحشة: الزنا، وظلم النفس: ما دونه من النظر واللمسة.

(٢) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره، والمعنى: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم من أخبار هلاك الأمم السالفة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي إن أصابكم قتل أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي الأيام دول، يوم لك ويوم عليك، ويوم نُساء ويوم نُسر ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي ولمّا تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد. قال الطبري: المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولمّا يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه؟[1] ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا، ونزل لمّا أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل، وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ليس محمد إلا رسول مضت قبله رسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم؟ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا. ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته ومشيئته ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي كتب لكل نفس أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبن لا يزيد في الحياة والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم، فبيّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة؛ لأنها مبذولة للبر والفاجر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمناه له من الدنيا، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

---

(1) تفسير الطبري.

﴿مِنْهَا﴾ ، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون[1] وعُبّاد صالحون، قاتلوا فقُتل منهم من قتل ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على الكفار ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم في البلاد، وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي كعرض السماوات والأرض، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، يسمى هذا «التشبيه البليغ».

٢ - ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة.

٣ - ﴿السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فيه الطباق، وهو من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام يقصد به النفي أي لا يغفر

٥ - ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل.

٦ - ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي: ونعم أجر العاملين ذلك.

٧ - ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ هو من باب الالتفات؛ لأنه جاء بعد لفظ ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ فهو التفات من التكلم إلى الغيبة، والسر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.

٨ - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قصر موصوف على صفة.

٩ - ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ قال في (تلخيص البيان): هذه استعارة، والمراد بها الرجوع عن دينه، فشبه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب[2].

الفوائد:

الأولى: في هذه الآيات الكريمة ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ...﴾ أمهات مكارم الأخلاق من

---

(1) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي جموع كثيرة، وهذا قول قتادة، وعن الحسن أن المراد: علماء كثيرون.

(2) تلخيص البيان ص ١٩.

البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب، وكل منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر.

الثانية: قدم المغفرة على الجنة؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام.

الثالثة: تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟ قال ابن عباس: كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض[1].

الرابعة: كتب هرقل إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار»[2].

الخامسة: أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ و﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ وأما العمل للدنيا فأمر بالتهوين ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فتدبر السر الدقيق.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ... إلى ... لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ من آية (١٤٩) إلى نهاية آية (١٥٨).

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أُحد وما فيها من العظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.

اللغة: ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا، وأصله القوة، ومنه قيل للوالي: سلطان ﴿مَثْوَى﴾ المثوى: المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم: ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم، قال الزجاج: الحَسُّ: الاستئصال بالقتل، وأصله الضرب على مكان الحس، قال الشاعر:

حسسناهم بالسيف حسًّا فأصبحت ... بقيتهم قد شردوا وتبددوا

﴿تُصْعِدُونَ﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض، والصعود يكون في ارتفاع ﴿تَلْوُونَ﴾: أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم، وأصله من لي العنق للالتفات ﴿أَثَابَكُمْ﴾ أعطاكم، جازاكم ﴿أَمَنَةً﴾ أمنًا واطمئنانًا ﴿يَبْتَلِيَ﴾ يختبر ويمتحن ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التنقية وتخليص الشيء مما فيه من

---

(١) البحر المحيط ٣/٥٨. (٢) أخرجه أحمد.

[illegible] ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [illegible] ﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ وهو الخارج في سبيل الله.

سبب النزول: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصابوا ما أصابوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إلى قوله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۝ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ۝ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا إلى الخسران، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان. قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد: لو كان نبيًا ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ (بل) للإضراب أي ليسوا أنصارًا لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره، ثم بشّر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٢.

النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه» ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإِخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظن أهل الجاهلية، قال ابن كثير: «وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإِسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة»[1] ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا للقتال ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرفه كيف يشاء ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج، وهذا تفسير لما يبطنونه. قال الزبير: أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا»[2] ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فقضاءُ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإِخلاص والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وليميز ما في قلوبكم ويطهره، فعل بكم ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بالسرائر مطلع على الضمائر وما فيها من خير أو شر. ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة، حليم لا يعجّل العقوبة لمن عصاه، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقالوا لإِخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٣٠.   (٢) تفسير القرطبي ٤/٢٤٢.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

التفسير: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيّناً ليّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك، ولما كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي تجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد، واطلب لهم من الله المغفرة، وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس، قال الحسن: «ما شاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم»(١) وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوّض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحدٍ أن يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي ما صح ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء أن يخون في الغنيمة، والنفي هنا نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل، لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصح أن يُتصوّر فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحةً له على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافياً غير منقوص ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص،

(١) الطبري ٧/٣٤٤.

فلا يزاد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقرًا له ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي متفاوتون في المنازل، قال الطبري: هم مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامةُ والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله المهانةُ والعقاب الأليم[1] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجازيهم عليها. ثم ذكر تعالى المؤمنين بالمنة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولاً عربيًا من جنسهم، عرفوا أمره وخبروا شأنه، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر - وإن كان رحمة للعالمين - لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر، فنقلوا من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي أوَ حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثة يوم أحد فقُتل منكم سبعون ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي من أين هذا البلاء؟ ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر؟ وموضع التقريع قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما أصابكم يوم أحد يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم؛ ليتميز المؤمنون عن المنافقين ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحوًا من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي قال المنافقون: لو نعلم أنكم تلقون حربًا لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ أي وليعلم الله أيضًا المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال: ﴿لَوْ

---

[1] الطبري ٧/ ٣٦٧.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

البلاغة

١- ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ ... وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية.

٢- ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

٣- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي ما صح ولا استقام، والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل.

٤- ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال أبو حيان: هذا من الاستعارة البديعة، جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه[1].

٥- ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف.

٦- ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة[2].

٧- ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بينهما طباق، وكذلك بين ﴿يُبْدُونَ﴾ ، ﴿يُخْفُونَ﴾.

٨- ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: في هذه الآية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجيب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدنى الناس إلى التواضع. فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً، وأزكاهم عملاً وأسخاهم كفاً وأفصحهم بياناً، وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه - عليه السلام - أنه كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويجيب دعوة العبد المملوك، فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل.

فائدة: التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين:

الأول: محبة الله للعبد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

والثاني: الضمان في قوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[3].

❑❑❑

(١) البحر المحيط ٣/١٠١.
(٢) تلخيص البيان ص ٢٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢٣.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا .. إلى .. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من آية (١٦٩) إلى نهاية آية (١٨٠)

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتابع الحديث عن أحد، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية، وتوضح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة.

اللغة: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون وأصله من البشرة؛ لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه، قال ابن عطية: وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ ﴿الْقَرْحُ﴾ (بالفتح) الجرح و(بالضم) ألم الجرح وقد تقدم ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا، مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية، قال الشاعر:

فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً ... وحسبك من غنى شبع وري

﴿حَظًّا﴾ الحظ: النصيب ويستعمل في الخير والشر، وإذا لم يقيد يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾ الإملاء: التأخير والإمهال. قال القرطبي: والمراد بالإملاء هنا: طول العمر ورغد العيش[1] ﴿يَمِيزَ﴾ يميز، يقال: ماز وميز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَجْتَبِي﴾ يختار ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ من الطوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق.

سبب النزول:

أ- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب؟! فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾»[2] الآية.

ب- عن جابر بن عبد الله قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: «يا جابر ما لي أراك منكسراً مهتماً؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين!! فقال: «ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إن الله أحيا أباك وكلّمه كفاحاً[3] وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب، فقال له: يا عبد الله تمنّ أعطك! قال: يا رب أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾»[4].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

(١) القرطبي ٤/٢٨٦ (٢) أسباب النزول ص ٧٣ والقرطبي ٤/٢٦٨

(٣) كفاحاً: أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول.

(٤) أخرجه ابن ماجه والترمذي، كذا في القرطبي ٤/٢٦٨

- عز وجل - ولرسوله ﷺ[1] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجرُ العظيم والثوابُ الجزيل ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: إن قريشًا قد جمعت لكم جموعًا لا تحصى فخافوا على أنفسكم! فما زادهم هذا التخويف إلا إيمانًا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي رجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي إنما ذلكم القائل: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ بقصد تثبيط المؤمنين هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم الكفار لترهبوهم ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقًّا أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان: نعيم بن مسعود الأشجعي الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين، قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشيطان؛ لأنه ناشئ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه[2] ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يسارعون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئًا وإنما يضرون أنفسهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألا يجعل لهم نصيبًا من الثواب في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل - لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يظنن الكافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعقاب، وإطالتنا لأعمارهم - خير لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميز له المؤمن من المنافق، والمعنى: لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق، قال ابن كثير: أي لا بد أن يعقد شيئًا من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفتضح بها عدوه، يُعرف بها المؤمن

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٣٨. (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٤٠.

المختار من المنافق الفاجر، كما ميّز بينهم يوم أحد(1) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قال الطبري: وأولى الأقوال بتأويله: أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميّز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميّز بينهم يوم أُحد بالبأساء وجهاد عدوه(2) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا إيمانًا صحيحًا بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وإن تصدقوا وتعملوا وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله، والمعنى: لا يحسبنّ البخيل أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه ودنياه ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخل شرٌّ لهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في «صحيح البخاري»: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع - أي ثعبانًا عظيمًا - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك» ثم تلا النبي ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ...﴾ الآية ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي مطلع على أعمالكم.

البلاغة: قال في البحر: تضمنت هذه الآيات فنونًا من البلاغة والبديع: الإطناب في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وفي ﴿لَن يَضُرُّوا﴾ وفي اسم الجلالة في مواضع، والطباق في ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ وفي ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ والاستعارة في ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ﴾ وفي ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وفي ﴿الْخَبِيثَ وَالطَّيِّبِ﴾ إذ يراد به المؤمن والمنافق، والحذف في مواضع(3).

فائدة: قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار، قال السيوطي في الإكليل: يستحب قول هذه الكلمة عند الغمّ والأمور العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من آية (١٨١) إلى نهاية آية (١٨٩).

المناسبة: بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أُحد وما فيها من أحداث جسيمة، تناولت الآيات ضمن ما تناولت مكايد المنافقين ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من

(1) مختصر ابن كثير ١/٣٤٠. (2) الطبري ٧/٤٢٧.
(3) البحر المحيط ٣/١٢٩.

انكب الكلام والقدوة المسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبلة، والكيد والدس، ليحذّر المؤمنين من خطرهم كما حذّرهم من المنافقين، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية، واتهامهم لله - عز وجل - بأشنع الاتهامات: البخل والفقر، ثم نقضهم للعهود، وقتلهم للأنبياء، وخيانتهم للأمانة التي حمّلهم الله إياها.. إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون.

اللغة: ﴿عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أوصانا ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ القربان: ما يذبح من الأنعام تقربًا إلى الله تعالى ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات الواضحات، والمراد بها هنا: المعجزات ﴿الزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزَّبْر وهو الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب، كالرَّكوب بمعنى المركوب، قال الزجاج: الزبور: كل كتاب ذي حكمة ﴿زُحْزِحَ﴾ الزحزحة: التنحية والإبعاد، تكرير الزَّحّ وهو الجذب بعجلة ﴿فَازَ﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الْغُرُورِ﴾ مصدر غرّه يغرّه غرورًا أي خدعه ﴿مَتَاعُ﴾ المتاع: ما يُتمتع به وينتفع ثم يزول ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتمتحنُنّ من بلاه أي امتحنه ﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أصل العزم: ثبات الرأي على الشيء، والمراد هنا: صواب التدبير والرأي، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بمنجاة، من قولهم: فاز فلان إذا نجا.

سبب النزول

أ- عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مِدراس اليهود، فوجد ناسًا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له "فنحاص بن عازوراء" وكان من علمائهم وأحبارهم، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل! فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيًا ما أعطانا الربا!! فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله! فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بي صاحبك!! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيمًا، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فغضبت لله وضربت وجهه!! فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله ردًا على فنحاص وتصديقًا لأبي بكر ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [1] الآية.

ب- عن ابن عباس قال: جاءت جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ منهم كعب بن الأشرف،

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٦ وتفسير ابن كثير ١/٣١٦.

لا نصدّق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدّم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم: قد جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فلِمَ كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله؟ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذَّب أسلافُهم من قبلُ رسلَ الله فلا تحزن، فلك بهم أسوة حسنة ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحِكَم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميتة لا محالة، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي فمن نُحِّي عن النار وأُبعد عنها وأُدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلّد ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور، قال ابن كثير: فالآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة(١) ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي والله لتُمتحنُنّ وتُختبرُنّ في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ أي ولتسمعُنّ من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير، وهذا إخبارٌ منه - جلّ وعلا - للمؤمنين بأنه سيبتليهم بلايا وأكدار من المشركين والفجار، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك، لأن الجنة حُفّت بالمكاره، ولهذا قال ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها، لأنها مما أمر الله به ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أي لتُظهِرُنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه(٢) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ أي لا تظنن يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٤٣.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢٦.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم، قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه[١] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه جميع ما في السموات والأرض، فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً؟ والآية ردّ على الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي:

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ على سبيل المبالغة، فحيث نسبوا إلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد، وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان.

٢- ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا، ولما كان الله لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً.

٣- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، وذكر الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تزاول بهن.

٤- ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة، إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان.

وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان.

٥- ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ قال الزمخشري: شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المستام ويغرّ حتى يشتريه والشيطان هو المدلّس الغرور[٢] فهو من باب الاستعارة.

٦- ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء، شبّه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، وبالشراء ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله.

٧- وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فَقِيرٌ﴾ و﴿أَغْنِيَاءُ﴾ والمقابلة ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ وفي ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ والجناس الناقص في ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾.

فائدة: صيغة فعّال في الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب مثل عطّار ونجّار وتمّار كلها ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب قال ابن مالك:

ومع فاعل وفعّال فعِل ... في نسب أغنى عن اليا فقُبل

---

(٢) الكشاف ١/ ٣٤٤

تنبيه: إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور لما تمنّيه لذاتها وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه، ولهذا قال بعض السلف: الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ .. إلى آخر السورة﴾ من آية (١٩٠) إلى نهاية آية (٢٠٠).

المناسبة: بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختامها مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والعظمة والكبرياء والجلال، ولتصرف الأنظار إلى التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض؛ ليصل الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته، وهو يتأمل في كتاب الله المنظور «الكون الفسيح» بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور «القرآن العظيم» وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور، وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

اللغة: ﴿الأَلْبَابِ﴾ العقول ﴿بَاطِلاً﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عن السوء ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾ أذللته وأهنته الكفر معناه الستر والمسح ﴿الأَبْرَارِ﴾ جمع برّ أو بارّ وهم المستمسكون بالشريعة ﴿الثَّوَابِ﴾ بمعنى المآب ﴿نُزُلاً﴾ النُّزُل: ما يهيأ للنزيل وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿وَرَابِطُوا﴾ المرابطة: ترصد العدو في الثغور.

سبب النزول: عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء! فأنزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ [١] الآية.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(١) الطبري ٧/٤٨٨ وأسباب النزول ص ٨٠، البحر المحيط ٣/١٤٢

الْمِهَادُ ۝ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التفسير: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول، الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم؛ لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة، وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله، والمراد بالظالمين: الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقد صرح به في البقرة ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي بقول هذا الداعي: أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي ألحقنا بالصالحين، قال ابن عباس: «الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر» ويؤيده ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فلا تكرار إذًا ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك، وهي الجنة لمن أطاع، قاله ابن عباس. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله: إني لا أبطل عمل من عمل خيرًا ذكرًا كان العامل أو أنثى، قال الحسن: «ما زالوا يقولون: ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم»[١] ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فإذا كنتم

[١] القرطبي ٤/٣١٨.

لتفوزكم مستعدين للكفاح والنصر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يأتي:

١ - الإطناب في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ حيث كرر خمس مرات، والغرض منه المبالغة في التضرع.

٢ - الطباق في قوله: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ و﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ و﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾.

٣ - الإيجاز بالحذف ﴿مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك

وكذلك في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا﴾ أي قائلين ربنا

٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿آمِنُوا ... فَآمَنَّا﴾ وفي ﴿عَمَلَ عَامِلٍ﴾ وفي ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي﴾.

٥ - ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ التنكير للتفخيم، ودخلت اللام في خبر ﴿إِنَّ﴾ لزيادة التأكيد.

٦ - الاستعارة في قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب، والله أعلم.

الفوائد

الأولى: إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق، ففي الحديث الشريف «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره» وذلك لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته، قال بعض العلماء: «المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس» لأنه تعالى ليس كمثله شيء».

الثانية: تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف، وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح.

الثالثة: سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك! فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ الآيات ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران»

(١) أخرجه ابن مردويه وانظر ابن كثير ١/٣٤٨.

بين يدي السورة

* سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء، ولهذا سميت «سورة النساء».

* تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة.

* كما تعرضت بالتفصيل إلى «أحكام المواريث» على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة، وتحدثت عن المحرمات من النساء «بالنسب، والرضاع، والمصاهرة».

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجرًا ولا ثمنًا، وإنما هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبيَّنت معنى «قوامة الرجل» وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته.

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبيّنت أن أساس الإحسان - التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان.

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو

بلاء، محاسبًا ورقيبًا، ثم بيّن تعالى أن للرجال والنساء نصيبًا من تركة الأقرباء فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضًا، الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها: أن بعض العرب كانوا لا يورّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث من يحارب ويذبّ عن الحوزة، فأبطل الله حكم الجاهلية ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي نصيبًا مقطوعًا فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئًا من هذه التركة تطييبًا لخاطرهم ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قولًا جميلًا بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ نزلت في الأوصياء أي تذكّر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم، وعامل اليتامى الذين في حجرك بمثل ما تريد أن يُعامَل به أبناؤك بعد فقدك ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي يأكلونها بدون حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي ما يأكلون في الحقيقة إلا نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي سيدخلون نارًا هائلة مستعرة وهي نار السعير.

البلاغة: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١- الطباق في ﴿غَنِيًّا .. فَقِيرًا﴾ وفي ﴿قَلَّ أَوْ كَثُرَ﴾ وفي ﴿رِجَالًا .. وَنِسَاءً﴾ وفي ﴿الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾.

٢- والجناس المغاير في ﴿دَفَعْتُمْ .. فَادْفَعُوا﴾ وفي ﴿قُولُوا .. قَوْلًا﴾.

٣- والإطناب في ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.
وفي ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ .. وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾

٤- والمجاز المرسل في ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يتامى، فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يئول إليه كقوله ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنبًا يئول إلى الخمر.

٥- المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٦- والإيجاز في مواضع مثل ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي ونساء كثيرات .. إلخ.

الفوائد:

الأولى: في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفس واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة، والمواريث والحقوق الزوجية، والأحكام المتعلقة،

والرضاع ... وغيرها من الأحكام الشرعية.

الثانية: الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أعقب بدلائل الوحدانية والربوبية مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعقب بذكر النعم كما هنا، أفاده صاحب البحر[1].

الثالثة: ذِكْرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة، فهو كقولك: أبصرت بعيني، وسمعت بأذني، ومثله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

الرابعة: أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى للتنبيه إلى «التكافل بين الأمة» والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها، فإن تبذير السفيه للمال فيه مضرة للمجتمع كله.

كلمة حول تعدد الزوجات

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، وهي ليست تشريعًا جديدًا انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشذّبه وجعله علاجًا ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع.

وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام؛ لأنه استطاع أن يحل «مشكلة اجتماعية» هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلًّا... إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفّتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية ونعمة الأمومة؟ ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة وسلامة المجتمع؟ وأقرب الأمثلة شاهدًا على ما نقول: ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات، وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد.. إن الرجل الأوربي لا يبيح له دينه التعدد، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة، يرى الوالد منهم بنته مع عشيقها فيُسرّ ويغتبط بل ويمهّد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفًا ساريًا، اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه، ووافقت على قبول مبدأ «تعدد الزوجات» ولكن تحت ستار المخادنة، وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد، ويستطيع الرجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة

---

[1] البحر المحيط ٣/ ١٥٢.

أسرة وزوجة، فاعجب ممن منع التعدد الزوجات بالحلال وأباحه بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية.

رب إن الهدى هداك وآيا — تك حق تهدي بها من تشاء

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ...... إلى ... وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (١٤).

المناسبة: لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام، وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحًا لما سبق من الإجمال، فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات.

اللغة: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ الوصية: العهد بالشيء والأمر به، ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر؛ لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فَرِيضَةً﴾ أي حقًا فرضه الله وأوجبه ﴿كَلَٰلَةً﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد، أي لا أصل له ولا فرع، لأنها مشتقة من الكلّ بمعنى الضعف يقال: كلّ الرجل إذا ضعف وذهبت قوته ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها.

سبب النزول: روي أن امرأة سعد بن الربيع جاءت رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأُحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنكحان إلا بمال! فقال ﷺ: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك[1].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ

(١) رواه أبو داود والترمذي.

وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصول أو الفروع ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل، والمعنى: أو امرأة تورث كلالة ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي وللمورث أخ أو أخت من أم ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾ أي فللأخ من الأم السدس، وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، قال في البحر: وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية الثلث، لقوله عليه السلام: «الثلث والثلث كثير» ﴿وصية من الله﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿والله عليم حليم﴾ أي عليم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بين، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حده تعالى له من الطاعات ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ أي يدخله ناراً ماكثاً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً ﴿وله عذاب مهين﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال.

البلاغة: تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي:

١- الطباق في لفظ ﴿الذكر والأنثى﴾ وبين ﴿ومن يطع﴾ و﴿ومن يعص﴾ وفي ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾.

٢- الإطناب في ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ و﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ والفائدة: التأكيد على تنفيذ ما ذكر.

٣- جناس الاشتقاق في ﴿وصية﴾ .. ﴿يوصى﴾.

٤- المبالغة في ﴿عليم حليم﴾.

فائدة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم، ويؤيده ما ورد «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

تنبيه: وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب، وتحمل المشاق، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج[1].

□ □ □

[1] انظر الحكمة التشريعية في كتاب «المواريث في الشريعة الإسلامية» ص ١٨.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢١).

المُنَاسَبَة: لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، ثم أعقبه بالتحذير من عادات الجاهلية من ظلم النساء، وأكل مهورهن، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الكريمة.

اللغَة: ﴿اللَّاتِي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة، والمراد بها هنا: الزنى ﴿وَاللَّذَانِ﴾ تثنية الذي ﴿التَّوْبَةُ﴾ أصل التوبة: الرجوع، وحقيقتها: الندم على فعل القبيح ﴿كَرْهًا﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه، وبضمها بمعنى المشقة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ تمنعوهن يقال: عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بُهْتَانًا﴾ ظلمًا وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أَفْضَىٰ﴾ وصل إليها، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا شديدًا مؤكدًا، وهو عقد النكاح.

سَبَبُ النُّزُول: روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليّه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوبًا، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ...﴾[1].

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

التفسِير: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي احبسوهن فيها إلى الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي يجعل الله لهن مخلصًا بما يشرعه من الأحكام. قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة

(١) زاد المسير ٢/٢٩.

المؤلفة، حُبست في بيت، فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم[1] ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿فَآذُوهُمَا﴾ أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي فإن تابا من الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفّوا عن الإيذاء بهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي مبالغًا في قبول التوبة واسع الرحمة. قال الفخر الرازي: خصّ الحبس في البيت بالمرأة وخصّ الإيذاء بالرجل، لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حُبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة[2] ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهًا وجهالة مقدّرًا قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وتاب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي يتوبون سريعًا قبل مفاجأة الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل الله توبتهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بخلقه حكيمًا في شرعه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب، فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة[3] وفي الحديث «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي يموتون على الكفر فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي هيأنا وأعددنا لهم عذابًا مؤلمًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهًا عنهن. قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج[4] ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصداق ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي إلا في حالة إتيانهن بفاحشة الزنى، قال ابن عباس: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فإن كرهتم

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٦٦. (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/٢٣٥.

(٣) قال الشهيد سيد قطب في الظلال: إنها توبة المضطر لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشئ صلاحًا في القلب ولا صلاحًا في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه.

(٤) القرطبي ٥/٩٤.

صحبتهن فاصبروا عليهن، واستمروا في الإِحسان إِليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقرُّ به أعينكم، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير، وفي الحديث الصحيح «لا يَفْرَكْ - أي لا يبغض - مؤمنٌ مؤمنةً إِن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر» ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي وإِن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إِنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً؟! ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية؟! ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو عقد النكاح، قال مجاهد: الميثاق الغليظ: عقدة النكاح، وفي الحديث «اتقوا الله في النساء فإِنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[1].

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع وهي بإِيجاز كما يلي:

١- المجاز العقلي في قوله: ﴿يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ والمراد: يتوفاهن الله أو ملائكته.

٢- الاستعارة في ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي.

٣- الجناس المغاير في ﴿فَإِن تَابَا ... تَوَّابًا﴾ وفي ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ ... أَن تَكْرَهُوا﴾.

٤- المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه.

فائدة: كنى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإِفضاء ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع، قال ابن عباس: الإِفضاء في هذه الآية الجماع ولكنَّ الله كريم يكني[2].

تنبيه: خطب عمر - رضي الله عنه - فقال: أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإِنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية، فقامت إِليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟! يقول تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال رضي الله عنه: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»[3].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ... إلى ... وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٣١).

المناسَبَة: لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج، وحذّر من إِيذائهن أو أكل مهورهن،

(١) أخرجه مسلم. (٢) القرطبي ٥/١٠٢.
(٣) الكشاف ١/٣٧٩.

عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع.

اللغَة: ﴿سلف﴾ مضى ﴿مقتاً﴾ المقت: البغض الشديد لمن تعاطى القبيح، وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه «نكاح المقت» ﴿ربائبكم﴾ جمع ربيبة وهي بنت امرأة من آخر سميت به لأنها تربى في حجر الزوج ﴿حجوركم﴾ جمع حجر أي تربيتكم يقال: فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته. قال أبو عبيدة: في حجوركم أي في بيوتكم ﴿حلائل﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة، سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿محصنين﴾ متعففين عن الزنى ﴿مسافحين﴾ المسافح: الزاني وأصله في اللغة من السفح وهو الصب، وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طولاً﴾ سعة وغنى ﴿أخدان﴾ جمع خِدْن وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً ﴿العنت﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سنن﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نصليه﴾ ندخله.

سَبَبُ النّزول:

أ- لما توفي «أبو قيس بن الأسلت» وكان من صالحي الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً!! ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتت فأخبرته فأنزل الله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء..﴾[1] الآية.

ب- عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ الآية فاستحللناهن[2].

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا

---

(١) القرطبي ٥/١٠٤. (٢) أسباب النزول ص ٨٥.

أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

التفسير: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ أي إن نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة، وبغيض لذوي المروءة العليا في الجاهلية والإسلام، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعاشرها بعد وفاته وهي مثل أمه؟! ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً، ثم بيّن تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حُرّم عليكم نكاح الأمهات ويشمل لفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ويشمل بنات الأولاد وإن سفلن ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أي أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهن كما تقدم: الأمهات، البنات، الأخوات، العمات، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت، ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ نزّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمّى المرضعة أمّاً للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، وكذلك أختك من الرضاع، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى الأمهات والأخوات، وقد وضّحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(١) ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أم لم يدخل، لأن مجرد العقد على البنت يحرّم الأم ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي تربونهن، وذكر الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب، لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر، قاله ابن عباس، فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يفصّل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرّره ليؤكد سعة رحمته -تعالى- على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي يريد -تعالى- بما يسّر أن يسهّل عليكم أحكام الشرع ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي عاجزًا عن مخالفة هواه لا يصبر عن اتباع الشهوات، ثم حذّر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل، وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله. قال ابن كثير: الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فتعاطوها[1] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار، وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتديًا ظالمًا لا سهوًا ولا خطأً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله نارًا عظيمة يحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هينًا يسيرًا لا عسر فيه، لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله -عز وجل- عنها نمحُ عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- المجاز المرسل في ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات، فهو على حذف مضاف.

٢- الطباق في ﴿حُرِّمَتْ .. وَأُحِلَّ﴾ وفي ﴿مُحْصِنِينَ .. مُسَافِحِينَ﴾ وفي ﴿كَبَائِرَ .. وَسَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأن المراد بالسيئات: الصغائر من الذنوب.

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٧٨.

٣- الكناية في ﴿ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب.

٤- الاستعارة في ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور لأن المهر يشبه الأجر في الصورة.

٥- الجناس المغاير في ﴿تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ﴾ وفي ﴿أَرْضَعْنَكُمْ ... مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وفي ﴿مُحْصَنَٰتٍ ... فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ والإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

الفوائد: الأولى: استنبط العلماء من آية المحرمات القاعدة الآتية وهي «العقد على البنات يحرّم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرّم البنات».

الثانية: حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ على نكاح المتعة وهو غلط فاحش، لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لا نكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك[1].

الثالثة: قال ابن عباس: «الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب».

الرابعة: روى سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار؛ ذكره القرطبي.

□ □ □

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... إلى ... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ من الآية (٣٢) إلى نهاية الآية (٤٣).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصّ الله به كلاً من الجنسين، لأنه سبب للحسد والبغضاء، ثم ذكر تعالى حقوق كلٍّ من الزوجين على الآخر، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان.

اللغَة: ﴿مَوَٰلِىَ﴾ المولى: الذي يتولى غيره يقال للعبد: مولى وللسيد مولى؛ لأن كلاً منهما يتولى الآخر، والمراد به هنا: الورثة والعصبة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ قوّام: صيغة مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن، وأصله المكان المرتفع، ومنه: تلٌّ ناشز وقيل: نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شِقَاقَ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب؛ لأن كلاً من المختلفين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿ٱلْجُنُبِ﴾ البعيد الذي ليس له قرابة توصله بجاره، وأصل الجنابة: البعد ﴿مُخْتَالًا﴾ المختال: ذو الخيلاء والكبر ﴿مِثْقَالَ﴾ وزن ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾ الحدث

---

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة تحريم المتعة في كتابنا روائع البيان ١/٤٥٦ ففيه بحث هام.

وأصله المطمئن من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكنّي عن الحدث بالغائط.

سبب النزول

أ - عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] الآية.

ب - روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - لطمته امرأته «حبيبة بنت زيد» فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتصَّ منه» فنزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»[2].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۞ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ۞ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۞ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۞ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۞ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۞ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

التفسير: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خصّ الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين فذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض. قال

(١) أسباب النزول ص ٨٥.

(٢) الكشاف ١/٣٩٠.

الزمخشري: «نُهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد» ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي لكلٍ من الرجال والنساء نصيبٌ في الميراث نصيبٌ معين المقدار، قال الطبري: «لكلٍ له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[1] ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي واسألوا الله من فضله يعطكم، فإنه كريم وهّاب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل إنسان جعلنا عصبة يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ، قال الحسن: «كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾» وقال ابن عباس: «كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نسخت»[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه.. ثم بيّن تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسئولية والتوجيه فقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب، قال أبو السعود: «والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»[3] ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجال، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير، كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث «إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرجل يُفضي إلى امرأته وتُفضي إليه ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه» ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ هذا القسم الثاني وهنَّ النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبيل الإصلاح ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ أي فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير

---

(1) الطبري ٨/٢٦٢.
(2) مختصر ابن كثير ١/٣٨٤.
(3) إرشاد العقل السليم ١/٣٣٩.

فاهجروهنَّ في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن. قال ابن عباس: «الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره»[١] فمن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا، وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد إلى أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين! ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفة وعداوة بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكيماً في تشريعه لهم ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وحّدوه وعظّموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره، واستوصوا بالوالدين براً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي الجار القريب، الذي له عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ قال ابن عباس: «هو الرفيق في السفر». وقال الزمخشري: «هو الذي صحبك إما رفيقاً في سفر، أو جاراً ملاصقاً، أو شريكاً في تعلم علم، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، ممن له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه، وقيل: هي المرأة»[٢] ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء، ونصائح الحكماء، ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات! وهي مع ذلك عامة ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٨٦.

(٢) الكشاف ١/٣٩٢ وهذا الرأي اختيار الطبري أيضاً.

الكافرون، أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ ... ﴾(1) الآية ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين من إنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال ابن عباس: هو الجماع ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر للتطهر به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يقعوا في الحرج.

البَلاَغَة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي:

١- الإطناب في قوله: ﴿نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ ... ﴿نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ وفي ﴿حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وفي ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

٢- الاستعارة في ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكتساب واشتق من لفظ الاكتساب ﴿اكْتَسَبُوا﴾ على طريقة الاستعارة التبعية.

٣- الكناية في ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع، وكذلك في ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال ابن عباس معناه: جامعتم النساء، كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

٤- صيغة المبالغة في ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾، لأن فعّال من صيغ المبالغة، ومجيء الجملة اسمية لإفادة الدوام والاستمرار.

٥- السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ يراد بها التقريع والتوبيخ.

٦- جناس الاشتقاق في ﴿حَافِظَاتٌ ... بِمَا حَفِظَ﴾ وفي قوله ﴿بِشَهِيدٍ﴾ ... و﴿شَهِيدًا﴾

٧- التعريض في ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس.

٨- الحذف في عدة مواضع مثل: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً

الفوائد

الأولى: لم يذكر الله تعالى في الآية إلا الإصلاح في قوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على الحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح، لأن في التفريق خراب البيوت وتشتيت الأولاد، وذلك مما ينبغي أن يجتنب

(1) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: ختم تعالى الآية بهذين الاسمين الجليلين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول: لا تغتروا بكونكم أعلى يدًا منهن وأكبر درجة منهن، فإن الله تعالى قدير ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه.

الثالثة: روى البخاري عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: حسبك الآن، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان.

تنبيه: ورد النظم الكريم ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولو قال: بتفضيلهم عليهن لكان أخصر وأوجز ولكن التعبير ورد بهذه الصيغة لحكمة جليلة، وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الإنسان وكذلك العكس، فالرجل بمنزلة الرأس، والمرأة بمنزلة البدن ولا ينبغي أن يتكبر عضو على عضو، فالأذن لا تغني عن العين، واليد لا تغني عن القدم، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده، فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحد عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله: ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز.

كلمة حول تأديب النساء

إن أعجب ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون: كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾؟ أليس هذا إهانة للمرأة واعتداء على كرامتها؟!

والجواب: نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب؟ ولمن يكون؟ إن الضرب - ضربًا غير مبرِّح - كما ورد به الحديث الشريف أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضجع، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بد من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء، وهذا أقل ضررًا من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسنًا وجميلاً وما أحسن ما قيل: «وعند ذكر العمى يُستحسن العَوَر» فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾!

من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب﴾ إلى ﴿وندخلهم ظلًا ظليلًا﴾ من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥٧).

سبب النزول: روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أحبار اليهود -: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقًا نحن أم محمد؟ فقال: اعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم!! فقال: دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلًا مما هو عليه، فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب...﴾ [1] الآية.

المناسبة: لما ذكر تعالى شيئًا من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا، أعقب بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائفة وما أعده لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها.

اللغة: ﴿راعنا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سبّ في العبرية، وكان اليهود يقولونها ويقصدون بها معنى الرعونة ﴿أقوم﴾ أعدل وأصوب ﴿نطمس﴾ الطمس: المحو والذهاب أثر الشيء ﴿فتيلًا﴾ الفتيل: الخيط الذي في شق النواة ﴿الجبت﴾ اسم للصنم ثم صار مستعملًا لكل باطل ﴿الطاغوت﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان، وقيل: هو اسم للشيطان ﴿نقيرًا﴾ النقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿نصليهم﴾ ندخلهم.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴿٤٤﴾ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا ﴿٤٥﴾ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلًا ﴿٤٦﴾ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولًا ﴿٤٧﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا ﴿٤٨﴾ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا ﴿٤٩﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثمًا مبينًا ﴿٥٠﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا ﴿٥١﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا ﴿٥٢﴾ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرًا ﴿٥٣﴾ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا ﴿٥٤﴾ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرًا ﴿٥٥﴾ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا كلما نضجت جلودهم

(١) أسباب النزول ص ٨٩، الطبري ٨/٤٦٨.

بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ الاستفهام للتعجيب من سوء حالهم والتحذير من موالاتهم، أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظًا من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم فاحذروهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي حسبكم أن يكون الله وليًا وناصرًا لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم. ثم ذكر تعالى طرفًا من قبائح اليهود اللعناء فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا وعمدًا، فقد غيّروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك وعصينا أمرك. قال مجاهد: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر، وأصله للخير أي لا سمعتَ مكروهًا ولكنّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو الموت ﴿وَرَاعِنَا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم: راعنا وهي كلمة سبٍّ من الرعونة وهي الحُمْق، فكانوا سخريةً وهزءًا برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي فتلاً وتحريفًا عن الحق إلى الباطل وقدحًا في الإسلام. قال ابن عطية: «وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربُّون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير»[1] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي عوضًا من قولهم: سمعنا وعصينا ﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ أي عوضًا من قولهم: غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي لكان ذلك القول خيرًا لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلاً. قال الزمخشري: أي ضعيفًا ركيكًا لا يُعبأ به[2] وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل. ثم توعدهم تعالى بالطمس وذهاب الحواس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدقًا للتوراة ﴿مِنْ قَبْلِ

(١) البحر المحيط ٣/٢٦٤. (٢) الكشاف ١/٤٠١.

أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها﴾ أي نطمس منها الحواس من أنف وعين وحاجب فنجعلها كالأدبار، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان، وهو قول ابن عباس(١) ﴿أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثماً عظيماً. قال الطبري: «قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله»(٢) .. ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم لكتاب فقال ﴿ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى؟ والاستفهام للتعجيب من أمرهم. قال قتادة: «وذلكم أعداء الله اليهود زكّوا أنفسهم فقالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحبّاؤه﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا»(٣) ﴿بل الله يزكّي من يشاء﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها مزكّي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي لا ينقصون من أعمالهم مقدار الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة كقوله ﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة﴾ . ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه؟ ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيّناً وجرماً عظيماً ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الاستفهام للتعجيب، والمراد بهم أيضاً اليهود أعطوا حظاً من التوراة، وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام وكلِّ ما عُبد من دون الرحمن ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه. قال ابن كثير: «يفضّلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم»(٤) قال تعالى إخباراً عن عقابهم ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ أي من يطرده من رحمته فليس له ناصر من عذاب الله ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم؟ ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ أي ألهم حظ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس لهم من الملك شيء ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط

---

(١) وهو اختيار الطبري حيث قال: أي من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها فنسوّيها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها لتمشي القهقرى.

(٢) الطبري ٨/ ٤٥٠ (٣) الطبري ٨/ ٤٥٢

(٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٠٣.

بخلهم، والنقير مثلٌ في القلة كالفتيل والقطمير، وهو النكتة في ظهر النواة. ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان، والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرّف بها العرب، ويحسدون المؤمنين على ازديادهم عزاً وتمكيناً؟ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي لقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة، أنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصّون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزامهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي كفى بالنار المسعّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم. ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب. قال الحسن: تُنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعادوا كما كانوا، وقال الربيع: "جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها" وفي الحديث "يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أُحد"[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيز لا يمتنع عليه شيء، حكيم لا يعذب إلا بعدل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى. قال مجاهد: مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد. قال الحسن: وُصف بأنه ظليل؛ لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، وفي الحديث "إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها"[2].

البَلاَغَة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بإيجاز:

١ - المجاز المرسل في ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص

(١) أخرجه أحمد في المسند. (٢) أخرجه الشيخان.

باسم العَلَم إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين.

٢- الاستعارة في ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ وفي ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ؛ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان، وفي ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ ؛ لأن أصل اللَّيّ فتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهًا بالصحيفة المطموسة التي مُحيت سطورها وأشكلت حروفها.

٣- الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في موضعين.

٤- التعجب بلفظ الأمر في ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار.

٥- الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقريع في ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وفي ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾

٦- التعريض في ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرَّض بشدة بخلهم.

٧- الطباق في ﴿آمَنَ ... وَصَدَّ﴾ وفي ﴿آمَنُوا ... كَفَرُوا﴾.

٨- جناس الاشتقاق في ﴿بَدَّلْنَاهُمْ ... جُلُودًا﴾ وفي ﴿سَنُدْخِلُهُمْ ... وَنُدْخِلُهُمْ﴾ وفي ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

٩- الإطناب في موضع، والحذف في مواضع.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ... إلى ... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ من آية (٥٨) إلى نهاية آية (٧٠).

المُنَاسَبَة: لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها.

اللُّغَة: ﴿نِعِمَّا﴾ أصلها نعم ما أي نعم الشيء يعظكم به ﴿تَأْوِيلًا﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ الزعم: الاعتقاد الظني، قال الليث: أهل العربية يقولون: زعم فلان، إذا شكّوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق، وقال ابن دريد: أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم: «زعموا: مطية الكذب» ﴿تَوْفِيقًا﴾ تأليفًا، والوفاق والوفق ضد المخالفة ﴿بَلِيغًا﴾ مؤثرًا ﴿شَجَرَ﴾ اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حَرَجًا﴾ ضيقًا وشكًا. قال الواحدي: «يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه: حرج».

سبب النزول

أ- روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه! فلوى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج أمر عليًا

أن يردَّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان: آذيت وأكرهت ثم جئت ترفق!! فقال: لقد أنزل الله في شأنك قرآنًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم»[1].

ب - عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له: «بشر» كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق: بل نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» -وهو الذي سماه الله: الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك! فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم! فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله!! فنزلت الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ...﴾[2] الآية.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن

---

(١) الفخر الرازي ١٠/١٣٨ وأسباب النزول ص ٩٠.

(٢) الكشاف ١/٤٠٦ والقرطبي ٥/٢٦٤.

الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد. قال الزمخشري: الخطاب عام لكل أحدٍ في كل أمانة[١]. والمعنى: يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها. قال ابن كثير: يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله - عز وجل - على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغير هذا، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها[٢] ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه وعدٌ ووعيد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله ﴿مِنكُمْ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسًّا ومعنًى، لحمًا ودمًا، لا أن يكونوا مسلمين صورةً وشكلاً ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقًا، وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول، والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل: إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ خيرٌ لكم وأصلح وأحسن عاقبةً ومآلاً. ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدّعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ تعجيبٌ من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصوماتهم إلى الطاغوت. قال ابن عباس: هو كعب بن الأشرف أحد طغاة اليهود سمّي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي والحال أنهم قد أُمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ويريد الشيطان بما زيّن لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين: تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي رأيتهم يعرضون عنك إعراضًا ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنت

---

(١) الكشاف ١/٥٢٤. (٢) مختصر ابن كثير ١/٤٠٤.

أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب؟ ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار يحلفون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين، وما أردنا مخالفة حكمك. قال تعالى تكذيبًا لهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعًا ولنفاقهم زاجرًا. ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى، فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم. ثم بيّن تعالى طريق الإيمان الصادق فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكمًا بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا واختلفوا فيه من الأمور ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا من حكمك وينقادوا انقيادًا تامًا كاملاً لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشدة التكاليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيرًا لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتًا لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي لأعطيناهم على ثمرة الطاعة ثوابًا كبيرًا ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي أرشدناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ولرسوله فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء

بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار. ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين، وحذّر المؤمنين من شرهم.

اللغة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثُبة وهي الجماعة أي جماعة بعد جماعة ﴿بُرُوجٍ﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا: الحصون ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرتفعة البناء ﴿بَيَّتَ﴾ دبّر الأمر ليلاً. والبيات: أن يأتي العدو ليلاً، ومنه قول العرب: أمرٌ بُيِّت بليل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ يستخرجونه، مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته، ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿حَرِّضِ﴾ التحريض: الحث على الشيء ﴿تَنكِيلًا﴾ تعذيباً والتنكيل: العذاب ﴿كِفْلٌ﴾ نصيب، وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مُّقِيتًا﴾ مقتدراً، من أقات على الشيء: قدر عليه، قال الشاعر:

وذي ضغنٍ كففتُ النفسَ عنه ... وكنتُ على مساءته مُقيتا

سبب النزول: عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبيّ الله لقد كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: «إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم» فلما حوّله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [1] الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ۝ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ

(١) أسباب النزول ص ٩٦ والقرطبي ٥/٢٨١.

غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فخيّرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليتثاقلن ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون، وجُعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال ذلك المنافق: قد تفضّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأُقتل فيمن قُتلوا ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ليقولن هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة: يا ليتني كنت معهم في الغزوة لأنال حظاً وافراً من الغنيمة، وجملة ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل حبّ المال وتحصيلاً للحطام. ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغّب المؤمنين فيه فقال ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواء غَلب أو غُلب، أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث «تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي فهو عليّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[1] ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها

---

(1) أخرجه مسلم.

المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد؟! وقوله : ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيانٌ للمستضعفين ، قال ابن عباس : «كنتُ أنا وأمي من المستضعفين ، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول : «اللهم أنجِ الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام ...» إلخ كما في الصحيح ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضُّرِّ عنهم قائلين : ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة ؛ إذ إنها كانت موطن الكفر ، ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجًا ومخرجًا وسخِّر لنا من عندك وليًّا وناصرًا ، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير وليٍّ وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولَّى عليهم «عتَّاب بن أسيد» فأنصف مظلومهم من ظالمهم ، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سامٍ وغاية نبيلة ، وهي نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم ، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان ، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يَغْلِب ؛ لأن الله وليُّه وناصرُه ، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي سعيُ الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله؟ قال الزمخشري : «كيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه»[1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم : أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته وأعدُّوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك ، قال ابن كثير : «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين ، وكانوا يتحرقون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، فلما أُمروا بما كانوا يودُّونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفًا شديدًا»[2] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي وقالوا جزعًا من الموت : ربنا لمَ فرضت علينا القتال؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ «لولا» للتحضيض بمعنى «هلَّا» أي هلَّا أخرتنا

---

(١) الكشاف ١/٤٤٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٤١٣ .

إلى أجلٍ قريب حتى نموت بآجالنا ولا نُقتل فيفرح بنا الأعداء! ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي قل لهم يا محمد: إن نعيم الدنيا فانٍ ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتثل أمره ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة. قال في التسهيل: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت، وقيل: هي في المنافقين، وهو أليق في سياق الكلام[1] ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ أي في أي مكان وُجدتم فلا بد أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا: هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع وشبه ذلك يقولوا: هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه! يعنون شؤم محمد ودينه. قال الصاوي: ويقولون: هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء! كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله، أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنة والسيئة والنعمة والنقمة كلٌّ ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار، وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟! وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك، لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. ثم قال تعالى مخاطباً الرسول: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله، وحسبك أن يكون الله شاهداً على رسالتك. ثم رغّب تعالى في طاعة الرسول فقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله، لأنه مبلّغ عن الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي ويقول المنافقون: أمرك يا محمد طاعة،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٤٨ واختار هذا القرطبي وأبو حيان، وهو الأرجح قال في البحر: والظاهر أن القائلين هذا هم منافقون؛ لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا جاء بعده ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق. انظر البحر ٣/ ٢٩٨.

كقول القائل: سمعًا وطاعة، فإذا خرجوا من عندك دبّر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم، وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اصفح عنهم وفوّض أمرك إلى الله، وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم، وكفى به ناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلقًا كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضًا كبيرًا في أخباره ونظمه ومعانيه، ولكنه منزّه عن ذلك فأخباره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدلّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته، وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لو تركوا هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردّوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول، ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم، ثم أمر الرسول بالجهاد فقال ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك، فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شجعهم على القتال ورغّبهم فيه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿عَسَى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شر الكفرة الفجار، وقد كفّهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذابًا ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي مقتدرًا فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردّوا عليه بأفضل مما سلّم أو ردّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسمٌ من الله بجمع الخلائق يوم الحشر أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه، وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد للجزاء والحساب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق

في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

البلاغة: تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة في قوله: ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية، فاستعار لفظ الشراء للمبادلة، وهو من لطيف الاستعارة.

٢ - الاعتراض في ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾

٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

٤ - الطباق بين ﴿الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾

٥ - جناس الاشتقاق في ﴿أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ وفي ﴿حُيِّيتُم ... فَحَيُّوا﴾ وفي ﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً﴾ وفي ﴿بَيَّتَ ... يُبَيِّتُونَ﴾

٦ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ؟

٧ - المقابلة في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وكذلك في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وهذه من المحسنات البديعية، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

تنبيه: لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي كلٌّ من الحسنة والسيئة وبين قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أو نقول: نسبة الحسنة إلى الله، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام، وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ: «الخير كله بيديك والشر ليس إليك» والله أعلم.

□□□

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ... إلى ... وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ من آية (٨٨) إلى نهاية آية (٩٦).

المناسبة: لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة.

اللغة: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ ردهم إلى الكفر أو نكَّسهم، وأصله الرَّكس وهو رد الشيء مقلوباً قال الشاعر:

فأُركِسوا في حميم النار إنهم ... كانوا عصاةً وقالوا الإفك والزورا(١)

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت.

﴿حَصِرَتْ﴾ ضاقت، من الحصر وهو الضيق ﴿السَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتثبتوا ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها.

سبب النزول:

أ- عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناسٌ ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ...﴾ الآية فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد» أخرجه الشيخان.

ب- يروى أن الحارث بن يزيد كان شديدًا على النبي ﷺ فجاء مهاجرًا وهو يريد الإسلام فلقيه عياش بن أبي ربيعة -والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر- فقتله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً...﴾[1] الآية.

ج- عن ابن عباس قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾[2] الآية.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۖ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ

(١) أسباب النزول ص ٩٧.
(٢) رواه البخاري.

والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ۝ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾

التفسير: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم، وبعضكم يقول لا نقتلهم، والحال أنهم منافقون، والله نكسهم وردهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين، والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير؛ لأن الله حكم بضلالهم ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أي من يخذله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي لا توالوهم ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ أي لا تستنصروا بهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحلف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ وهذا صنف آخر أيضاً من الناس، أي وإلا الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه تعالى بكم أن كفهم عنكم ولو شاء لقواهم وجرأهم عليكم فقاتلوكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تتعرضوا لهم طالما سالموكم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ أي ستجدون فئة أخرى من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان، ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم. قال أبو السعود: هم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم[1] ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل، فهم شر من كل عدو شرير ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم

---

(١) انظر تفصيل حكم القتل عمداً في البحر ٣/٣٢٣ وابن كثير ١/٤٢٣ من المختصر

فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت؟ وكان أعمى، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضّل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر»(١) ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وفضّل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»(٢).

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبديع ألوانًا نوجزها فيما يلي:

١ ـ الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾؟ وفي ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾؟.

٢ ـ الطباق في ﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكذلك ﴿الْقَاعِدُونَ ... وَالْمُجَاهِدُونَ﴾.

٣ ـ الجناس المغاير في ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ وفي «المغفرة.. وغفورًا».

٤ ـ الإطناب في ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ... ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ وكذلك في ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾.

٥ ـ الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله، ففيه استعارة الضرب للجهاد، واستعارة السبيل لدين الله.

٦ ـ المجاز المرسل في ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل، أي عتق مملوك.

الفوائد: القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام، ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد، وقد قال ﷺ: «من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»(٣) وفي الحديث «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن»(٤) ولهذا أفتى ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل، أعاذنا الله من ذلك.

تنبيه: أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبة مؤمنة، والحكمة في هذا والله أعلم أنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يُدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار، إذ إن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم

---

(١) أخرجه البخاري. (٢) أخرجه النسائي.

(٣) أخرجه ابن ماجه. (٤) أخرجه البيهقي.

لا تكلّفوهم ما لا يطيقون» ومن يطّلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جليًّا صحة ما نقول، وها هي الأمم الغربية تحرّم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، فتحرّم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب باسم الاستعمار والانتداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنية الزائفة من حضارة الإسلام، ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ... إلى ... وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١١٣).

المناسبة: لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغّب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب.. ثم لما كان الجهاد والهجرة سببًا لحدوث الخوف بيّن تعالى صلاة السفر وطريقة صلاة الخوف، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجّله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتُّهم ظلمًا بالسرقة وإدانة الذين تآمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة.

اللغة: ﴿مُرَاغَمًا﴾ مذهبًا ومتحوَّلاً، مشتق من الرَّغام وهو التراب. قال ابن قتيبة: «المراغم والمهاجر واحد، وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مراغمًا لهم أي مغاضبًا، فقيل للمذهب: مراغَمًا وسُمّي مصيره إلى النبي ﷺ هجرة»[1] ﴿سَعَةً﴾ اتساعًا في الرزق ﴿تَقْصُرُوا﴾ القصر: النقص، يقال: قصر صلاته إذا صلى الرباعية ركعتين. قال أبو عبيدة: فيها ثلاث لغات: قصرت الصلاة، وقصّرتها، وأقصرتها[2] ﴿تَغْفُلُونَ﴾ الغفلة: السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿مَوْقُوتًا﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تَهِنُوا﴾ تضعفوا ﴿خَصِيمًا﴾ الخصيم بمعنى المخاصم، أي المدافع والمحامي ﴿خَوَّانًا﴾ مبالغ في الخيانة.

سبب النزول:

أ- عن ابن عباس قال: «كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ..﴾[3] الآية.

ب- كان ضمرة بن العيص من المستضعفين بمكة، وكان مريضًا، فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده: احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة! فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٢٤.
(٢) القرطبي ٥/٣٦٠.
(٣) مختصر ابن كثير ١/٤٢٧.

بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[1].

ج - روي أن رجلاً من الأنصار يقال له: «طعمة بن أبيرق» من بني ظفر سرق درعاً من جاره «قتادة بن النعمان» في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودي، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال: دفعها إليّ طُعمة، وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي، فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ الآية وهرب طُعمة إلى مكة وارتد، ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله[2].

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا (٩٩) ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما (١٠٠) وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا (١٠١) وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا (١٠٢) فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (١٠٣) ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥) واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (١٠٦) ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما (١٠٧) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا (١٠٨) ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا (١٠٩) ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (١١٠) ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما (١١١) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢) ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة

(١) القرطبي ٥/٣٤٩. (٢) أبو السعود ١/٣٨٠.

[illegible]﴾

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع، قالوا معتذرين: كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً: أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دار تقدرون فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة؟ قال تعالى مبيناً لجزائهم ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مقرهم النار وساءت مقراً ومصيراً، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي إلا من كان مستضعفاً من الرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة، فلا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مهاجراً ومتحولاً في الأرض كثيراً يرغم به أنف عدوه، ويجد سعة في الرزق، فأرض الله واسعة، ورزقه سابغ على العباد ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي ساتراً على العباد رحيماً بهم ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة، وذكر الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين، ويؤيده حديث يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن الله يقول ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أمن الناس فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم ظاهرو العداوة ولا يمنعهم حرمة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلون صلاة الخوف من العدو فلتقم بك طائفة منهم وهم ملتحفون بأسلحتهم احتياطاً ولتقف الطائفة الأخرى في وجه

العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصل إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون، والمعنى لا تشتغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أمرتم به ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي أعد لهم عذابًا مخزيًا مع الإهانة، روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزُرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد - وهم بيننا وبين القبلة - فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غرتهم ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [1] الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم، واذكروه في جميع الحالات لعله ينصركم على عدوكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أُمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي فرضًا محدودًا بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدّوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضًا منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بمصالح خلقه حكيمًا في تشريعه وتدبيره. قال القرطبي: نزلت هذه الآية في حرب أحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة، وقيل هذا في كل جهاد[2] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبسًا بالحق لتحكم بين الناس بما عرفك الله وأوحى به إليك ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٣٠ (٢) القرطبي ٥/ ٣٧٤

﴿خَصِيمًا﴾ أي لا تكن مدافعًا ومحاميًا عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم وهم طعمة بن أبيرق وجماعته ﴿واستغفر الله﴾ أي استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طعمة اطمئنانًا لشهادة قومه بصلاحه ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ أي مبالغًا في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾ أي لا يحب من كان مفرطًا في الخيانة منهمكًا في المعاصي والآثام ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ أي يستترون من الناس خوفًا وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ أي وهو معهم - جل وعلا - عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾ أي لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت. ثم قال تعالى توبيخًا لقوم طعمة: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه؟ ﴿أم من يكون عليهم وكيلا﴾؟ أي من يتولى الدفاع عنهم وينصرهم من بأس الله وانتقامه؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه﴾ أي من يعمل أمرًا قبيحًا يسوء به غيره كاتهام بريء، أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة. قال ابن عباس: عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما﴾ أي من يقترف إثمًا متعمدًا فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليمًا بذنبه حكيمًا في عقابه ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثما﴾ أي من يعمل ذنبًا صغيرًا أو إثمًا كبيرًا ﴿ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمل جرمًا وذنبًا واضحًا. ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لهمت جماعة منهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرئ صاحبهم طعمة من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله - عز وجل - على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ أي وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى ينزل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام؟ ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيرًا بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ وفي ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾؟

٢- إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿وَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أريد بها صلاة الخوف.

٣- الجناس المغاير في ﴿يَعْفُوَ .. عَفُوًّا﴾ وفي ﴿يُهَاجِرْ .. مُهَاجِرًا﴾ وفي ﴿تَأْلَمُونَ .. يَأْلَمُونَ﴾ وفي ﴿يَسْتَغْفِرِ .. غَفُورًا﴾.

٤- إطلاق الجمع على الواحد في ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يراد به ملك الموت، وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه.

٥- طباق السلب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.

٦- الإطناب بتكرار لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾(١).

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ..﴾ إلى قوله ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. من آية (١١٤) إلى نهاية آية (١٣٤).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة طعمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء، ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السر لإلصاق البريء بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله، وأن كل تدبير في السر يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح، ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول جريمة عظيمة، وحذّر من الشيطان وطرق إغوائه، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن، وأكّد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطرق إلى الإصلاح بين الزوجين إما بالوفاق أو بالفراق.

اللغة: ﴿نَّجْوَاهُمْ﴾ النجوى: السرُّ بين الاثنين. قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف والشقاق: الخلاف مع العداوة؛ لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مَّرِيدًا﴾ المريد: العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجبر. قال الأزهري: المريد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ البتك: القطع، ومنه سيف باتك أي قاطع ﴿مَحِيصًا﴾ مهرباً من حاص: إذا هرب ونفر، وفي المثل "وقعوا في حيص بيص" أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خَلِيلًا﴾ من الخلة وهي صفاء المودة. قال ثعلب: سمي الخليل خليلاً؛ لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلاً

(١) القرطبي ٥/ [illegible].

﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ شبيهة بالمعلقة: هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة.

سبب النزول

أ - لما سرق طعمة بن أبيرق وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ...﴾[1] الآية.

ب - قال قتادة: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾[2] الآية.

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا

(1) القرطبي ٥/٣٨٦ (2) أسباب النزول ص ١٠٤

دين الله بالكفر والمعاصي(1) وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ومن يتولَّ الشيطان ويطعه ويترك أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة، وأي خسران أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل. قال ابن كثير: وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك(2) ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً. قال ابن عرفة: الغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مزين الظاهر فاسد الباطن ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً؟ والاستفهام معناه النفي أي لا أحد أصدق قولاً من الله. قال أبو السعود: والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه(3) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح. قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أم أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين! وإنما قال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مطيع لله مجتنب لنواهيه ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن مستقيماً على منهجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صفياً اصطفاه لمحبته وخلته. قال ابن

---

(1) هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، واختاره الطبري.
(2) مختصر ابن كثير ١/٤٣٩ (3) أبو السعود ١/٣٨٤

كثير : لأنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه(١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا رادَّ لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي قل لهم يا محمد : يبيِّن الله لكم ما سألتم في شأنهن ويبيِّن لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي ويبيِّن لكم أيضاً أمر اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن كاملة ، فنهاهم الله - عز وجل - عن ذلك ، قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وأحبها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها ، فحرَّم الله ذلك ، ونهى عنه ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً؟ فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي وما تفعلوه من عمل صالح في أمر النساء واليتامى فإن الله سيجازيكم عليه . قال ابن كثير : « وهذا تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء »(٢) ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي إذا علمت امرأة أو تيقنت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته ، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حلٍّ من شأني(٣) ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي والصلح خيرٌ من الفراق ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح ، وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٤٢ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٤٤٤ .

(٣) الطبري ٩/٢٧١ .

الجور عليهن ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء. ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغٌ من الصعوبة مبلغًا لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء، وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم، لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة، شبهت بالشيء المعلَّق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فإن الله كان غفورًا رحيمًا﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه، فإن الله يغني كلاً منهما عن صاحبه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجًا خيرًا من زوجه، وعيشًا أهنأ من عيشه ﴿وكان الله واسعًا حكيمًا﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيمًا في تدبيره لهم ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أن اتقوا الله﴾ أي وصيناكم جميعًا بتقوى الله وطاعته ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم، لأنه مستغن عن العباد، وهو المالك لما في السموات والأرض ﴿وكان الله غنيًا حميدًا﴾ أي غنيًا عن خلقه، محمودًا في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كفى به حافظًا لأعمال عباده ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وكان الله على ذلك قديرًا﴾ أي قادرًا على ذلك ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعًا بصيرًا﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلمَ يطلب الأخس ولا يطلب الأعلى؟ فليطلب العبد من ربه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعًا من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستعارة في ﴿أسلم وجهه لله﴾ استعار الوجه للقصد والجهة، وكذلك في قوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾، لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه أحضرها وحمل على ملازمتها، فاستعار الإحضار للملازمة[1].

---

(١) تلخيص البيان ص ٢٦.

٢- الجناس المغاير في ﴿[illegible] .. [illegible]﴾ وفي ﴿خَيْرٌ .. خَبِيرًا﴾ وفي ﴿[illegible] .. [illegible]﴾ وفي ﴿صُلْحًا .. وَالصُّلْحُ﴾ وفي ﴿تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.

٣- التشبيه في ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهو مرسل مجمل.

٤- الإطناب والإيجاز في عدة مواضع.

تنبيه: العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط، وإلا لتناقضت الآية مع الآية السابقة ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك» يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾، وأما ما يدعوا إليه بعض من يتسمون بـ «المجددين» من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية، فلا عبرة به؛ لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تردُّهُ الشريعة الغراء والسنة النبوية المطهرة، وكفانا الله شر علماء السوء.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ .. إلى .. وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ من الآية (١٣٥) إلى نهاية الآية (١٤٧).

المناسبة: لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنيًا أو فقيرًا، وحذّر من اتباع الهوى، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم.

اللغة: ﴿تَلْوُوا﴾ اللّيّ: الدفع يقال: لويت فلانًا حقه إذا دفعته ومطلته، ومنه الحديث: «ليّ الواجد ظلم» أي مطل الغني ظلم ﴿تَخُوضُوا﴾ الخوض: الاقتحام في الشيء، ومنه خوض الماء ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والتغلب، يقال: استحوذ على كذا إذا غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ الذبذبة: التحريك والاضطراب يقال: ذبذبته فتذبذب، والمذبذب المتردد بين أمرين ﴿الدَّرْكِ﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة، وهي لما تسافل. قال ابن عباس: «الدَّرْك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض»[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

(١) البحر ٣/ ٣٨٠.

ثم ءامنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴿١٣٧﴾ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴿١٣٨﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴿١٣٩﴾ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم ءايات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴿١٤٠﴾ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴿١٤١﴾ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴿١٤٢﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴿١٤٣﴾ يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴿١٤٤﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴿١٤٥﴾ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴿١٤٦﴾ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وءامنتم وكان الله شاكرا عليما﴾.

التفسير: ﴿يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾ حتى لا يكون منهم جور أبدًا ﴿شهداء لله﴾ أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو قرابتكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنيًا فلا يراعى لغناه، أو فقيرًا فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحمًا وإشفاقًا ﴿فالله أولى بهما﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما، فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس. قال ابن كثير: «أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل على كل حال»[1] ﴿وإن تلووا أو تعرضوا﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تعرضوا عن إقامتها رأسًا ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ فيجازيكم عليه ﴿يا أيها الذين ءامنوا ءامنوا بالله ورسوله﴾ أي اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن. قال أبو السعود: «المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية»[2] ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج

(١) مختصر ابن كثير ٤٤٧/١ .

(٢) أبو السعود ٣٨٩/١ .

عزتم المؤمنين حتى انتصرتم عليهم؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم، لأننا مع الكفار ولا نترك أحدًا يؤذيكم. قال تعالى بيانًا لمآل الفريقين: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لن يمكّن الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم[1]. قال ابن كثير: وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة[2]. ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم وقد أعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمّى تعالى جزاءهم خداعًا بطريق المشاكلة، لأن وبال خداعهم راجع عليهم ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ أي يصلون وهم متثاقلون متكاسلون، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكرًا قليلاً ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقًا إلى السعادة والهدى، ثم حذّر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة الفجرة بالمصاحبة والمصادقة ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون؟ قال ابن عباس: «كل سلطان في القرآن حجة»، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات. قال ابن عباس: «أي في أسفل النار» وذلك؛ لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنار دركات كما أن الجنة درجات ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصرًا ينصرهم من عذاب الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أي أعمالهم ونياتهم ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ أي أيُّ منفعةٍ له سبحانه في عذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر،

---

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها، وهو الذي رجحناه، وقيل: إن المراد بالسبيل: الحجة. وقيل: هذا يوم القيامة، وقد رجحه الطبري حيث قال: يعني حجة يوم القيامة، واستدل له بما روي أن رجلاً سأل عليًا عن هذه الآية فقال: ادنه ادنه، ثم قرأ عليه ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة، وقد ضعف هذا الرأي ابن العربي. انظر القرطبي ٥/٤١٩.

(٢) مختصر ابن كثير ١/٤٤٩.

ثم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغني عنكم؟ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي:

١- المبالغة في الصيغة في ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي مبالغين في العدل.

٢- الطباق بين غنياً.. وفقيراً وبين ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾

٣- الجناس الناقص في ﴿آمَنُوا آمِنُوا﴾ لتغير الشكل.

٤- جناس الاشتقاق في ﴿يُخَادِعُونَ... خَادِعُهُمْ﴾ وفي ﴿جَامِعُ... جَمِيعًا﴾ وفي ﴿شَكَرْتُمْ... شَاكِرًا﴾

٥- الأسلوب التهكمي في ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً.

٦- الاستعارة في ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزه عن الخداع.

٧- الاستفهام الإنكاري في ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾؟ والغرض منه التقريع والتوبيخ.

الفوائد

الأولى: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي ثبتنا على الصراط المستقيم.

الثانية: سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً ونسبه إليه ﴿فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم ينسبه إليه، وذلك لتعظيم شأن المسلمين، وتخسيس حظ الكافرين.

الثالثة: قال المفسرون: النار سبع دركات، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض، لأن لفظ النار يجمعها، كذا في البحر.

الرابعة: المنافق أخطر من الكافر، ولهذا كان عذابه أشد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكفار الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وأما المنافق فاشترط عليه أربعة: التوبة، والإصلاح، والاعتصام، والإخلاص للدين لله فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ تدل على أن المنافقين شر من الكفار، وأولاهم بمقته، وأبعدهم من الإنابة إليه، ثم قال ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: فأولئك هم المؤمنون ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل: وسوف يؤتيهم بغضاً لهم وإعراضاً عنهم وتحذيراً لما كانوا عليه من عظيم كفر النفاق، ولله فيهما أسرار كتابه.

قال الله تعالى: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ... إلى ... أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا﴾ من آية (١٤٨) إلى نهاية آية (١٦٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر، ثم تحدث عن اليهود وعدّد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله، وعبادتهم للعجل، وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة.

اللغة: ﴿جهرة﴾ عيانًا ﴿بهتانًا﴾ البهتان: الكذب الذي يُتحيّر فيه من شدته وعظمته ﴿شُبِّه﴾ وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وأعتدنا﴾ هيأنا ﴿الراسخون﴾ المتمكنون من العلم.

سبب النزول: روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا: يا محمد إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملة، فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء ...﴾[1] الآية.

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعًا عليمًا ۝ إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًا قديرًا ۝ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا ۝ أولئك هم الكافرون حقًا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ۝ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورًا رحيمًا ۝ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانًا مبينًا ۝ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدًا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا ۝ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلًا ۝ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا ۝ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينًا ۝ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا ۝ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ۝ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرًا ۝ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا ۝ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا﴾.

(١) مجمع البيان ٣/١٣٣

للتقسيم ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ أي لا يحب الله الفحش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء، قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً[1] ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة، قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى[2]. حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ الآية في اليهود والنصارى، لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره، فجعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفراً بالله تعالى ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ بالتفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم، وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض. قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله[3] ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان، ولا واسطة بينهما ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ أي صدقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد. فذكر تعالى سؤالهم له هو أفظع وأشنع تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالرسل فقال ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أي سألوا موسى رؤية الله - عز وجل - عياناً ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها. قال أبو السعود: وهذه المسألة - وهي

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٥٦. (٢) أبو السعود ١/٣٩٣. (٣) الطبري ٩/٣٤٤.

طلب رؤيته وإن صدرت من أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم[1] ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي عفونا عما ارتكبوه مع عظم جريمتهم وجنايتهم ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي حجة قاهرة تظهر صدقه وصحة نبوته. قال الطبري: «وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها»[2] ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رؤوسكم خضوعًا لله فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة استهزاءً ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهدًا وثيقًا مؤكدًا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعناهم وأذللناهم و﴿مَا﴾ لتأكيد المعنى ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قولهم للنبي ﷺ: قلوبنا مغشاة بأغشية لا تعي ما تقوله، قال تعالى ردًا عليهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي بل ختم الله تعالى عليها بسبب الكفر والضلال، فلا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ أي وبكفرهم بعيسى - عليه السلام - أيضًا ورميهم مريم بالزنا وقد فضلها الله على نساء العالمين ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله، وهذا إنما قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وإلا فهم يزعمون أن عيسى ابن زنا وأمه زانية ولا يعتقدون أنه رسول الله، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي وما قتلوا عيسى ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شبهه. قال البيضاوي: «روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأُخذ وصُلب وهم يظنون أنه عيسى»[3] ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا فقال بعضهم: هو عيسى، وقال بعضهم: ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصًا قد قتل واختلفوا من كان[4] ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي ما لهم بذلك علم حقيقي وإنما هم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حيًا بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[5] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه

---

(1) أبو السعود ١/٣٩٤.
(2) الطبري ٩/٣٦٠.
(3) البيضاوي ص ١٤١.
(4) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٣.
(5) منها ما رواه الشيخان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل

حكماً في صنعه ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه، قال ابن عباس: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، قيل له: أرأيت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين(١) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرمت عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله، قال مجاهد: صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي أمدح المقيمين الصلاة، فهو نصبٌ على المدح ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم، وهو الخلود في الجنة

البَلاغَة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿تُبْدُوا ... أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وبين ﴿نُؤْمِنُ ... وَنَكْفُرُ﴾.

٢- التعريض والتهكم في ﴿قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء، لأنهم لا يؤمنون برسالته

٣- زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي فبنقضهم.

٤- الاستعارة في ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه، وكذلك الاستعارة في ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة

٥- الاعتراض في ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة.

٦- الالتفات في ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأصل سيؤتيهم، وتنكير الأجر للتفخيم.

الخنزير ويضع الجزية ... الحديث وانظر كتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح للكشميري - تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة

(١) اختار الطبري أن الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود على عيسى، ويصبح المعنى: لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل آخر الزمان، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود والكشاف والجلالين

٧- المجاز المرسل في ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض، وكذلك في ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ؛ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما.

الفوائد- قال في التسهيل: إن قيل: كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء.

والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا: رسولُ الله عندكم أو بزعمكم.

والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم، فيوقف قبله، وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم: إنا قتلناه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردٌّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردٌّ على النصارى في قولهم: إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم: إنه إلهٌ أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب[1].

تنبيه: دلَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبثاء فلم يُقتل ولم يصلب، وإنما صلبوا شخصاً غيره ظنوه عيسى، وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل. وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرع وبكى مع زعمهم أنه هو «الله» أو «ابن الله» وأنه جاء ليخلّص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب، ولقد أحسن من قال:

عجبًا للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والدٍ نسبوه

أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه

فإذا كان ما يقولون حقًا ... وصحيحًا فأين كان أبوه؟

حين خلّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه؟

فلئن كان راضيًا بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم عذبوه

ولئن كان ساخطًا فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ ... إلى ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من آية (١٦٣) إلى نهاية آية (١٧٦) آخر السورة الكريمة.

المناسبة: لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من جملتها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣.

التفسير: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدّم نوحاً في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل... إلخ خصّهم تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح؛ لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم؛ لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وقدّم عيسى على أنبياء كثيرين تنبيهاً لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ أي وخصصنا داود بالزبور، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ من الأحكام، وإنما هي حِكَمٌ ومواعظ[1] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة؛ ولهذا سمّي الكليم، وإنما أكد ﴿تَكْلِيمًا﴾ رفعاً لاحتمال المجاز، قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً، فلما قال ﴿تَكْلِيمًا﴾ لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى[2]. ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع، وينذرون بالنار من عصى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول: لو أرسل إليّ رسولاً لآمنت وأطعت، فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه، ثم ذكر تعالى ردّاً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد ﷺ فقال: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك، وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله، قد ضلوا عن طريق الرشد ضلالاً بعيداً؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، فضلالهم في أقصى الغايات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال الزمخشري: أي جمعوا بين الكفر والمعاصي[3] ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة؛ لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من

---

(١) القرطبي ٦/١٧. (٢) البحر ٣/٣٩٨.

(٣) وقال الطبري: أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر.

الكفر والظلم مخلدين فيها أبداً ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعصيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي صدقوا بما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم، إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكيماً فيما دبره لهم. ولما رد تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرد على ضلالات النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ما عيسى إلا رسولٌ من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي وقد خلق بكلمته تعالى «كنْ» من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي ذو روح مبتدأة من الله، وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، نهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد، لأن الإله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون له ولد ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً، وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى بالله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين؛ لأنه مالك كل شيء، ثم رد تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيحشرهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عبادته فيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات

بين يدي السورة

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة، والنساء، والأنفال، إلى جانب موضوع العقيدة، وقصص أهل الكتاب، قال أبو ميسرة: «المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة»(١).

* نزلت هذه السورة منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية، لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي: الأحكام العقود، الذبائح، الصيد، الإحرام، نكاح الكتابيات، الردة، أحكام الطهارة، حد السرقة، حد البغي والإفساد في الأرض، أحكام الخمر والميسر، كفارة اليمين، قتل الصيد في الإحرام، الوصية عند الموت، البحيرة والسائبة، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله، إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية.

* وإلى جانب التشريع قص تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من «اليهود» حين قالوا لرسولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ وما حصل لهم من التشرد والضياع: إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة.

* ثم قصة ابني آدم وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر، ممثلة في قصة «قابيل وهابيل» حيث قتل قابيل أخاه هابيل، وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر. والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية: نموذج النفس الشريرة الأثيمة، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كما ذكرت السورة قصة «المائدة» التي كانت معجزة لعيسى ابن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين.

* وفي السورة الكريمة تعرض لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» في عقائدهم الزائفة، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين، ونقضوا العهود والمواثيق، وحرفوا التوراة

---

(١) القرطبي ٦/٣٠.

والإنجيل، وكفروا برسالة محمد - عليه السلام - إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدعى السيد المسيح عيسى ابن مريم على رؤوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله، تشيب لهوله الرؤوس، وتتفطر من فزعه النفوس!!

فضلها. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها»[1].

التسمية، سميت سورة «المائدة» لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجبُ ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.. إلى.. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠).

اللغة: «العقود» أصل العقد في اللغة: الربط تقول: عقدتُ الحبل بالحبل ثم استعير للمعاني قال الزمخشري: «العقد العهدُ الموثق شبه بعقد الحبل قال الحطيئة:

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم ... شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكَرَبا»[2]

﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإبهام، والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿الْقَلَائِدَ﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدي من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يكسبنكم يقال: جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شَنَآنُ﴾ الشنآن: البغض ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ الوقذ: ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النُّصُبِ﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده، وجمعه أنصاب كما في اللسان ﴿بِالْأَزْلَامِ﴾ القداح جمع زَلَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام[3]. ﴿مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة؛ لأن البطون فيها تُخمص أي تضمر، والخمص ضمور البطن ﴿الْجَوَارِحِ﴾ الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والصقر والشاهين.

سبب النزول. عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ..﴾[4] الآية.

---

(١) أخرجه أحمد.
(٢) الكشاف ١/ ٤٦٦.
(٣) البحر ٣/ ٤١٠.
(٤) الطبري ٩/ ٤٦٣.

الخنزير . . . إلخ ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أي أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يقضي في خلقه بما يشاء؛ لأنه الحكيم في أمره ونهيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي لا تستحلوا حرمات الله ولا تعتدوا حدوده. قال الحسن: «يعني شرائعه التي حدّها لعباده» وقال ابن عباس: «ما حرّم عليكم في حال الإحرام»[1] ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلّد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولا لأصحابه ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أبيح لكم الصيد ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي خافوا عقابه، فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ أي حُرّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة، وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير، قال الزمخشري: «كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات، البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فُزد - أي فُصد - له»[2] وإنما ذكر عليه لحم الخنزير ليبين أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزى ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تختنق بحبل وشبهه ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي أكل بعضه السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت. قال الطبري: «معناه إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهورًا»[3] ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي وما ذبح على الأحجار المنصوبة. قال قتادة: «النُّصُبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها، فنهى الله عن ذلك» قال الزمخشري: «كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي وحُرّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح. قال في الكشاف: «كان أحدهم إذا أراد سفرًا أو غزوًا أو تجارةً أو نكاحًا أو أمرًا من

---

(١) القول الأول أرجح، وهو اختيار الطبري لعموم الآية.

(٢) الكشاف ١/٤٦٨. (٣) الطبري ٩/٥٠٦.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات: يهوديات أو نصرانيات، وهذا رأي الجمهور. وقال عطاء: «قد أكثر الله المسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ» ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي إذا دفعتم لهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ولا متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرًا، قال الطبري: «المعنى ولا منفردًا ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها»[1] ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين.

ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما. قال الزمخشري: «وفائدة المجيء بالغاية ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ لدفع ظن من يحسبها ممسوحة؛ لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة، وفي الحديث «ويل للأعقاب من النار»[2] وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل، والآية صريحة؛ لأنها جاءت بالنصب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي إن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي أتى من مكان البراز ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي جامعتموهن ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضحت السنة النبوية ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقًا عليكم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الخطاب للمؤمنين والنعمة هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة أي اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) الطبري ٩/٥٩٠.
(٢) الكشاف ١/٤٧١.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله، وصيغة قوّام للمبالغة ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها. قال الزمخشري: «وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟»(١) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعد الله المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب. قال أبو حيان: «وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو دليل على الوقوع، وفي الكافرين جاءت الجملة اسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم، وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم»(٢).

البلاغة:

١- ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فيه استعارة، استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبّد الله بها العباد من الحلال والحرام.

٢- ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام، لأنها أشرف الهدي كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾.

٣- ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٤- ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أطلق العام وأراد به الخاص، وهو الذبائح.

٥- ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ بينهما طباق، لأن معنى محصنين أي أعفاء، ومسافحين أي زناة.

٦- ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبب مقام السبب للملابسة بينهما(٣)، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون.

الفوائد:

الأولى: يحكى أن أصحاب الكندي -الفيلسوف- قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا

---

(١) الكشاف ١/٤٧١ (٢) البحر ٣/٤٤٧

(٣) أفاده الزمخشري في الكشاف ١/٤٧٢.

ويطيق هذا أحد، إني فتحتُ المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناءً بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في مجلدات[1].

الثانية: جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله:

وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت ... غويتُ وإن ترشد غزيّة أرشدِ

وجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وشتان بين المبدأين.

الثالثة: روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين: آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية تعني؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. إلى .. فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ من آية (11) إلى نهاية آية (26).

المناسبة: لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، ذكّرهم بنعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب "اليهود والنصارى" بأخذ العهد والميثاق عليهم، ولكنهم نقضوا العهد فاستحقوا العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين، ونبذ ما هم عليه من ضلالات وأوهام.

اللغة: ﴿نَقِيبًا﴾ النقيب: كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم، فهو كالكفيل على الجماعة ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ التعزير: التعظيم والتوقير ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قَاسِيَةً﴾ صلبة لا تعي خيراً، والقسوة والقساوة بمعنى واحد ﴿خَائِنَةٍ﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للمحذوف كما يقال: رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ هيّجنا وألزمنا مأخوذ من الغراء، وغري بالشيء إذا لصق به ﴿فَتْرَةٍ﴾ انقطاع ﴿يَتِيهُونَ﴾ التيه: الحيرة والضياع.

سبب النزول: أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا

---

(1) القرطبي ٦/٣٣. (2) أخرجه الشيخان.

والإهلاك ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم. ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيبًا - والنقيب كبير القوم القائم بأمورهم - من كل سبط نقيبٌ يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقةً عليهم. قال الزمخشري: «لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء بأرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم: إني كتبتها لكم دارًا وقرارًا فجاهدوا من فيها وإني ناصركم، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيبًا يختار النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار فرأوا قومًا أجسامهم عظيمة ولهم قوةٌ وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم، وكان موسى قد نهاهم أن يحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا اثنين منهم»[1] ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أديتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وآمنتم برسلي وعزرتموهم﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وأقرضتم الله قرضًا حسنًا﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ أي لأمحون عنكم ذنوبكم، وهذا جواب القسم. قال البيضاوي: «وقد سدَّ مسد جواب الشرط»[2] ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق، فقد أخطأ الطريق السوي وضل ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان[3] ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ قال ابن كثير: «تأولوا كتابه - التوراة - على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده، وقالوا على الله ما لم يقل»[4]، ولا جرم أعظم من الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل ﴿ونسوا حظًا مما ذكروا به﴾ أي تركوا نصيبًا وافيًا مما أمروا به في التوراة ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانة منهم بنقض العهود وتدبير المكايد، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ أي

---

(١) الكشاف ١/٤٧٨.

(٢) البيضاوي ص ١٤٧، قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

(٣) هذا قول ابن عباس كما في البحر. (٤) مختصر ابن كثير ١/٤٩٧.

﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد كذبتم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعًا؟ فعيسى عبد مقهور قابلٌ للفناء كسائر المخلوقات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهًا لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد، ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء. ثم حكى عن اليهود والنصارى اغترارهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه، قال ابن كثير: أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا[1] ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعدّ لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم؟ ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا رادّ لأمره ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودروس من الدين، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد - ومدتها خمسمائة وستون سنة - لم يبعث فيها رسول ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل: يا قوم تذكروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه، قال البيضاوي: لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء[2] ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ونحوها ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال البيضاوي: هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين[3] ومعنى ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ

---

(١) مختصر ابن كثير ٤٩٦/١. (٢) البيضاوي ص ١٤٨
(٣) البيضاوي ص ١٤٨

فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة. قال في التسهيل: «روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهموا أن يرجعوا إلى مصر»[١] ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي لن ندخلها حتى يسلموها لنا من غير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي فلما جبنوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ أي قالا لهم: لا يهولنكم عظم أجسامهم، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذا إفراط في العصيان مع سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ: «لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»[٢]! ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي قال موسى حينئذٍ معتذراً إلى الله متبرئاً من مقالة السفهاء: يارب لا أملك قومي، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة، والمعنى قال الله لموسى: إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون للعقاب. قال في التسهيل: «روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه»[٣].

البلاغة:

١ - ﴿أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس.

٢ - ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر «وبعث» وإنما التفت اعتناء بشأنه.

٣ - ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فيه استعارة، استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان.

٤ - ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالملوك في رفاهية العيش وراحة البال، حذف أداة

---

(١) التسهيل ١/١٦٩. (٢) التسهيل ١/١٧٤.

الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٥- الطباق بين ﴿يُحْيِي﴾ .. ﴿وَيُمِيتُ﴾.

٦- ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين.

الفوائد:

الأولى: إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها، تشرفت وطهرت بهم، فالظرف طاب بالمظروف.

الثانية: قال بعض العارفين لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ولم يرد عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه، ذكره ابن كثير

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ..﴾ إلى .. ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٤٠).

المناسبة: لما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرمها الله، فاليهود اقتفوا في العصيان أول عاصٍ لله في الأرض، فطبيعة الشر فيهم مستقاة من ولد آدم الأول، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق والسُّرّاق والخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض.

اللغة: ﴿قُرْبَانًا﴾ القربان ما يُتقرب به إلى الله ﴿تَبُوءَ﴾ ترجع يقال: باء إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ سوّلت وسهّلت يقال: طاع الشيء إذا سهل وانقاد، وطوّعه له أي سهّله ﴿يَبْحَثُ﴾ ينبش وينقب ﴿سَوْأَةَ﴾ السوأة: العورة ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ كلمة تحسر وتلهف، قال سيبويه: «كلمة تقال عند الهلكة» ﴿يُنْفَوْا﴾ نفاه: طرده، وأصله الإهلاك، ومنه النفاية لرديء المتاع ﴿خِزْيٌ﴾ الخزي: الفضيحة والذل يقال: أخزاه الله أي فضحه وأذله ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ كل ما يتوسل به إلى الله ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة.

سبب النزول: عن أنس أن رهطاً من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة - استوخموها - فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحّوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴾[1] الآية.

---

(١) القرطبي ٦/١٤٨.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۞ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۞ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۞ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

التفسير: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر قابيل وهابيل ابني آدم ملتبسةً بالحق والصدق، وذكّرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أي حين قرَّب كل منهما قرباناً فتُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل، قال المفسرون: وسبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، فلما أراد آدم أن يزوج قابيل أخت هابيل ويزوج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل، لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً فمن أيكما تُقُبِّل تزوجها، وكان قابيل صاحب زرع فقرَّب أرذل زرعه، وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب أحسن كبش عنده، فقُبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعده بالقتل (١) ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي قال قابيل لأخيه هابيل: لأقتلنك، قال: لِمَ؟ قال: لأنه تُقبل قربانك ولم يُتقبل قرباني، قال: وما ذنبي؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي إنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته، قال الزمخشري: توعده بالقتل لفرط الحسد

---

(١) الكشاف ١/٤٥٤، والقرطبي ٦/١٣٤.

﴿وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾ لأن الرجل على السرقة أجرأ، والزنا من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كلٍّ منهما المقام.

الثالثة: قال الأصمعي: قرأتُ يومًا هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سهوًا، فقال الأعرابي: كلامُ من هذا؟ قلت: كلام الله قال: ليس هذا بكلام الله أعِدْ فأعدت وتنبهتُ فقلت: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: نعم هذا كلام الله فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمتَ أني أخطأت؟ فقال يا هذا: عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[1].

الرابعة: اعترض بعض الملحدين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعرًا فقال:

يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ وُديت ... ما بالُها قُطعت في ربع دينار؟
تحكّمٌ ما لنا إلا السكوتُ له ... وأن نعوذَ بمولانا من النار

فأجابه بعض العلماء بقوله:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصَها ... ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

أي لمّا كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، ويا له من قول سديد.

كلمة وجيزة حول قطع يد السارق

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر، ويقولون: يكفي في عقوبته السجن ردعًا له، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطق سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون مكتظة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهددون الأمن والاستقرار، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئًا اللهم إلا ذلك السجن الذي يُطعم ويُكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يومًا بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة. أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره، ويدٌ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم!!

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ .. إلى .. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٥٠).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٢/٣٥٤.

أحكام الحرابة والسرقة، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في مسارعتهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم، وينجيه من مكرهم، ثم ذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة.

اللغة: ﴿يَحْزُنكَ﴾: الحَزَن والحُزْن خلاف السرور ﴿السُّحْتِ﴾: الحرام سمي بذلك لأنه يسحتُ الطاعات أي يذهبها ويستأصلها، وأصل السحت: الهلاك، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي يستأصلكم ويهلككم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ جمع حَبْر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أتبعنا ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ المهيمن: الرقيب على الشيء، المحافظ له، من هيمن عليه أي راقبه، ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء[1] ﴿شِرْعَةً﴾ الشِّرعة: السُّنَّة والطريقة يقال شرع لهم أي سنَّ لهم ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ المنهج: الطريق الواضح.

سبب النزول: عن البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّمًا مجلودًا فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[2].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ

---

(١) القرطبي ٦/١٨٠ (٢) رواه مسلم

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين الذين لم يجاوز الإيمان أفواههم يقولون بألسنتهم: آمنا وقلوبهم كافرة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبرًا وإفراطًا في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يزيلونه ويميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها، والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى، قال ابن عباس: هي حدود الله في التوراة غيّروا الرجم بالجلد والتحميم - يعني تسويد الوجه - ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي ومن يرد الله كفره وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أي لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي ذلٌّ وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو الخلود في نار جهنم، قال أبو حيان: والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفًا عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعًا لرجائه من فلاحهم[1] ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي الباطل كرره تأكيدًا وتفخيمًا ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي الحرام من الرشوة وما شابه ذلك ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخيّر بين أن تحكم بينهم وبين أن تُعرض عنهم، قال ابن كثير: أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا

(1) البحر ٣/٤٨٨.

تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم[1] ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل؛ لأن الله يحب العادلين. ثم قال تعالى منكرًا عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ أي كيف يحكّمونك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك، وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به؟ قال الرازي: "هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكمًا حقًا إلى ما يعتقدونه باطلاً طلبًا للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم"[2] ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم لا يؤمنون بكتابهم التوراة لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه، قال في التسهيل: "وهذا إلزام لهم؛ لأن من خالف كتاب الله وبدله فدعواه الإيمان باطلة"[3]. ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود ولا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي رقباء لئلا يبدل ويغير ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والرضى من الناس ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائنًا من كان فقد كفر، وقال الزمخشري: "ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينًا به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها"[4] قال أبو حيان: "والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم"[5] وكل آية وردت في الكفار تجر بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة أن النفس تقتل بالنفس ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ أي تفقأ بالعين إذا فقئت بدون حق

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥١٩.
(2) التفسير الرازي ١١/٢٣٦.
(3) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٧٨.
(4) الكشاف ١/٤٩٦.
(5) البحر ٣/٤٩٣.

﴿وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ﴾ أي يجدع بالأنف إذا قطع ظلماً ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ أي تقطع بالأذن ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ أي يقلع بالسن ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي يقتص من جانيها بأن يفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه، وهذا في الجراح التي يمكن فيها المماثلة ولا يخاف على النفس منها ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال ابن عباس: «أي فمن عفا عن الجاني وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب»[1] وقال الطبري: «من تصدق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمتصدق ويكفر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه»[2] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين بعيسى ابن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدقاً لما تقدمه من التوراة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي معترفاً بأنها من عند الله والتكرير لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي مصدقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب. قال الزمخشري: «أي رقيباً على سائر الكتب، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات»[3] قال ابن كثير: اسم المهيمن يتضمن ذلك، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره[4] ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عما جاءك في هذا القرآن، قال ابن كثير: «أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء»[5] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيّناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة، قال أبو حيان: «لليهود شرعة ومنهاج وللنصارى كذلك، والمراد في الأحكام، وأما المعتقد فواحد لجميع الناس توحيد وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء»[6] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يعرضون؟ فخالف بين الشرائع ليظهر

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٢٢.
(٢) الطبري ١٠/٣٦٩.
(٣) الكشاف ١/٤٩٧.
(٤) مختصر ابن كثير ١/٥٢٤.
(٥) ابن كثير المختصر ١/٥٢٤.
(٦) البحر ٣/٥٠٢.

المضي في المعاصي ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي احكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتبع أهواءهم الزائفة ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه، وأصدق في بيانه، وأحكم في تشريعه لقوم يصدقون بالعلي الحكيم؟!

البلاغة

١- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم.

٢- ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه، وإنما ينتقلون بالمسارعة من بعض فنونه إلى بعض آخر.

٣- ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ صيغة فعّال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب.

٤- ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لزيادة التقرير والتأكيد، وبين كلمتي الدنيا والآخرة طباق.

٥- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ تعجيب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه.

٦- ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة.

٧- ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات، والأصل فلا يخشوا[1].

٨- ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا فعل الخيرات، وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل، إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة[2].

الفوائد: قال الفخر الرازي: خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم[3].

---

(١) أبو السعود ٢/٣٧ (٢) تلخيص البيان ص ٣١
(٣) الفخر الرازي ١١/٢٣٠

تنبيه: يقول شهيد الإسلام «سيد قطب» طيّب الله ثراه في تفسير الظلال ما نصه: «إن الجاهلية في ضوء هذا النص القرآني البليغ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ هي حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر، ورفض ألوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غير الله، إنه مفرق الطريق فإما حكم الله، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل، إما أن تنفذ شريعة الله في حياة الناس أو ينفذ حكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغير الله، والجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع يوجد بالأمس واليوم وغداً، والناس إما أنهم يحكمون شريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً فهم إذاً مسلمون، وإما أنهم يحكمون شريعة من صنع البشر فهم في جاهلية وهم خارجون عن شريعة الله»[1].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ... إلى ... وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ من آية (٥١) إلى نهاية آية (٦٦).

المناسبة: لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل، وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق، حذّر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال.

اللغة: ﴿دَائِرَةٌ﴾ واحدة الدوائر، وهي صروف الدهر ونوازله قال الراجز:

تردُّ عنك القَدَر المقدورا ... ودائراتِ الدهرِ أن تدورا

﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت ﴿تَنْقِمُونَ﴾ تنكرون وتعيبون ﴿السُّحْتَ﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة، والغُلّ القيد يوضع في اليد، وهو كناية عن البخل، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أَطْفَأَهَا﴾ الإطفاء: الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي معتدلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال.

سبب النزول:

أ- عن ابن عباس قال: كان «رفاعة بن زيد» و«سويد بن الحارث» قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ...﴾[2] الآية.

ب- عن ابن عباس قال: جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: «أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل» إلى قوله: «ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ...﴾[3] الآية.

---

(١) ظلال القرآن ٦/١٦٣ بإيجاز.
(٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٤٤.
(٣) الطبري ١٠/٤٠٤.
(٤) القرطبي ٦/٢٣٣ ومجمع البيان ٣/٢١٤.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٥١) فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين (٥٢) ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (٥٣) يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٤) إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (٥٥) ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون (٥٦) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٥٧) وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (٥٨) قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٥٩) قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (٦٠) وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦١) وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون (٦٢) لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون (٦٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤) ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾.

التفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين[1] ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال، وملة الكفر واحدة ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم. قال الزمخشري: وهذا تغليظ من الله وتشديدٌ في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ «لا تراءى ناراهما»[2] ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أبيّ وأصحابه يسارعون في موالاتهم ومعاونتهم ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد، قال تعالى ردًّا على مزاعمهم الفاسدة ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾

(١) البحر ٣/٥٠٧. (٢) الكشاف ١/٤٩٩.

يعني فتح مكة [١] وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي يهلكهم بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسببٌ لمخلوق كإلقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يقول المؤمنون تعجبًا من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد، والمعنى: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدّله بدين آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر [٢] ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناسٍ مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين، قال ابن كثير: «وهذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه متعززًا على عدوه» [٣] كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لين الجانب متواضعًا لإخوانه المؤمنين متسربلًا بالعزة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم، فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحدًا ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الإفضال والإحسان، عليمٌ بمن يستحق ذلك، ثم لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عز وجل، قال في التسهيل: ذكر تعالى الولي بلفظ المفرد إفرادًا لله تعالى بها، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قال: «إنما

---

(١) هذا قول السدي، وقال ابن عباس: هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بالتسلط عليهم.

(٢) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين، فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر، وقد ارتد بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك! فأجابه عليه السلام: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

(٣) مختصر ابن كثير ١/٥٢٨

أولياءكم لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع"[1] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي من يتولَّ الله ورسوله والمؤمنين فإنه من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزؤون ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم توادّونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه، بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقًا، ثم بيّن تعالى جانبًا من استهزائهم فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم، قال في البحر: "حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا: ابتدعتَ شيئًا لم يكن للأنبياء، فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت؟! فأنزل الله هذه الآية"[2] نبّه تعالى على أنّ من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتّخذ وليًا بل يُهجر ويُطرد، وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين، وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ أي قل يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله، قال ابن كثير: "أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعًا"[3] ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي هل أخبركم بما هو شرٌّ من هذا الذي تعيبونه علينا؟ ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي ثوابًا وجزاءً ثابتًا عند الله، قال في التسهيل: "وضع الثواب موضع العقاب تهكمًا بهم نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"[4] ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي سخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي ومسخ بعضهم قردة وخنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرٌّ مكانًا في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم، قال ابن كثير: "والمعنى يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا

---

(١) التسهيل ١/ ١٨١.

(٢) البحر ٣/ ٥١٥ وقال أبو السعود عند هذه الآية: روي أن نصرانيًا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله يقول: أحرق الله الكاذب! فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيامٌ فتطايرت منه شرارةٌ في البيت فأحرقته وأهله جميعًا. أبو السعود ٢/ ٤٠.

(٣) مختصر ابن كثير ١/ ٥٣٠.

(٤) التسهيل ١/ ١٨٢.

الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه؟ كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر [1]؟ قال القرطبي: «ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رؤوسهم افتضاحاً» وفيهم يقول الشاعر:

فلعنة الله على اليهود ... إن اليهود إخوة القرود [2]

﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمنا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا مما سمعوا منك يا محمد من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديد لهم ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وأكلهم السحت﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ أي هلا يزجرهم علماؤهم وأحبارهم ﴿عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله، قال ابن عباس: «ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية» يعني على العلماء، وقال أبو حيان: «تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعُبّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله» وأنشد ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها [3]

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي قال اليهود اللعناء: إن الله بخيلٌ يقتّر الرزق على العباد، قال ابن عباس: «مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون: إنه بخيل» [4] ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿ولعنوا بما قالوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء، قال أبو السعود: وتضييق الرزق ليس لقصور في فيضه بل لأن إنفاقه تابعٌ لمشيئته المبنية على الحِكَم، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيّق عليهم [5] ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً. قال الطبري: أعلم تعالى نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلّي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه [6] ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم

---

(١) ابن كثير ٢/٥٣٦.
(٢) القرطبي ٦/٢٣٦
(٣) البحر المحيط ٣/٥٢٢.
(٤) الطبري ١٠/٤٥٢
(٥) أبو السعود ٢/٤٣.
(٦) الطبري ١٠/٤٥٧.

شيء لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا إشعال حرب على رسول الله ﷺ أطفأها الله ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين، قال ابن كثير: أي من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته(١) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنات النعيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أنزل إليهم في هذا الكتاب المجيد الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي لوسع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال.

البلاغة:

١ - ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بين لفظ ﴿أَعِزَّةٍ﴾ و﴿أَذِلَّةٍ﴾ طباق، وهو من المحسنات البديعية، وكذلك بين لفظ ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ .. ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾

٢ - ﴿لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ في تنكير (لومة) و(لائم) مبالغة لا تخفى: لأن اللومة المرة من اللوم.

٣ - ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا على سبيل التهييج.

٤ - ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجبًا للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس.

٥ - ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة.

٦ - ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ نسبة الشر للمكان وهو في الحقيقة لأهله، وذلك مبالغة في الذم.

٧ - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ غل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود.

٨ - ﴿أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة، لأن الحرب لا نار لها وإنما شبهت بالنار، لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها.

٩ - ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ استعارة أيضًا عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال: عمه الرزق من فرقه إلى قدمه.

الفوائد: الأولى: روي أن عمر علم أن كاتبًا نصرانيًا قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٣٢.

من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية[1].

ب- وعن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تقر أن التوراة حق من عند الله؟ قال: بلى، فقالوا: فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فأنزل الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ الآية[2].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا نداء تشريف وتعظيم ناداه تعالى بأشرف الأوصاف، بالرسالة الربانية أي بلّغ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قال ابن عباس: المعنى بلّغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمت شيئاً منه فما بلّغت رسالته[3] وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء، قال الزمخشري: عدة

(١) أسباب النزول ص ١١٦. (٢) القرطبي ٦/٢٤٦.
(٣) القرطبي ٦/٢٤٢.

وعدًا من الله بالحفظ والكلاءة والحماية. والله يعصمك لك أعصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: "انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل"[١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قضى له بالكفر لا يهتدي أبدًا ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل، ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني القرآن العظيم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلوًّا في التكذيب وجحودًا لنبوتك[٢] وإصرارًا على الكفر والضلال ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم، وهذه تسلية للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن[٣] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ وهم أتباع عيسى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي من آمن من هؤلاء المذكورين إيمانًا صحيحًا خالصًا لا يشوبه ارتياب بالله وباليوم الآخر وعمل صالحًا يقربه من الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله[٤]. قال ابن كثير: والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحًا - ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين - فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم[٥] ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله قال في البحر: هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنشنة من أسلافهم[٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي كذبوا طائفة من الرسل وقتلوا طائفة أخرى منهم، قال الزمخشري: وإنما جيء بـ﴿يَقْتُلُونَ﴾ موضع قتلوا على حكاية الحال

---

(١) الكشاف ١/٤٦٦.
(٢) القرطبي ٦/٢٤٥.
(٣) مختصر ابن كثير ١/٥٣٤.
(٤) الطبري ١٠/٤٧٤.
(٥) الطبري ١٠/٤٧٦.
(٦) البحر ٣/٥٣٠.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا، قال البيضاوي: وفي هذا الاستفهام ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تعجيب من إصرارهم على الكفر ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما المسيح إلا رسول كالرسل الخالية الذين تقدموه خصه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهارًا لصدقه كما خص بعض الرسل، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى، وجعلت حية تسعى وهو أعجب، وإن خُلق من غير أب فقد خُلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب، وكل ذلك من جناب عز وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي مبالغة في الصدق ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركب من عظم ولحم وعروق وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بد أن يكون في حاجة إلى إخراجه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد، أو كيف يُتوهم أنه إله ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ تعجيب من حال الذين يدعون ألوهيته هو وأمه أي انظر كيف نوضح لهم الآيات ظاهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضر؟[1] ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضر أو جلب نفع ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتُفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى: إنه إله أو ابن إله، قال القرطبي: وغلو اليهود قولهم في عيسى: إنه ليس ولد رِشْدة - أي هو ابن زنا - وغلو النصارى قولهم: إنه إله[2] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أضلوا كثيرًا من الخلق بإغوائهم لهم ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال القرطبي: وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى[3] ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله عز وجل في

---

(١) قال في البحر: لما بين تعالى بالدليل النقلي والعقلي انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران، أنكر عليهم ووبخهم من وجه آخر وهو عجز عيسى عن دفع ضرر وجلب نفع، وأن من كان لا يدفع عن نفسه حري أن لا يدفع عنكم. البحر ٣/٥٣٨.

(٢) القرطبي ٦/٢٥٢.

(٣) القرطبي ٦/٢٥٣.

الزبور والإنجيل، قال ابن عباس: لُعنوا بكل لسان، لُعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن[1] قال المفسرون: إن اليهود لما اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمسخوا خنازير ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم، ثم بيَّن تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضًا عن قبيح ما فعلوه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي بئس شيئًا فعلوه قال الزمخشري: تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب[2] وقال في البحر: وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر، والتجاهر به، وعدم النهي عنه والمعصية إذا فُعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث (من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فُعلت جهرًا وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضًا على فعلها وسببًا مثيرًا لإفشائها وكثرتها[3] ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ترى كثيرًا من اليهود يوالون المشركين بغضًا لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد (كعب بن الأشرف) وأصحابه ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدموه لأنه أوجب لهم سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وفي نار جهنم مخلدون أبد الآبدين ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدقون بالله ونبيهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عز وجل.

البلاغة

١ - ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه[4].

٢ - ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفًا معهم في الدعوة.

٣ - ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لم يقل عليهم وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر.

٤ - ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿كَذَّبُوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها الفظيعة ومراعاة لرؤوس الآيات.

٥ - ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر

(١) البحر ٣/٥٣٩ (٢) الكشاف ١/٤٩٩

(٣) البحر ٣/٥٤٠ (٤) أبو السعود ٢/٦٩

وتربية النهاية.

٦- الاستعارة ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان.

٧- ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ، ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ قال أبو السعود: تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ ﴿ثُمَّ﴾ لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمر بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجب وأبدع[1].

٨- ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد مع القسم.

الفوائد: قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بولي من الأولياء هل يملك لهم نفعاً أو ضراً؟!

تنبيه: قال ابن كثير: دلت الآية ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ على أن مريم ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة (سارة) ونبوة (أم موسى) استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ وحكى الأشعري الإجماع على ذلك[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ .. إلى .. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ من آية (٨٢) إلى نهاية آية (٩٦)

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال، ذكر هنا أن اليهود في غاية العداوة للمسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم، ثم لما استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين، وتحريم الخمر والميسر، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام.

اللغة: ﴿قِسِّيسِينَ﴾ القس والقسيس اسم لرئيس النصارى، ومعناه العالم ﴿وَرُهْبَانًا﴾ جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة، والرهبانية والترهب: التعبد في الصومعة[3]. ﴿تَفِيضُ﴾ الفيض أن يمتلئ الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال: فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر:

ففاضت دموع العين مني صبابة ... على النحر حتى بل دمعي محملي

﴿رِجْسٌ﴾ قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل، ويقال للعذرة والأقذار: رجس، لأنها قذرة ونجاسة ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصَّيْدِ﴾ كل ما يصطاد من حيوان وطير وغيره، فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر:

صيدُ الملوك أرانبٌ وثعالبٌ ... وإذا ركبتُ فصيديَ الأبطالُ

(١) أبو السعود ٢/ ٥٠ (٢) ابن كثير ١/ ٥٣٧

(٣) القرطبي ٦/ ٢٥٨.

إلى الحرام ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط؛ ولهذا قال ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله، قال في التسهيل: أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك، وإنما خص الأكل بالذكر؛ لأنه أعظم حاجات الإنسان[1] ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنه يقول: لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم: لا والله، وبلى والله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم، قال ابن عباس: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم، وقال ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزبيب، وخير ما نطعم أهلينا الخبز واللحم[2] ﴿أو كسوتهم﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوب يستر البدن ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله، قال في البحر: وأجمع العلماء على أن الحانث مخير بين الإطعام والكسوة والعتق[3] ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام[4] ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة، قال ابن عباس: أي لا تحلفوا، وقال ابن جرير: أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ قال ابن عباس: الخمر جميع الأشربة التي تسكر، والميسر القمار كانوا يتقامرون به في الجاهلية ﴿والأنصاب والأزلام﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخدام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، والأزلام: قداح كانوا يستقسمون بها[5] ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ أي قذر ونجس تعافه العقول، وخبيث مستقذر من تزيين الشيطان ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار

---

(١) التسهيل ص١٨٦. (٢) ابن كثير ٢/٥٤٣.
(٣) البحر ٤/١١.
(٤) شرط الأحناف والحنابلة التتابع في الأيام، وقال الشافعي ومالك: لا يجب التتابع، واختار الطبري أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه. كذا في الطبري ١٠/٥٦٢.
(٥) البحر المحيط ٤/١٤.

وتتلذذ بفتاتها وإلهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة(١) ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن تعرض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذاب مؤلم موجع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يحكم بالمثل حكمان عدلان من المسلمين ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي حال كونه هديًا يُنحر ويُتصدق به على مساكين الحرم، فإن لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم فيقوّم الصيد المقتول ثم يشتري به طعام فيصرف لكل مسكين مدّ منه ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صيامًا يصومه عن كل مد يومًا ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، قال في التسهيل: عدّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير، وهو الذي يقتضيه العطف بأو، وعن ابن عباس أنها على الترتيب(٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي غالب على أمره منتقم ممن عصاه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي أحل لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي وما يُطعم من صيده كالسمك وغيره منفعة وقوتًا لكم وزادًا للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي وحرم عليكم صيد البر ما دمتم محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خافوا الله الذي تحشرون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد.

البلاغة

١- بين لفظ ﴿أُحِلَّ﴾ و﴿حُرِّمَ﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢- ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها(٣)

٣- ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان.

٤- ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي انتهوا، وهو من أبلغ ما ينهى به، قال أبو السعود: ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد، حيث صدّرت الجملة بإنما وقرنا بالأصنام والأزلام، وسميا رجسًا من عمل الشيطان، وأمر بالاجتناب عن عينهما

---

(١) البحر ٤/١٦ (٢) التسهيل ١/١٨٩

(٣) انظر حاشية الكشاف ١/٤٢٠

وجعل ذلك سبباً للفلاح، ثم ذكر ما فيه من المفاسد الدنيوية والدينية ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فهل أنتم منتهون﴾ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى(١).

فائدة: التعبير بقوله تعالى: ﴿فاجتنبوه﴾ نص في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ التحريم، لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا.

تنبيه: لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإيجاز، أما هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصد عن سبيل الله وذكره وشغل المؤمنين عن الصلاة، ووصف الخمر والميسر بأنهما رجس وأنهما من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر عظيمين ناشئين عن القمار والخمر فتدبر أسرار القرآن العظيم(٢).

* * *

قال الله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ... إلى قوله ... والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١٠٨).

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس، وذكر في تحريمهم لطيفة بديعة لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة.

اللغة: ﴿بحيرة﴾ من البحر وهو الشق، قال أبو عبيدة: وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر شقوا أذنها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحلب(٣) ﴿سائبة﴾ البعير يسيّب بنذر ونحوه ﴿وصيلة﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأنثى قالوا قد وصلت أخاها فلم تذبح(٤) ﴿حام﴾ الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء ﴿عثر﴾ ظهر يقال: عثرت منه على خيانة أي اطلعت وظهرت ﴿الأوليان﴾ تثنية أولى بمعنى أحق.

سبب النزول

عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون النبي ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ..﴾ الآية(٥).

---

(١) أبي السعود ٢/٥٠.
(٢) روائع البيان ١/٥٤٦.
(٣) القرطبي [illegible].
(٤) غريب القرآن ص١٤٧.
(٥) أسباب النزول ص١٤٠.

والأرض ويعلم مصالحكم فلذلك جعل الحرم آمنًا يسكن فيه كل شيء، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب فلا تُيئسكم نقمته ولا تطمعنكم رحمته ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة وتبليغ الشريعة وقد بلّغ ما وجب عليه فلا عذر لأحد في التفريط ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان: الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطلع على حال العبد ظاهرًا وباطنًا فهو مجازيه على ذلك ثوابًا أو عقابًا[1] ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث وهو مثل ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام، والمطيع والعاصي، والرديء، والجيد، قال القرطبي: اللفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب، والأعمال والناس، والمعارف من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطيب - وإن قل - نافع جميل العاقبة[2] وقال أبو حيان: الظاهر أن الخبيث والطيب عامان فيندرج تحتهما المال وحرامه، وصالح العمل وفاسده، وجيد الناس ورديئهم، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[3]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم، قال الزمخشري: أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها[4] ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسوؤكم فلا تسألوا عنها[5] ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان، ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قوم قبلكم فلما أعطوها وفرضت عليهم كفروا بها، ولهذا قال ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾

---

(١) البحر ٤/٢٧. (٢) القرطبي ٦/٣٦٧

(٣) البحر ٤/٢٧ (٤) الكشاف ١/٥٢٢.

(٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال: أين أبي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتليتم بأمر فحينئذٍ إن سألتم عن بيانه بيّن لكم وأبدي، نقلاً عن البحر المحيط ٤/٣١

أي صيروا بتركهم العمل بها كافرين، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها وهي البحيرة، وكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فهي الوصيلة، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحامي، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولكن الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه، فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء، لأنهم يقلدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المفترين هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما أحللتم وحرمتم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي يكفينا دين آبائنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من ضلال ولو كانوا لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري: كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم: عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(١) وقال أبو السعود: ولا يتوهمن أحد أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من جملة الاهتداء أن ينكر، وقد روي أن الصديق قال يوماً على المنبر: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه(٢) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال البيضاوي: هذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت وظهرت علامته فينبغي أن يُشهد على وصيته ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي يشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنين من غير

---

(١) الكشاف ١/ ٥٢٤ .

(٢) أبو السعود ٢/ ٦٥ وبقية الحديث «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك» أخرجه الحاكم .

المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عديًا وتميمًا بعد العصر عند المنبر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال أبو السعود: أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلِّفوهما بالله[1] ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي يحلفان بالله قائلين: لا نحابي بشهادتنا أحدًا ولا نستبدل بالقسم بالله عرضًا من الدنيا، أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نقسم له قريبًا لنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي فإن اطُّلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته.

البلاغة:

١ - ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ عطف القلائد على الهدي من عطف الخاص على العام، وخُصّت بالذكر؛ لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر.

٢ - ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة.

٣ - ﴿الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ بينهما طباق، وبين ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ جملة خبرية لفظًا إنشائية معنى والمراد منها الأمر أي ليشهد بينكم.

الفوائد: قال الإمام الشاطبي: الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة:

أولها: السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم: من أبي؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج: أكل عام؟

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في الوقت، ويدل عليه «ذروني ما تركتكم»؟

---

(١) أبو السعود ٢/٦٦.

جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾.

التفسير: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ أي اذكر يا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم؟ وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك، قال ابن عباس: أي لا علم لنا إلا علمًا أنت أعلم به منا[1] ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم ما لا نعلم مما ظهر وبطن، قال أبو السعود: وفيه إظهار للشكوى وردّ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم في الانتقام منهم[2] ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ قال ابن كثير: يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية قاطعة على كمال قدرتي، وعلى والدتك حيث جعلتك برهانًا على براءتها مما نسبها إليه الظالمون من الفاحشة[3]، وقال القرطبي: هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال: اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا[4] وذكر بلفظ الماضي ﴿إِذْ قَالَ﴾ تقريبًا للقيامة؛ لأن ما هو آتٍ قريب ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي حين قويتك بالروح الطاهرة المقدسة جبريل عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تكلم الناس في المهد صبيًا وفي الكهولة نبيًا ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ

---

(١) القرطبي ٦/٣٦١ وقال ابن كثير: وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، وأنت المطلع على كل شيء، فعلمنا كلا شيء بالنسبة لعلمك المحيط.

(٢) أبو السعود ٢/٧٠ (٣) ابن كثير ٢/٥٦١

(٤) القرطبي ٦/٣٦٢.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتاب والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي واذكر أيضًا حين كنت تصور الطين كصورة الطير بتيسيري وأمري ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيرًا بأمر الله ومشيئته ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي تحيي الموتى بأمري ومشيئتي، وكرر لفظ ﴿بِإِذْنِى﴾ مع كل معجزة ردًّا على من نسب الربوبية إلى عيسى، ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي واذكر حين منعت اليهود من قتلك لما همّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحر ظاهر واضح ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وهذا أيضًا من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدقوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي قال الحواريون صدقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي واذكر حين قال الحواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا؟ قال القرطبي: وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل، ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[1] وقال أبو حيان: وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء وهذا إلى ما ذهب إليه الزمخشري[2] وأما غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكوا في ذلك حتى قال الحسن: لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ فإن كان ينزل فاسأله لنا[3] فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي قال الحواريون نريد بسؤال المائدة أن نأكل منها تبركًا وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي ونعلم علمًا يقينًا لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ

---

(١) القرطبي ٦/ ٣٦٤.

(٢) قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قالوا: هل يستطيع ربك، بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وأنهم شاكون وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم! الكشاف ١/ ٥٢٠.

(٣) البحر ٤/ ٥٢.

مَّائِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة، رُوي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي، قال أبو السعود: نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهارًا لغاية التضرع[1] ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق؛ لأنك الغني الحميد ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال: إني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من كفر بعد هذه الآية الباهرة فسوف أعذبه عذابًا شديدًا لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحدًا من البشر، وفي الحديث «أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأُمروا ألا يدخروا لغدٍ ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير»[2] قال في التسهيل: جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيها، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[3] ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ قال ابن عباس: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل[4] والمعنى: اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخًا للكفرة وتبكيتًا لهم قائلاً: يا عيسى أأنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ قال القرطبي: إنما سأله عن ذلك توبيخًا لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع[5] ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا يخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول ومبالغة في الأدب وإظهار الذلة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم بالخفايا والنيات وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، قال الرازي: وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معًا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي قلت لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت شاهدًا على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم

---

(١) أبو السعود ٢/٧٣.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير.
(٣) التسهيل ١/١٩٤.
(٤) البحر ٤/٥٨.
(٥) القرطبي ٦/٣٧٥.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف تشاء لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم؛ لأنه يوم الجزاء ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء.

تنبيه: روى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب لمحمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.

تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة

بين يدي السورة

* سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول «العقيدة وأصول الإيمان» وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، فهي لم تعرض لشيء من أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا عن المنافقين، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي: ١- قضية الألوهية. ٢- قضية الوحي والرسالة. ٣- قضية البعث والجزاء.

* ونجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع، لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين، ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما: ١- أسلوب التقرير. ٢- أسلوب التلقين.

* أما الأول «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه وقهره، في صورة الشأن المسلَّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحس الحاضر في القلب الذي لا يمتري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة «هو» الدالة على الخالق المدبر الحكيم، استمع قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الخ.

* أما الثاني «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، ومن هنا كانت

سورة الأنعام إحدى السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية (١)، تقرر حقائقها، وتثبت دعائمها، وتعد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة، فهي تذكر توحيد الله جل وعلا في الخلق والإيجاد، وفي التشريع والعبادة، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم من السابقين، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة، وتذكر يوم البعث والجزاء، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق، وفي الطباع البشرية وقت الشدة والرخاء، وتذكر آباء الأنبياء إبراهيم وجماعة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقتهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال، ثم تختم السورة بعد ذلك في ربع كامل بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة. وهو أنه خليفة في الأرض، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله، ويقوم اللاحق منها مقام السابق، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي الابتلاء والاختبار في القيام بتبعات هذه الحياة، وذلك هو الذي يرجع إليه كمال المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

التسمية: سميت بسورة الأنعام لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقربًا بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح (٢).

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... إلى... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ من آية (١) إلى آية (١٨).

اللغة: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يسوون به غيره ويجعلون له عدلاً وشريكاً يقال: عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تَمْتَرُونَ﴾ تشكون يقال: امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قَرْنٍ﴾ القرن: الأمة المقترنة في

---

(١) يقول الإمام الرازي: امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة. أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة، وثانيهما: أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين. ويقول الإمام القرطبي: إن هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي نزولها جملة واحدة.

(٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٢٢٤.

مدة من الزمان ومنه حديث (خير القرون قرني) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم ... وخُلِّفتُ في قرنٍ فأنت غريب[1]

﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرة دائمة ﴿قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها ﴿لَبَسْنَا﴾ خلطنا يقال: لبست عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿حَاقَ﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿وَلِيًّا﴾ ناصرًا ومعينًا.

سَببُ النُّزول: روي أن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

التفسير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليمًا لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلامًا بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ندّ له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل، ومعنى الآية: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خالق السموات

---

(١) القرطبي ٦/٣٩٦.   (٢) أسباب النزول ص ١٢٢.

﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي منحناهم من أسباب الصحة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي أنزلنا المطر غزيرًا متتابعًا يدر عليهم درًّا ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي أحدثنا من بعد هلاك المكذبين قومًا آخرين غيرهم قال أبو حيان: وفيه تعريض للمخاطبين بهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم[1] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي لو نزلنا عليك يا محمد كتابًا مكتوبًا على ورق كما اقترحوا ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسوه بأيديهم ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتًا وعنادًا ما هذا إلا سحر واضح، والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جئتهم بأوضح الآيات وأظهر الدلائل ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلا أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته ويصدقه و﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلّا للتحضيض، قال أبو السعود: أي هلا أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي وهذا من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعييت بهم العلل[2] ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاينوه ثم كفروا لحق إهلاكهم[3] كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالًا ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي ثم لا يمهلون ولا يؤخرون، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم فإنهم – في ذلك الاقتراح – كالباحث عن حتفه بظلفه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكًا لكان في صورة رجل، لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك قال ابن عباس: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور[4]، ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حل بالكفرة قبلكم

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٧٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ٨٣ .

(٣) وقيل المعنى: لو أنزلنا ملكًا لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته، وهو منقول عن ابن عباس كما في القرطبي ٦/ ٣٩٣ .

(٤) ابن كثير ١/ ٥٦٩ المختصر.

من الهلاك وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرة للمعتبرين ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لمن الكائنات جميعًا خلقًا وملكًا وتصرفًا؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفرة فهو سؤال تبكيت ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي قل لهم تقريرًا وتنبيهًا هي لله، لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة؛ لأنه تعيّن الجواب إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلًا وإحسانًا، والغرض التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون، ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي لله عز وجل ما حلّ واستقر في الليل والنهار من جميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه، والمراد: عموم ملكه تعالى لكل شيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبودًا؟ ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي هو جلّ وعلا يَرزق ولا يُرزق، قال ابن كثير: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم[2] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هذه الأمة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي: لا تكونن من المشركين، قال الزمخشري ومعناه: أُمرت بالإسلام ونُهيت عن الشرك[3] ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم أيضًا: إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي من يصرف عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن ينزل بك يا محمد شيء من فقر أو مرض فلا رافع ولا صارف له إلا هو، ولا يملك كشفه سواه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وإن يصبك بخير من صحة ونعمة فلا رادّ له؛ لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر قال في التسهيل: والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير، وكذلك ما بعدها من الأوصاف براهين ورد على المشركين[4] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قال ابن كثير: أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، وهو الحكيم في جميع

---

(١) قال أبو السعود: هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور ... الخ.

(٢) مختصر ابن كثير ١/٥٧١.

(٣) الكشاف ٢/٧.

(٤) التسهيل ٢/٤.

أمثاله المصير بمصارع الأشقياء(1).

البلاغة:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين.

٢- ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق.

٣- ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثم للاستبعاد أي يعدلون به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع لفظ «ربهم» موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح.

٤- ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ بينهما طباق.

٥- ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي أهل قرن مجاز مرسل.

٦- ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي المطر عبّر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضًا.

٧- ﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير.

٨- ﴿الْأَنْهَارَ تَجْرِي﴾ من باب المبالغة.

فائدة: في القرآن العظيم خمس سور افتتحت بـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وسورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وسورة سبأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وسورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ...﴾ إلى ﴿...فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من آية (19) إلى نهاية آية (35).

المناسبة: لما أفاض جل ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته في أول السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبيه محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة.

اللغة: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾ الإنذار: إخبار فيه تخويف ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة الاختبار ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كنان بمعنى الغطاء ﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً يقال: وقرت أذنه إذا ثقلت أو صمّت ﴿أَسَاطِيرُ﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري: الأساطير الأباطيل والترهات ﴿يَنْأَوْنَ﴾ يبتعدون يقال: نأى عنه إذا ابتعد ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة يقال: بغته إذا فجأه ﴿فَرَّطْنَا﴾ فرّط: قصّر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد: فرّط: ضيّع ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يَزِرُونَ﴾ يحملون ﴿لَهْوٌ﴾ اللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، وكل ما شغلك فقد ألهاك.

سبب النزول:

أ- روي أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد

(1) ابن كثير ٢/ ٢٧١. (2) [illegible] ٤/ ٨٦.

ـأنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (١) الآية.

ب- عن ابن عباس أن «أبا سفيان» و«الوليد بن المغيرة» و«النضر بن الحارث» جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال: أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ (٢) الآية.

جـ- روي أن «الأخنس بن شريق» التقى بأبي جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ (٣) الآية.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

التفسير: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق في دعوى النبوة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم: الله يشهد لي بالرسالة والنبوة، وكفى بشهادة الله لي شهادة، قال ابن عباس: قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم:

(١) أسباب النزول ص ١٢٢. (٢) القرطبي ٦/٤٠٤. (٣) التفسير الكبير ١٢/٢٠٢.

أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلا فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم [١] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزي: والمقصود بالآية الاستشهاد بالله - الذي هو أكبر شهادة - على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه [٢] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام توبيخ أي أإنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم لا أشهد بذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قل يا محمد إنما أشهد بأن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام، ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا يعرفون النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل كما يعرف أحدهم الواحد ولده لا يشك في ذلك أصلاً، قال الزمخشري: وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته [٣] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولئك هم الخاسرون؛ لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وكذب بالقرآن أو المعجزات الباهرة وسماها سحرًا قال أبو السعود: وكلمة ﴿أَوْ﴾ للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون [٤] ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفلح المفتري ولا المكذب؛ وفيه إشارة إلى أن مدعي الرسالة لو كان كاذبًا لكان مفتريًا على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعًا للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله؟ قال البيضاوي: والمراد من الاستفهام التوبيخ و﴿تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولين ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها [٥] قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب [٦] ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين، قال القرطبي: تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول: إنا كنا

---

(١) البحر ٤/٩٠
(٢) التسهيل ٢/٥
(٣) الكشاف ٢/٩
(٤) أبو السعود ٢/٨٨.
(٥) البيضاوي ص١٦٩
(٦) ساقط من الأصل.

أي فتبرءوا ولم نكن مشركين، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[1] ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، وهذا للتعجيب من كذبهم الصريح ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقرا﴾ أي ثقلاً وصممًا يمنع من السمع، قال ابن جزي: والمعنى أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبر بالأكنة والوقر مبالغة[2] ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البينات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويبتعدون هم عنه ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يدرون بذلك، قال ابن كثير: فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحدًا ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون[3] ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمرًا عظيمًا تشيب لهوله الرءوس، قال البيضاوي: وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمرًا شنيعًا[4] وإنما حذف ليكون أبلغ ما يقدره السامع ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحًا ولا يكذبوا بآيات الله ﴿ونكون من المؤمنين﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدق ونؤمن بالله إيمانًا صادقًا فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل، قال تعالى ردًا لذلك التمني ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي لو ردوا - على سبيل الفرض - لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي قال أولئك الفجرة ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ أي لو ترى حالهم إذ حبسوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ أي أليس هذا المعاد بحق؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي قالوا بلى والله إنه لحق ﴿قال فذوقوا

---

(١) القرطبي ٦/٤٠٢. (٢) التسهيل ٢/٩.
(٣) ابن كثير ٢/٢٤٣. (٤) البيضاوي ص١٧٩.

﴿الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأة من غير أن يعرفوا وقتها قال القرطبي: سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها[1] ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما فرطنا وضيعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم، قال البيضاوي: وهذا تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام[2]. وقال ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ لأن العادة حمل الأثقال على الظهور: قال ابن جزي: وهذا كناية عن تحمل الذنوب، وقيل: إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد روي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة[3] ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملونه من الأوزار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء؛ لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا؟ ثم سلّى تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم، قال الحسن: كانوا يقولون: إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء، ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول: ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدق وإنما نكذب ما جئت به[4] ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي وأوذوا في الله حتى نصرهم الله، وفي الآية إرشاد إلى الصبر، ووعد له بالنصر ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي لمواعيد الله، وفي هذه تقوية للوعد ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشقَّ عليك يا محمد ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن قدرت أن تطلب سربًا ومسلكًا في جوف الأرض ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أي مصعدًا تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآية مما اقترحوه فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان فلا تكونن يا محمد

---

(١) القرطبي ٦/٤١٤. (٢) البيضاوي ص١٦٩.
(٣) التسهيل ٢/٧. (٤) البحر المحيط ٤/١١٢.

من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية.

البلاغة:

١ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فيه تشبيه يسمى (المرسل المجمل).

٢ - ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء.

٣ - ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ الصيغة للتعجب من كذبهم الغريب.

٤ - ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ عبر بالأكنة في القلوب والوقر في الآذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن.

٥ - ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم.

٦ - ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و ﴿يَنْأَوْنَ﴾ بينهما من المحسنات البديعية الجناس الناقص.

٧ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين «إنَّ» و «اللام» للتنبيه على أن الكذب طبيعتهم.

٨ - ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء «فإنما هي إقبال وإدبار».

٩ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ.

١٠ - ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير.

تنبيه: قال الإمام الفخر: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقتضي له جوابا وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن، وأشباهه كثير في القرآن والشعر. وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: والله لئن قمت إليك، وسكت عن الجواب ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب، والقتل، والكسر، وعظم خوفه؛ لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب لعلم أنك لن تبلغ شيئاً غير الضرب، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف[1].

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ .. إلى .. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٨).

المناسبة: لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي عليه السلام، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون.

---

(١) التفسير الكبير ١٢/١٩٠.

اللغة: ﴿تَضَرَّعُوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال: ضرع فهو ضارع ﴿الْبَأْسَاءِ﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿الضَّرَّاءِ﴾ من الضر وهو البلاء قال القرطبي: البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان. هذا قول الأكثر[1] ﴿مُبْلِسُونَ﴾ المبلس: اليائس من الخير من أبلس الرجل إذا سكت وغمه ويئس، لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل[2] ﴿دَابِرُ﴾ الدابر: الآخر ودابر القوم: خلفهم من نسلهم قال قطرب: يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر:

فأهلكوا بعذاب حص دابرهم ... فما استطاعوا له صرفًا ولا انتصروا[3]

﴿يَصْدِفُونَ﴾ صدف عن الشيء أعرض عنه ﴿تَطْرُدِ﴾ الطرد: الإبعاد مع الإهانة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الهالكين.

سبب النزول: عن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب، وخباب، وبلال، وعمار، وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعًا لهم؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية[4].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۝ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ

(1) القرطبي ٦/٤٢٣. (2) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣

(3) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٦/٤٢٧.

(4) أسباب النزول ص ١٢٤.

حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

التفسير: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء، وهنا تم الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن كثير: يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم[1] وقال الطبري: يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله[2] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال كفار مكة: هلا نزل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة، قال القرطبي: وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله[3] ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ أي هو تعالى قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدر أحوالها وأرزاقها وآجالها. قال البيضاوي: والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية[4] ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه، وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً لم نكتبه[5] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري: يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من

(١) ابن كثير ٢/٥٧٦. (٢) الطبري ١١/٣٤١.
(٣) القرطبي ٦/٤١٩. (٤) البيضاوي ص ١٧٠.
(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين، ورجح أبو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال: وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وهو قول ابن عطية.

بعض كما روي أنه بأخذ للجماء من القرناء⁽¹⁾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صم لا يسمعون كلام الله سماع قبول، بكم لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر قال ابن كثير: وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه⁽²⁾ ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون؟ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ أي بل تخصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لولا للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: لما تركوا ما وعظوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي أخذناهم بعذابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، قال الحسن: مُكر بالقوم ورب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أُخذوا⁽³⁾ وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»⁽⁴⁾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله سمعكم فأصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي من

(1) الكشاف ٢/١٦ .
(2) مختصر ابن كثير ١/٥٧٨ .
(3) ابن كثير ١/٥٧٧ .
(4) أخرجه الإمام أحمد .

أحدٌ غيرُ الله يقدر على ردِّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله فجأة أو عيانًا بالليل أو بالنهار ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار الكافرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكفار من الآيات ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون، لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله قال ابن عباس: يفسقون أي يكفرون[1] ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لست أدعي أن خزائن الله مفوضة إليّ حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضًا أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب، قال الصاوي: وهذه الآية نزلت حين قالوا له: إن كنت رسولًا فاطلب من ربك أن يوسع علينا ويغني فقرنا، وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده[2] والمعنى إني لا أدعي شيئًا من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلًا على عدم صحة رسالتي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي هل يستوي الكافر والمؤمن والضال والمهتدي؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تقريع وتوبيخ أي أتسمعون فلا تتفكرون؟ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي خوّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يخافون عذاب الحشر قال أبو حيان: وكأنه قيل: أنذر بالقرآن من يُرجى إيمانه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم[3] ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لهم غير الله ولي ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لعلهم يتقون الكفر والمعاصي ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد، الذين يعبدون ربهم دومًا في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو من رضاه قال الطبري: نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك

---

(١) زاد المسير ٣/٤٣.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١٦.
(٣) البحر ٤/١٣٤.

من شريعة الله التي أوحاها إليّ ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي وكذبتم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب، قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [1] ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي يخبر الخبر الحق ويبينه بالبيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله، قال ابن عباس: لم أمهلكم ساعة ولأهلكتكم [2] ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخّر عقوبتهم، وفيه وعيد وتهديد.

البلاغة

١- ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه استعارة؛ لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم.

٢- ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز؛ لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾

٣- ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه.

٤- ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر، فهو قصر صفة على موصوف.

٥- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال.

٦- ﴿الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن.

٧- ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى رد الصدر على العجز.

فائدة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم [3].

فائدة: قال بعض المفسرين: إن الواجب في الدعاء الإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ... إلى... عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ من آية (٥٩) إلى نهاية آية (٧٣).

المناسبة: لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية: علمه، وقدرته، وعظمته، وجلاله، وسائر صفات الجلال والجمال، ثم

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤ (٢) زاد المسير ٣/ ٥٢.

(٣) الكشاف ٢/ ١٨.

ذكر نعمه على العباد ونجاتهم من الشدائد، وقدرته على الانتقام ممن خالف أمره وعصى رسله.

اللغة: ﴿كَرْبٍ﴾ الكرب: الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿شِيَعًا﴾ الشيعة: الفرقة تتبع الأخرى وتجتمع على شيء واتباع ﴿تُبْسَلَ﴾ الإبسال: تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عَدْلٍ﴾ فدية ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار ﴿حَيْرَانَ﴾ الحيرة: التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه ﴿الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس ﴿الشَّهَادَةِ﴾ ما كان مشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ۝ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي عنده تعالى خزائن الغيب، وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملة وتفصيلاً وفي ذلك عوالم ومخلوقات يسعها علمه وقدرته ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبت ومن يأكلها ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح

المحفوظ[١]. قال أبو حيان: وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات: بدأ أولاً بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ثم ثانياً بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحس وهو ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات[٢] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي ينيمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال القرطبي: وليس هذا موتاً حقيقة بل هو قبض الأرواح، قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم[٣]. وفي هذا اعتبار واستدلال على البعث الأخروي ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم، والضمير عائد على النهار؛ لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم ذكر تعالى جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال أبو السعود: وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح[٤] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، والمعنى: أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصرون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي ثم يرد العباد بعد البعث

---

(١) البحر المحيط ٤/١٤٦.

(٢) كتب شهيد الإسلام (سيد قطب) في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزئ منه ببعض فقرات، قال عليه رحمة الله: هذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو، من حي وميت، ويابس ورطب، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر، وفي خبايا البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، وتتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يند منه شيء عن علم الله المحيط، إنها جولة تدير الرؤوس وتذهل العقول، جولة في آماد من المنظور والمجهول، والمعلوم والمجهول، وهي ترسم هكذا دقة كاملة شاملة في بضع كلمات... ألا إنه الإعجاز في ظلال القرآن ٧/٢٥٧.

(٣) القرطبي ٧/٦. زاد المسير ٣/٥٥

(٤) أبو السعود ٢/١٠٧.

إلى الله خالقهم ومالكهم، الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر؟ ﴿تدعونه تضرعا وخفية﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين له الضراعة، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم، قال ابن عباس المعنى: تدعون ربكم علانية وسراً قائلين ﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكونن من المؤمنين الشاكرين والغرض: إذا خفتم الهلاك دعوتموه فإذا نجاكم كفرتموه. قال القرطبي: وبخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره[1] ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل كرب وغم ﴿ثم أنتم تشركون﴾ تقريع وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحمم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كما فعل بمن قبلكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً، قال البيضاوي: أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم[2] وقال ابن عباس: أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً[3] والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح لهم الآيات بوجوه العبر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه، عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ فقال رسول الله ﷺ: هذه أهون أو أيسر[4] ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ أي وكذب بهذا القرآن قومك يا محمد وهم قريش وهو الكتاب المنزل بالحق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي لست عليكم بحفيظ ومسلط إنما أنا منذر ﴿لكل نبإ مستقر﴾ أي لكل خبر من أخبار الله عز وجل وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير ﴿وسوف تعلمون﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث﴾

---

(١) القرطبي ٧/٨.
(٢) البيضاوي ص ١٧٣.
(٣) زاد المسير ٣/٥٩.
(٤) أخرجه البخاري.

غَيْرِهِۦ﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلام آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره(١) ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفساق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس: أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير(٢) ويظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم. قال ابن عطية: ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه(٣) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي وذكّر بالقرآن الناس مخافة أن تُسلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لها ناصر ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أي وإن تُعط تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها(٤) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أُسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي لهؤلاء الضالين شراب من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه ولا يضرنا إن تركناه؟ والمراد به الأصنام ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وصار يهيم في المفاوز والمهالك فألقته في هوة سحيقة ﴿حَيْرَانَ﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون: ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

---

(١) الطبري ١١/ ٤٣٧.

(٢) ذهب الطبري إلى معنى الآية: ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله.

(٣) [illegible] ٤٥٤. (٤) الطبري ١١/ ٤٤٧.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا، وهذا تمثيل لمن ضل عن الهدى وهو يدعى إلى الإسلام فلا يجيب قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه منادٍ يا فلان بن فلان هلمَّ إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلمَّ إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق يقول: مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة[1] ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي واذكروا واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون، قال أبو حيان: وهذا تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أن ثَمَّ شيئاً يؤمر[2] ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ أي قوله الصادق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشؤون عباده.

البلاغة:

١- ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ استعار المفاتح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري: جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال، فهو سبحانه العالم بالمغيبات وحده[3].

٢- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز.

٣- ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير (معهم) للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم.

٤- ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ عبر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه.

٥- ﴿تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦- من المحسنات البديعية الطباق في كل من ﴿رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ و ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ و ﴿جرح وبعث﴾ و ﴿ينفعنا ويضرنا﴾ و ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والسجع في ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والله أعلم.

(١) الطبري ١١/٤٥٤ . (٢) البحر ٤/١٦٠

(٣) الكشاف ٢/٢١

قال الحاكم: دل قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ على بطلان قول الإمامية إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب ... انتهى. أقول: هذا كذب وبهتان؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله

قال الله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... إلى ... وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٤).

لما ذكر تعالى الحجج القاطعة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان، ذكر هنا قصة أبي الأنبياء «إبراهيم» لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم للأصنام فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراك بالله، وجميع الطوائف والملل معترفة بفضل إبراهيم وجلالة قدره، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم، وأمر رسوله بالاقتداء بهديهم الكريم.

﴿ملكوت﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرغبوت والرهبوت من الرغبة والرهبة ﴿جن﴾ ستر بظلمته، قال الواحدي: جن عليه الليل وأجنه الليل ويقال لكل ما ستره جن وأجن ومنه الجنة، والجنُّ والجنون، والجنين وكل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار ﴿بازغاً﴾ طالعاً يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، قال الأزهري: كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً ﴿أفل﴾ غاب يقال: أفل أفولاً إذا غاب ﴿حجتنا﴾ حجة ﴿يلبسوا﴾ يخلطوا يقال: لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿واجتبيناهم﴾ اصطفيناهم ﴿قراطيس﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر:

استودع العلم قرطاساً فضيعه ... فبئس مستودع العلم القراطيس

﴿غمرات﴾ الغمرة: الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خولناكم﴾ أعطيناكم وملكناكم والتخويل: المنح والإعطاء ﴿وضل عنكم﴾ ضاع وبطل.

سبب النزول: عن سعيد بن جبير أن «مالك بن الصيف» من اليهود جاء يخاصم النبي فقال له النبي : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً - فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ...﴾ الآية

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴿٧٤﴾ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴿٧٥﴾ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴿٧٦﴾ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴿٧٧﴾ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما

محاسن التأويل ٦/٢٣٤٣. تفسير الرازي ١٣/٤٦.
تهذيب اللغة مادة بزغ. أسباب النزول ص ١٢٠ والقرطبي ٧/٣٧.

أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍ إلى ألا يكون شيء منها إلهًا وأن وراءها محدثًا أحدثها، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكر عليه فيبطله بالحجة[1] ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال، لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي فلما رأى القمر طالعًا منتشر الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتًا لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهًا لأحلامهم ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين وفيه تعريض لقومه بأنهم على ضلال ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم وأصنامكم قال أبو حيان: لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون ربًا ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ وأكبر جرمًا وأعم نفعًا، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث[2] وقال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3] ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السموات والأرض ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾[4] أي جادلوه

---

(١) الكشاف ٢/٣١. (٢) البحر المحيط ٤/١٦٧.

(٣) مختصر ابن كثير ١/٥٩٢.

(٤) ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فالمقام مقام مناظرة كما قال الحافظ ابن كثير لا مقام نظر، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الحنفاء، وقد ساق الفخر الرازي اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج١٣ ص٤٧ وهذا اختيار المحققين من المفسرين كالقرطبي والزمخشري وأبي السعود وابن كثير وصاحب البحر المحيط، والله أعلم.

وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيء من المكروه فيكون ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يبصر ولا يسمع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أيّنا أحق بالأمن أنحن وقد عرفنا الله بأدلته وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديّان؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال: ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيّد الله بها خليله عليه السلام أي: هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي بالعلم والفهم والنبوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقرّ عينه ببقاء النسل ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة. قال ابن كثير: يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن ويئس من الولد، وبشّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة وكان هذا مجازاة لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقر بهم عينه ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم وذكر تعالى نوحاً، لأنه أبو البشر الثاني فذكر شرف أبنائه إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم هؤلاء

الحديث أصله في الصحيحين — مختصر ابن كثير ١/٥٩٦

الضمير في ذريته فيه قولان: قيل: إنه يرجع إلى نوح، واختاره الفراء وابن جرير، وقيل: إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية بيان شئون إبراهيم العظيمة

الأنبياء الكرام، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان، لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والابن ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والابتلاء ﴿وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوة وقدم موسى لأنه كليم الله ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم ويونس بن متى ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية وبالحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها ووكلنا بها رسلاً وأنبياء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديون فاقتد بسيرتهم العطرة ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قل يا محمد لقومك: لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير لجميع الخلق ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل، والقائلون هم اليهود الملعونون تفوهوا بهذه المقالة الشنعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المجرمين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون، وتخفون ما تشاءون قال الطبري: ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد . وتموته ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا

البحر ٤/ ١٧٣ .

قيل: إن المراد بهم: أهل مكة من الأنصار وهو قول ابن عباس، وقيل: هم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير.

الطبري ١١/ ٥٢٧ .

﴿لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أي علمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموه من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي قل لهم في الجواب: الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون، وهذا وعيد لهم وتهديد على إجرامهم ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يصدق كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعظ والوعد والتبشير والتهديد ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها، قال الصاوي: خص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات[1] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي ومن ادعى أنه سيتكلم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ قال أبو حيان: نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين، لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يذكر لسخفه[2] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشداته، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: خلصوا أنفسكم من العذاب، قال الزمخشري: المعنى يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال[3] ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأبدي ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال، والولد حفاة عراة غرلاً كما ورد في الحديث (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده ..)[4] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا لم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٤. (٢) البحر المحيط ٤/ ١٨٠.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٦.
(٤) الحديث من رواية الشيخين ومعنى غرلاً أي غير مختونين.

الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلكم وتشتت جمعكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء.

البلاغة:

١- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه.

٢- ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريض بضلال قومه، وبين لفظ ﴿الهداية والضلالة﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

٣- ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٤- ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هُدَى﴾ و﴿يَهْدِي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً.

٥- ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل.

٦- ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ استفهام للتبكيت والتوبيخ.

٧- ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾ بينهما طباق.

٨- ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى.

٩- ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرات لأنها تغمر قلب الإنسان(١).

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿آزَرَ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون: إنه اسم للصنم، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين إنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ... الحديث، ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ... إلى ... وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من آية (٩٥) إلى نهاية آية (١١٠).

المناسبة: لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وحكمته، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله.

اللغة: ﴿فَالِقُ﴾ الفلق: الشق، والفلق الصبح لانشقاقه ﴿سَكَنًا﴾ السكن: ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به، والسكن: الرحمة ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب قال الزمخشري: الحسبان مصدر حسب

(١) تلخيص البيان ص ٣٧.

كما أن الحسبان مصدر حسب ومثله الكفران والشكران . ﴿متراكبا﴾ بعضه فوق بعض ﴿قنوان﴾ جمع قنو وهو العذق أي عنقود النخلة ﴿وينعه﴾ أي نضجه وإدراكه يقال: ينعت الشجرة وأينعت إذا نضجت ﴿خرقوا﴾ اختلقوا كذبًا وإفكًا ﴿بديع﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق، والإبداع الإتيان بشيء لم يسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فن من الفنون لم يسبقه فيه غيره: إنه أبدع ﴿نصرف﴾ التصريف: نقل الشيء من حال إلى حال.

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهى محمدًا وأصحابه عن سب آلهتنا والنيل منها وإما أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم..﴾ الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنزلت.

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴿٩٥﴾ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٩٦﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴿٩٧﴾ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴿٩٨﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿٩٩﴾ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿١٠٠﴾ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿١٠١﴾ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿١٠٢﴾ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿١٠٣﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴿١٠٤﴾ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴿١٠٥﴾ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴿١٠٦﴾ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل ﴿١٠٧﴾ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿١٠٨﴾ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴿١٠٩﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

. عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ أي يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي: أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقًا أخضر وكذلك

الكشاف ٢/٢٩. القرطبي ٧/٦١.

أسباب النزول ص ١٢٧

الحبة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تصرفون عن الحق بعد هذا البيان! ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي شاق الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده[1] ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر، وإنما امتن عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي بينا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قال ابن عباس: المستقر في الأرحام والمستودع في الأصلاب، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم، وقال ابن مسعود: مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها[2] ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي بينا الحجج لقوم يفهمون الأسرار والدقائق قال البيضاوي: عبر هنا بـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما تحتوي عليه أمر خفي تتحير فيه الألباب، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد، ولذا عبر فيها بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾[3]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجر قال الطبري: أي أخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح[4] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي أخرجنا من النبات شيئًا غضًا أخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي نخرج من الخضر حبًا متراكبًا بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي وأخرجنا من طلع النخل - والطلع أول ما يخرج من التمر في أكمامه - عذوقًا قريبة سهلة التناول قال ابن عباس: يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية ممن يجتنيها ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي وأخرجنا به أيضًا شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهًا في المنظر وغير متشابه في

القرطبي ٧/٤٤ الطبري ١١/٥٥٤.
ونص المستقر أيضًا بالاستقرار فوق الأرض، والمستودع تحت الأرض، واختار الطبري العموم.
حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٤ . الطبري ١١/٥٧٣

الطعم قال قتادة: متشابهاً ورقه مختلفاً ثمره، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مرًّا وبعضه مالحاً لا ينتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً شهيًّا نافعاً مستساغ المذاق! فسبحان القدير الخلّاق!! ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدقون بوجود الله قال ابن عباس: يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى[1] ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وخلقهم﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ أي اختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا: عزير ابن الله والملائكة بنات الله سفهاً وجهالة ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أي تنزه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علوًّا كبيراً ﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي مبدعهما من غير مثال سبق ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنيًّا عن كل شيء. قال في التسهيل: والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين: أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس؛ لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد، والثاني: أن الله خلق السماوات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء[2] ثم أكد تعالى على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿خالق كل شيء فاعبدوه﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها بشمول علمه تعالى للخفيات ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال ابن كثير: ونفي الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار، ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية[3] ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي قد جاءكم البينات

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٣/٩٦ (٢) التسهيل ٢/١٨
(٣) مختصر ابن كثير ١/٦٠٣.

والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر(١) ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ قال الزمخشري: المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى(٢) ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لست عليكم بحفيظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي وكما بينا ما ذكر نبين الآيات ونصرفها ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن، واللام لام العاقبة ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال القرطبي: أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله(٣) ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ولست بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي: وهذا تأكيد لما قبله أي لست حفيظاً ورقيباً تجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال(٤) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداء لعدم معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس: قال المشركون لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم(٥) ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي كما زينا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم قال ابن عباس: زينا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم، وهو وعيد بالجزاء والعذاب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدها ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارق مما اقترحوا ليؤمنن بها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءتهم لا يصدقون بها ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي ونحول قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما نزل من القرآن أول مرة قال الصاوي: وهو مستأنف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حول قلبه له، ومن أراد الله شقاوته حول قلبه لها(٦) ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونتركهم

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٩٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٣.
(٣) القرطبي ٧/ ٦٠.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٧.
(٥) ابن كثير ٢/ ١٠٧.
(٦) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٩.

من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله، والغرض تيئيس من إيمانهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال الطبري: أي يجهلون أن الأمر بيد الله، ويحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا، ومتى شاءوا كفروا، وليس الأمر كذلك، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته فأضللته[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا، قال ابن الجوزي: أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى[2] ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالقبيح والشر ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يوسوسون بالكلام المزين والأباطيل المموهة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل: وكَّل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا فذلك وحي بعضهم إلى بعض[3] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكن حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء قال ابن كثير: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء[4] ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرك عليهم ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوب الكفرة الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي وليرضوا هذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي قل لهم يا محمد: أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم؟ قال أبو حيان: قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[5] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان، مفصلاً فيه الحق والباطل موضحاً الهدى من الضلال ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حق لتصديقه ما عندهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكونن من الشاكين قال أبو السعود: وهذا من باب التهييج والإلهاب وقيل: الخطاب للرسول والمراد به الأمة[6] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي تم كلام الله المنزل صادقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدر ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا مغير لحكمه ولا راد لقضائه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال

---

(١) الطبري ١٢/٤٧.
(٢) زاد المسير ٣/١٠٨.
(٣) تفسير ابن الجوزي ٣/١٠٩.
(٤) ابن كثير ٢/١٣١.
(٥) البحر المحيط ٤/٢٠٦.
(٦) أبو السعود ٢/١٧١.

العباد عليم بأحوالهم ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الهدى، قال الطبري: وإنما قال ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ لأنهم كانوا حينئذ كفارًا ضلالاً، والمعنى: لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللت ضلالهم وكنت مثلهم، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه[1] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلدون آباءهم ظنًا منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قوم يكذبون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضل عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد، قال في البحر: وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد، لأن كونه تعالى عالمًا بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما[2] ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقًا مؤمنين، قال ابن عباس: قال المشركون للمؤمنين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله -يريدون الميتة- أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم فنزلت الآية[3] ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه؟ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي وقد بيّن لكم ربكم الحلال والحرام ووضح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم إلخ في آية المحرمات إلا في حالة الاضطرار فقد أحل لكم ما حرم أيضًا فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤكم الكفار؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وإن كثيرًا من الكفار المجادلين ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرع من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في الاعتداء فيحللون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنة، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها قال مجاهد: هي المعصية في السر والعلانية وقال السدي: ظاهره الزنى مع البغايا، وباطنه الزنى مع الصدائق والأخدان[4] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي يكتسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرم الله سيلاقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكسبون ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي لا تأكلوا أيها المؤمنون مما ذبح لغير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصية وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم من الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين

---

(١) الطبري ١٢/ ١١ (٢) البحر المحيط ٤/ ٢١٠

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٤ (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٦١٢

في استحلال الحرام واتبعتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم قال الزمخشري: لأنَّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم(1) ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قال أبو حيان: لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثّل تعالى بأن شبه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين(2) والمعنى: أوَمن كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي وجعلنا مع تلك الهداية النور المتلألئ الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي كمن هو متخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المنفذ ولا المخلص؟ قال البيضاوي: وهو مثل لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال(3) ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها، كذلك حسّنا للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها، قال ابن الجوزي: وإنما جعل الأكابر فسّاق كل قرية، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة(4) ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة قاطعة وبرهان ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدّق برسالته حتى نعطى من المعجزات مثل ما أعطي رسل الله، قال في البحر: وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى. روي أن أبا جهل قال زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت الآية(5) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في البحر: وقدّم الصغار على العذاب؛ لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعذاب الشديد ثانياً(6) ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي من شاء الله هدايته

(1) الكشاف ٢/٤٩ (2) البحر المحيط ٤/٢١٤
(3) البيضاوي ص ١٩٠ (4) زاد المسير ٣/١٠٧
(5) البحر ٤/٢١٦ (6) البحر ٤/٢١٧.

ألقاه في قلبه نورًا فينفسح له وينشرح وذلك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس: معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال: إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي يجعل صدره ضيقًا شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان قال عطاء: ليس للخير فيه منفذ ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمرًا غير ممكن قال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد: الرجس كل ما لا خير فيه، وقال الزجاج: الرجس: اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ أي: وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاستمسك به ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات دار السلام أي السلامة من المكاره وهي الجنة في نزل الله وضيافته ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لأعمالهم الصالحة قال ابن كثير: وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام.

البلاغة:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿رَبِّكَ﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية

- ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهييج والإلهاب
- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي تم كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل.
- ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ بين لفظ ﴿ظَاهِرَ﴾ و ﴿بَاطِنَ﴾ طباق.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الموت والحياة والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة، فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال.

- ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به

الطبري ١٢/١٠٠ — ابن كثير ١/٦١٧.
الطبري ١٢/١٠٩ — مختصر ابن كثير ١/٦١٨
أفاده أبو السعود. — انظر البحر المحيط ٤/٢١٤.

شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أي لم يجدوا إلا الاعتراف فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا. قال ابن عطية: وهذا إقرار منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال البيضاوي: وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة؛ لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قومًا حتى يبعث إليهم رسولاً، قال الطبري: أي إنما أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغها في آخرته إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، قال ابن الجوزي: وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليس الله بلاهٍ أو ساهٍ عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعباداتهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي ذو التفضل التام قال ابن عباس: ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته، وقال غيره: بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال أبو السعود: وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي ويأتي بخلق آخر أمثل منكم وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان: وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أي ما توعدونه من مجيء الساعة والحشر لواقع لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تعجزون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب متن كل صعب وذلول ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون، والأمر هنا للتهديد كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ أي عامل ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي فسوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم؟

البيضاوي ص ١٨٢ — الطبري ٨/٣٤
ابن الجوزي ٣/١٢٦ — أبو السعود ٢/١٢٨
البحر ٤/٢٢٤

من ظالم فقلب والنظر متعجب.

الثانية: الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ هو من باب التغليب كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرجان من البحر المالح دون العذب.

الثالثة: ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتمًا بين يدي رسول الله ﷺ فقال له الرسول: «ما لك تكون محزونًا؟» فقال يا رسول الله: إني أذنبت في الجاهلية ذنبًا فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: «أخبرني عن ذنبك؟» فقال يا رسول الله. إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي فسرت بذلك وزينتها بالحلي والثياب، وأخذت عليّ المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي وترحمني، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة ومكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أمرت أن أعاقب أحدًا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك»[1].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ .. إلى .. ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ من آية (١٤١) إلى نهاية آية (١٥٠)

المناسبة: لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفًا من قبائحهم وجرائمهم، ذكر تعالى هنا ما امتن به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراء منهم عليه واختلاقًا، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا أيضًا من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله.

اللغة: ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حَصَادِهِ﴾ الحصاد: جمع الثمر كالجذاذ ﴿حَمُولَةً﴾ الحمولة: الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿وَفَرْشًا﴾ الفرش: الصغار التي لا تصلح للحمل كالفصلان والعجاجيل قال الزجاج: الفرش صغار الإبل قال الشاعر

أورثني حمولة وفرشا ... أمشها في كل يوم مشا

﴿الْحَوَايَا﴾ قال الواحدي: هي المباعر والمصارين واحدتها حاوية وحوية وقيل: الحوايا الأمعاء التي عليها الشحوم سميت حوايا، لأن البطن يحويها ﴿هَلُمَّ﴾ هاتوا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٩٧.

للإنسان فاحذروا كيده. ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحلّ لكم أكلها، من الضأن ذكر وأنثى، ومن المعز ذكر وأنثى قال القرطبي: يعني ثمانية أفراد، وكل فرد عند العرب يحتاج إلى آخر يسمى زوجًا فيقال للذكر: زوج وللأنثى زوج[1] ويراد بالزوجين من الضأن: الكبش والنعجة، ومن المعز: التيس والعنز ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾؟ هذا إنكار لما كانوا يفعلون من تحريم ما أحل الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر: آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله عليكم أيها المشركون أم الأنثيين منهما؟ ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أي: أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى؟ ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تعجيز وتوبيخ أي أخبروني عن الله بأمر معلوم لا بافتراء ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾؟ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ قال أبو السعود: والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئًا من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة، وأولادها تارة أخرى[2] ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟ وهذا من باب التهكم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرم بغير دليل ولا برهان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عموم في كل ظالم، ثم أمر تعالى رسوله بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إليّ من القرآن شيئًا محرمًا على أي إنسان إلا أن يكون ذلك الطعام ميتة أو دمًا سائلًا مصبوبًا أو يكون لحم خنزير فإنه قذر ونجس لتعوده أكل النجاسات ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي أو يكون المذبوح فسقًا ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النصب، سمي فسقًا مبالغة كأنه نفس الفسق، لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عاد أي متجاوز قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور رحيم بالعباد، ثم بين تعالى أن ما حرمه على اليهود إنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم كل ذي ظفر قال ابن عباس: هي ذوات الظلف كالإبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والإوز[3] ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي وحرمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إِلَّا مَا

(١) القرطبي ٧/١١٣. (٢) أبو السعود ٢/٢١٤. (٣) البحر المحيط ٤/٢٤٣.

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإنا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد وفي ذلك تعريض بكذب من حرّم ما لم يحرم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم، قال في البحر: وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة: ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي[1] ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يرد عذابه وسطوته عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ أي سيقول مشركو العرب: لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها: هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر منه، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون مأمورون بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعة جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي كذلك كذب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم عذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهاداتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهاداتهم ولا تصدقهم فإنه كذب بحت ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٤٦.

كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

التفسير: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، وذكر ضمن المحرمات؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده فكأنه قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين قال أبو السعود: والسر في ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما (١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي: المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر (٢) ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرزاق للعباد ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرها قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسًا في السر ويستقبحونه في العلانية فحرمه الله في السر والعلانية (٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا تقتلوا النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بحق وقد فسره قول رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ذلكم المذكور مما أوصاكم تعالى بحفظه ولرعايته أمرًا مؤكدًا لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان: وفي لفظ وصاكم من

---

(١) أبو السعود ٢/١٤٥ (٢) زاد المسير ٣/١٤٨ (٣) الطبري ١٢/٢١٨

اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان[1] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً، والنهي عن القرب يعم وجوه التصرف، لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعة اليتيم وتثمير ماله قال ابن عباس: هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال الصاوي: أي إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره بعد وفاء الكيل؛ لأن إيفاء الحق عسر عليكم فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم[2] ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهاداتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال القرطبي: وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به[3] ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أمركم بذلكم لعلكم تتعظون ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: (هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾[4]) الآية ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كرر التوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية: لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولا بد فيها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5] ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال الطبري: أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه ومنة عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة[6] ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدقوا بلقاء الله قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب[7] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه

---

(١) البحر ٤/٢٥٢.

(٢) الصاوي ص ١٨٤.

(٣) القرطبي ٧/١٣٢.

(٤) مختصر ابن كثير ١/٦٣٣.

(٥) البحر ٤/٢٥٤.

(٦) الطبري ١٢/٢٣٥.

(٧) أبو السعود ٢/١٤٨.

اللهِ﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال الطبري: أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل[1] ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عنها عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقل المضاعفة للحسنات فقد ينتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من جزائهم شيئاً، وفي الحديث القدسي «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر»[2] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ديناً مستقيماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً، وفيه تعريض بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ أي قل يا محمد إن صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿وَنُسُكِي﴾ أي ذبحي[3] ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ذلك كله لله خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده أمرت ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول من أقر وأذعن وخضع لله جل وعلا ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ تقرير وتوبيخ للكفرة، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى: قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يؤاخذ إنسان بجريرة غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وعيد وتهديد، أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال الطبري: أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[4] ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر والعلم والجهل والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي: أي ليختبركم

---

(1) الطبري ١٢/٢٨٣.   (2) رواه مسلم.

(3) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك: العبادة والأول أرجح.

(4) الطبري ١٢/٢٨٧.

فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب {إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم} أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه، قال في البحر: وجاء بجمع بين الخوف والرجاء، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آت قريب (١).

البلاغة:

١- {ولا تتبعوا السبل} السبل مستعارة من البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة.

٢- {لا نكلف نفسا} التنكير لإفادة العموم والشمول.

٣- {وبعهد الله} الإضافة للتشريف والتعظيم.

٤- {يصدفون عن آياتنا} وضع الظاهر مكان الضمير {عنها} تسجيل شناعة وقباحة طباعهم.

٥- {قل انتظروا} الأمر للتهديد والوعيد (٢).

٦- {لا ينفع نفسا إيمانها...} الآية. اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللف، وأصل الكلام: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفسا لم تكسب في إيمانها خيرا قبلُ ما تكسب من الخير بعد، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاما واحدا بلاغة واختصارا وإعجازا، أفاده صاحب الانتصاف (٣).

٧- بين {ظهر} و{بطن} طباق وبين {الحسنة} و{السيئة} طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية.

٨- {ولا تزر وازرة وزر أخرى} قال الشريف الرضي: ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة (٤).

فائدة: وحّد تعالى "سبيله" لأن الحق واحد وجمع "السبل" لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة.

تنبيه: قال الحافظ ابن كثير: كثيرا ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين {إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم} كقوله تعالى: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم} إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع في كلٍّ بحسبه (٥).

تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى ولله الحمد والمنة

---

(١) البحر ٤/٢٦٣
(٢) التسهيل ٢/٢٨
(٣) حاشية الكشاف ٢/٦٤
(٤) تلخيص البيان ص ٤٠
(٥) مختصر ابن كثير ١/٦٤٢

بين يدي السورة

* سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

* عرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أبي البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم.

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم - بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم - أربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلة والمخالفة لأمر الله ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ...﴾.

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من المشاهد الواقعة يوم القيامة، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة (سورة الأعراف) مشهد سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل تمثل ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين «أصحاب النار»، وينطلق صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها.

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب «نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسى» وقد بدأت بشيخ الأنبياء (نوح) عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحود وعناد، وتكذيب وإعراض، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، وتحدثت

عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمن ورخاء، وكيف بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره فعاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير.

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء، وصوّرتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزيًا ووبالًا عليه، لأنه لم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، ولا يبصر ولا يسمع، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورهم ويعلم متقلبهم ومثواهم، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء والختام.

التسمية: سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم.

☐ ☐ ☐

قال الله تعالى: ﴿المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ .. إلى .. وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٠).

اللغَة: ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق، يقال: حرج المكان أو الصدر إذا ضاق ﴿بَيَاتًا﴾ قال الراغب: البيات والتبييت: قصد العدو ليلاً[1] ﴿قَائِلُونَ﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار، والقائلة: الظهيرة ﴿مَذْءُومًا﴾ مذمومًا يقال: ذأمه أي ذمه وحقره ﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودًا يقال: دحره أي طرده وأبعده ﴿سَوْآتِهِمَا﴾ السوأة: العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا وأخذا يقال: طفق يطفق إذا ابتدأ وأخذ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يرقعان ويلزقان ﴿وَرِيشًا﴾ لباسًا تتجملون به وأصل الريش: المال والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينة له وجمال ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده وأصل القبيل: الجماعة سواء كانوا من أصل أو أصول شتى ﴿فَاحِشَةً﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطواف حول البيت عراة وكل أمر قبيح يسمى فاحشة، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة

---

(١) المفردات للراغب مادة بيت.

والكل صحيح فتارة توزن الأعمال، وتارة محالّها، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم»[1]. أقول: لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد، واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر؟ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً، قال البيضاوي: أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها[2] ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام فقليل منكم من يشكر ربه كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم ميتاً غير مصور، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين[3] ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي قال تعالى لإبليس: أي شيء منعك أن تسجد لآدم؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي قال إبليس اللعين: أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره؛ لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى. قال ابن كثير: نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم، وهو أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والنار من شأنها الإحراق والطيش، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب، ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار[4]. قال ابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس[5] ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تتكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي الذليلين

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٧. (٢) البيضاوي ص ١٦٠.
(٣) انظر التحقيق الذي كتبناه حول إبليس والأدلة التي ذكرناها على أنه من الجن وليس من الملائكة في صفحة ٤٨ من كتابنا النبوة والأنبياء.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٨.
(٥) البحر ٤/٢٧٣.

الصاغرين، قال الزمخشري: وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه[1] ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ استمرّ اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده، فأجابه تعالى بقوله ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ قال ابن عباس: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه[2] ويؤيده الآية الأخرى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدن لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة كما يقعد القطاع للسابلة ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع لأصدهم عن دينك، قال الطبري: معناه لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق وأحسّن لهم الباطل قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى[3] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي اخرج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأن جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي وقلنا: يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرج وطرد ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي كُلا من ثمارها من أي مكان شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي الإغراء لهما بالأكل من الشجرة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله قال الألوسي: وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعل يجدّ فيه[4] ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي خدعهما بما غرّهما به من القسم بالله قال ابن عباس: غرّهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف

(١) الكشاف ٢/٩٠. (٢) الطبري ١٢/٣٤١.
(٣) القرطبي ٧/١٧٤. (٤) روح المعاني ٨/١٠٠.

على عباده ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات، ونسب النزع إليه لأنه المتسبب، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسية والمعنوية ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشد وأخوف ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي جعلنا الشياطين أعوانًا وقرناء للكافرين ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله! وهذا افتراء على ذي الجلال قال البيضاوي: احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه، فأعرض عن الأول لظهور فساده، ورد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [1] أي قل لهم يا محمد الله منزه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوئ الخصال ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علم ونظر صحيح؟ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال ابن كثير: أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك [2] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي هدى فريقًا منكم وأضل فريقًا منكم وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية.

البلاغة

١ - ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ أي تسبب في إخراجه فهو على حذف مضاف مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾

٢ - ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر [3].

---

(١) البيضاوي ص ١٨٩. (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٣.

(٣) إرشاد أبو السعود ٢/ ١٥٥

٣- ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بين ﴿ثَقُلَتْ﴾ و﴿خَفَّتْ﴾ طباق وكذلك بين ﴿بَيَاتًا﴾ و﴿قَائِلُونَ﴾ لأن «البيات» معناه ليلاً و«القائلون» معناه نهارًا وقت الظهيرة.

٤- ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم.

٥- ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنات النعيم.

٦- ﴿وَيَا آدَمُ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم.

٧- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ عبر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها.

٨- ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا﴾ أكد الخبر بالقسم وبإن واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى «إنكاريًا» لأن السامع متردد.

٩- ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بين الجملتين طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: سميت العورة سوأة لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء: في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سوأة. أقول: إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة إلى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدو للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخ والانحلال الخلقي، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله در القائل:

يا ابنتي إن أردت آية حسن ... وجمالاً يزين جسمًا وعقلا

فانبذي عادة التبرج نبذًا ... فجمال النفوس أسمى وأعلى

يصنع الصانعون وردًا ولكن ... وردة الروض لا تضارع شكلا

❑❑❑

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ .. إلى .. ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥١).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف «أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف» ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء.

اللغة: ﴿زِينَتَكُمْ﴾ الزينة: ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه من المعاصي ﴿الْبَغْيَ﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ثقب الإبرة ﴿مِهَادٌ﴾ فراش يمتهده الإنسان ﴿غَوَاشٍ﴾ أغطية جمع غاشية

قال ابن عباس: هي الصحف ﴿الأعراف﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عُرف مستعار من عرف الديك ﴿بسيماهم﴾ بعلاماتهم.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ وأمر مؤذن رسول الله ﷺ ألا يطوف بالبيت عريان[1].

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه مسلم كذا في القرطبي ٧/١٨٩

حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۞ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

التفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المتعدين حدود الله فيما أحل وحرم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات. من حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات، والمستلذات من المآكل والمشارب؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي نبين ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي قل لهم يا محمد: ما حرم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي وحرم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها قال في البحر: هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم[1] ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[2] والساعة مثل في غاية القلة من الزمان ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يجئكم رسلي الذين أرسلتهم إليكم يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٩٢.

(٢) هذا الراجح في تفسير الآية أن المراد به أجل الأمم المكذبين للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي السعود وقيل: المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولا ينقص، والأول أرجح لأن اللفظ ورد (ولكل أمة) والله أعلم

تعمّد الكذب على الله أو كذّب بآياته المنزلة ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقُدِّر من الأرزاق والآجال قال مجاهد: ما وُعدوا به من خير أو شر ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي جاءتهم ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ ادعوهم ليخلصوكم من العذاب، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي قال الأشقياء المكذبون: لقد غابوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي أقرّوا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته: ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها قال الألوسي: يلعن الأتباع القادة يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى(١) والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضًا كقوله تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم: يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفًا لأنهم تسببوا في كفرنا، ونظير هذه الآية ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي لكلٍ من القادة والأتباع عذاب مضاعف، أما القادة فبضلالهم وإضلالهم، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي قال القادة للأتباع لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال ابن عباس: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، وقيل: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم ويؤيده حديث "إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يحضره ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها

---

(١) روح المعاني ٨/١١٦.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ من كلام الله تعالى لهم على سبيل التوبيخ وهو مذهب الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر، والله أعلم.

النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ..»(١) الحديث ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدى حدود الله، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعده لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في البحر: وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة(٢) ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يخرجون منها أبداً ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث «يدخل أهل الجنة الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل»(٣) وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبيت ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا قال القرطبي: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث «لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة ..»(٤) الحديث ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهل الجنة أهل النار يقولون: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من

---

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ٢/١٨ .
(٢) البحر المحيط ٤/٢٩٨ . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم
(٤) أخرجه مسلم وانظر القرطبي ٧/٢٠٩ .

النعيم والكرامة حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً؟ قال أهل النار مجيبين: نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري: وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتةً بأهل النار، وزيادةً في غمهم لتحصره الإخسار والاستحبار[1] ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي أعلن معلن ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ يمنع من وصول أهل النار للجنة، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلاماتهم التي ميزهم الله بها قال قتادة: يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم[2] ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلام عليكم أي قالوا لهم: سلام عليكم قال تعالى ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال المفسرون: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا عليهم، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، سألوا الله ألا يجعلهم معهم قال أبو حيان: وفي التعبير بقوله ﴿صُرِفَتْ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قبلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم[3] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي من أهل النار وهم رؤساء الكفرة ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي أي شيء نفعكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي: هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم: دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة[4] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكلٍ من

---

(١) الكشاف ٢/١٠٦.
(٢) الطبري ١٢/ ٤٦٣.
(٣) البحر المحيط ٤/٣٠٢.
(٤) روح المعاني ٨/١٢٦.

الفريقين القرار واطمأنت بهم الدار، وعرف استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والعمى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء نسكّن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت أفِضْ عليّ من الماء! فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون: إن الله حرمهما على الكافرين[١] ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ أي هزئوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها الفانية وهذا شأنها مع أهلها تغر وتضر، وتخدع ثم تصرع ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي: الكلام خارج مخرج التمثيل أي نتركهم في النار ونعاملهم معاملة من نسيهم لنسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا يُنسى[٢] وقال ابن كثير: أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه[٣] ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا، يكذبون بها ويستهزئون، ننساهم في العذاب.

البلاغة:

١- ﴿عند كل مسجد﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة والطواف، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه.

٢- ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ كناية عن عدم قبول العمل، فلا يصعد لهم دعاء أو عمل.

٣- ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة، وهو تمثيل للاستحالة.

٤- ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ قال صاحب البحر: هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾[٤].

٥- ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا﴾ بين ﴿ننساهم﴾ و ﴿نسوا﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية.

فائدة: يروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذلك الطبيب لأحد العلماء: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان! فقال له العالم: قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه! قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب! فقال العالم: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة! قال: وما هي؟ قال: قوله: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه...» الحديث فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[٥].

---

(١) الطبري ١٢/٤٧٣.
(٢) روح المعاني ٨/١٢٧.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٢٤.
(٤) البحر المحيط ٤/٢٩٨.
(٥) محاسن التأويل ٧/٢٦٦٤.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ ... عِلْمٍ إلى ... وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٧٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء، وخسارتهم الفادحة في الآخرة، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هود عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام.

اللغة: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ عاقبة أمره وما يئول إليه من آل يئول إذا صار إليه ﴿اسْتَوَىٰ﴾ الاستواء: العلو والاستقرار قال الجوهري: استوى على ظهر الدابة استقر واستوى إلى السماء قصد، واستوى الشيء إذا اعتدل ﴿يُغْشِي﴾ يغطي ﴿حَثِيثًا﴾ سريعًا والحث: الإعجال والسرعة ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري: تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿وَخُفْيَةً﴾ سرًا ﴿بُشْرًا﴾ مبشرة بالمطر ﴿أَقَلَّتْ﴾ حملت ﴿نَكِدًا﴾ العسر القليل ﴿آلَاءَ﴾ الآلاء النعم واحدها إِلْي كمِعْي.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا

كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي بيَّنا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قيِّمًا غير ذي عوج ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة: تأويله: عاقبته ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ هو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم قال الطبري: أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله قد بلغتهم الرسالة ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال[1] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحًا غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالى ردًا عليهم: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي: لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلم العباد التثبت في الأمور[2] ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال: كيف؟ ولم؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل[3] وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته[4] ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعًا حتى يدركه ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) الطبري ١٢/٤٨٠.
(٢) محاسن التأويل ٧/٢٧٠٨.
(٣) القرطبي ٧/٢١٩.
(٤) القرطبي ٧/٢١٩.

مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي مذللات تحت قهره ومشيئته وتسخيره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تعظم وتمجد الخالق المبدع رب العالمين ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوا الله تذللاً وسرًّا بخشوع وخضوع ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي الحديث «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا» ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفًا من عذابه وطمعًا في رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في البحر: ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النعم وأحسنها أثرًا على الإنسان[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحابًا مثقلاً بالماء ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي سقنا السحاب إلى أرضٍ ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا الإخراج نخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتتذكرون قال ابن كثير: وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي الأرض الكريمة التربة يخرج النبات فيها وافيًا حسنًا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل المؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرة أو السبخة[3] لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها[4] ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه. وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن قال الألوسي: أي مثل هذا التصريف البديع نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها لقوم يشكرون نعم الله تعالى، وشكرها بالتفكر والاعتبار بها[5] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحًا، ونوح شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمرًا وهو أول

---

(١) البحر المحيط ٤/٣١٧. (٢) مختصر ابن كثير ٢/٢٧.
(٣) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود، والسبخة: الأرض ذات الملح.
(٤) الطبري ١٢/٤٩٧. (٥) روح المعاني ٨/١٤٨.

نبي بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبي من الأذى مثل نوح(١) ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إله مستحق للعبادة غيره ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه: إنا لنراك يا نوح في ذهاب عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان: ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة(٢) وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾(٣) ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ما أنا بضال ولكني أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور المغيبة أشياء لا علم لكم بها قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالمًا بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات(٤) ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم ﴿لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم ولتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي كذبوا نوحًا مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أهلك المكذبين منهم بالغرق ﴿إنهم كانوا قومًا عمين﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد(٥) ﴿وإلى عاد أخاهم هودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودًا وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي قال لهم رسولهم: وحّدوا الله ليس لكم من إله غيره ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه؟ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والقادة منهم: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربي

---

(١) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتبنا (النبوة والأنبياء).

(٢) البحر ٤/٣٢٠.

(٣) لم يأت التركيب (ليس بي ضلال مبين) بل جاء في غاية الحسن ﴿ليس بي ضلالة﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة. أفاده صاحب البحر.

(٤) مختصر ابن كثير ٢/٢٨. (٥) البحر ٤/٣٢٣.

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لا أكذب فيه قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى السفاهة والضلالة - بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدب حسن وخلق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم (1) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عقابه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي زاد في أجسامكم قوة وضخامة ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونتبرأ منها؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد حل بكم عذاب وغضب من الله ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال أبو السعود: أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً فأهلكم الله بالريح العقيم (2).

البلاغة:

١ - ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء فليطلبه وهذا الأسلوب البليغ يسمى "إيجاز قصر" ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة.

٢ - ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وصف البلد بالموت استعارة حسنة لجدبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به.

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم فهو تشبيه (مرسل مجمل) ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه.

٤ - ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ قطع الدابر كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك.

---

(1) الكشاف ٢/٦٦. (2) أبو السعود ٢/١٧٤.

لطيفة: ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ عن الحسن البصري أنه قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأنه سبحانه ذكر عبدًا صالحًا فقال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ثم قال: وذكروا للدعاء آدابًا كثيرة منها: أن يكون على طهارة، وأن يستقبل القبلة، ويخلي القلب من الشواغل، ويفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي ﷺ، ويرفع اليدين نحو السماء، وإشراك المؤمنين فيه، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ووقت إفطار الصائم، ويوم الجمعة وغير ذلك.[1]

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ... إلى ... فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ من آية (٧٣) إلى نهاية آية (٩٣).

المناسبة: لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته، الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجج الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، فذكر نوحًا، وهودًا، وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب، وموقف المعاندين للرسل الكرام.

اللغة: ﴿نَاقَةُ﴾ الناقة: الأنثى من الجمال، وعقر الناقة ضرب قوائمها بالسيف ﴿عَتَوْا﴾ استكبروا عتا عتوًّا أي استكبر والعتو التمادي الشديد ﴿جَاثِمِينَ﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة التي يرجف لها الإنسان أي يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب، رجفت الأرض اضطربت ﴿الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في عذاب الله، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب ومنه قول الأعشى. (في الزمن الغابر) فهو من الأضداد كما في الصحاح ﴿يَغْنَوْا﴾ يقيموا يقال: غني بالمكان إذا أقام به دهرًا طويلاً ﴿عَفَوْا﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝

[1] روح المعاني ٨/١٣٩.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي أتعلمون أن الله أرسله إليكم؟ وإنما قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان: وعدولهم عن قولهم (هو مرسل) إلى قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في غاية الحسن إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يُسأل عن رسالته[1] ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون إظهارًا لمخالفتهم إياهم وردًا لمقالتهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقًّا رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حراك بهم قال في البحر: أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا[2] ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم: لقد أبلغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه حيًّا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة - يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني[3] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتمادية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان؟ والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان: ولما كان هذا الفعل معهودًا قبحه ومركوزًا في العقول قبحه أتى به معرَّفًا بالألف واللام ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فأتى به منكرًا، والجملة المنفية ﴿مَا سَبَقَكُمْ﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها، والمبالغة في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حيث زيدت (من) لتأكيد نفي الجنس وفي الإتيان بعموم ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمعًا قال عمرو بن دينار: ما رُئي ذكر على ذكر قبل قوم لوط[4] ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ هذا بيان للفاحشة وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بإن وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل

---

(١) البحر ٤/٣٣٠. (٢) البحر ٤/٣٣١.
(٣) الكشاف ٢/١٢٤. (٤) البحر ٤/٣٣٣.

الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء؟! ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال أبو السعود: وفي التقييد بقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ وصف لهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه أن العاقل ينبغي على أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة[١] ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي ما كان جوابهم للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتقذرون من إتيان أدبار الرجال والنساء، قالوا ذلك سخرية واستهزاء بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حل بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين قال الطبري: أي أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوط خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب[٢] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيبًا هو حجارة من سجيل كما في الآية الأخرى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث أرسل إرسال المطر ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت! هل كانت إلا الدمار والهلاك؟! ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيبًا داعيًا لهم إلى توحيد الله وعبادته قال ابن كثير: ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب (معان) من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره[٣] ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي في الأرض بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه! على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ

---

(١) أبو السعود ٢/١٧٨.
(٢) الطبري ١٢/٥٥٦.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٥٣.
(٤) البحر ٤/٣٣٨.

قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأوجبوا لهلاكهم (١)

البلاغة:

١- ﴿هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

٢- ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء.

٣- ﴿أتأتون الفاحشة﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع.

٤- ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم وا[illegible] قال ابن عباس: عابوهم بما يمدح به.

٥- ﴿عن أمر ربهم﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التقريع وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

٦- بين لفظ ﴿مؤمنون﴾ و ﴿كافرون﴾ طباق.

فائدة: الذي عقر الناقة هو (قدار بن سالف) وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى: ﴿فعقروا الناقة﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ .. إلى .. ﴿فينظر كيف تعملون﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١٢٩).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح، هود، صالح، لوط، شعيب) وما حل بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تجد فيهم الموعظة، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش بهم إذا لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات.

اللغة: ﴿البأساء﴾ شدة الفقر ﴿الضراء﴾ الضر والمرض ﴿عفوا﴾ كثروا ونموا ﴿بغتة﴾ فجأة ﴿وملإيه﴾ أشراف قومه ﴿أرجه﴾ أخر ﴿صاغرين﴾ أذلاء ﴿تلقف﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يأفكون﴾ الإفك: الكذب ﴿أفرغ﴾ الإفراغ: الصب أي اصببه علينا.

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴿٩٤﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴿٩٥﴾ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿٩٦﴾ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴿٩٧﴾ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴿٩٨﴾ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿٩٩﴾ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿١٠٠﴾ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل

(١) الطبري ١٢/ ٤٦١.

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

.... ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ في الكلام حذف أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر، والمرض وسوء الحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض، الغنى والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها: هذه عادة الدهر وقد مس آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا، والغرض أن الله ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه فما فعلوا، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة من حيث لا يدرون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لوسعنا عليهم الخير من كل جانب وقيل: بركات السماء المطر، وبركات الأرض الثمار، قال السدي: فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا

فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه؟ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟ أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهارًا جهارًا وهم يلهون ويشتغلون بما لا يجدي كأنهم يلعبون؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخس من البهائم قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن(١) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي أو لم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في البحر: أي قد علمتم ما حل بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حل بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا(٢) ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيرًا سمع منتفع بهما ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ أي تلك القرى المذكورة نقص عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أمر وأنظم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها لتماديهم وجحدهم في الكفر والضلال قال الزمخشري: أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين لا يرعوون مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النذر والآيات، وفيه تحذير للسامعين ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بالعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه: هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع(٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلنا إلى فرعون - ملك مصر في زمن موسى - وقومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا وجحدوا بها ظلمًا وعنادًا ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف

---

(١) ابن كثير ٢/٣٨ المختصر.
(٢) البحر ٤/٣٥٠
(٣) الكشاف ٢/١٣٥
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٣٩.

أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال لأعداء الله، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إني رسول إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي جدير بي وحق عليّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخلِّ واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم[1] قال أبو حيان: ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق، ولما كانت قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولما قرر رسالته فرّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2] ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي قال فرعون لموسى: إن كنت جئت بآية من ربك كما تدعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس: تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة نحو فرعون و﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر لا متخيّل ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضًا نورانيًا عجيبًا يغلب نورها نور الشمس قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته: إن هذا عالم بالسحر ماهر فيه وغرضهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بالغ الغاية في علم السحر وخداعه وفنونه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ وبأي شيء تشيرون فيه؟ قال القرطبي: قال فرعون: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما يخاطب الجبابرة والرؤساء: ما ترون في كذا[3] ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي أخّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي يأتوك بكل ساحر مثله ماهر في السحر، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ في الكلام محذوف يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن يجمعوا له فلما جاءوا فرعون قالوا: إن لنا لأجرًا عظيمًا إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

---

(١) قال المفسرون: كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر مع أن آباءهم كانوا بالأرض المقدسة أن الأسباط -أولاد يعقوب- جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة، فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم.

(٢) البحر ٤/ ٣٥٥ (٣) القرطبي ٧/ ٢٥٧

لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي قال فرعون: نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أهل خاصتي وأهل مشورتي، قال القرطبي: وعدهم على ما طلبوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أي قال السحرة لموسى: اختر إما أن تلقي عصاك أو نلقي نحن عصينا قال الزمخشري: تخييرهم إياه أدب حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال[1] هذا ما قاله الزمخشري: والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه: ابدأ أو نبدأ[2] ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا العصي والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهابًا شديدًا حيث خيلوها حيات تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه، قال ابن إسحاق: صُفّ خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصي والحبال فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا[3] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تبتلع بسرعة ما يزورونه من الكذب قال ابن عباس: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبه ومخرقته ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي غُلب فرعون وقومه في ذلك المجمع العظيم وصاروا أذلاء ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي خرّوا ساجدين معلنين إيمانهم برب العالمين لأن الحق بهرهم قال قتادة: كانوا أول النهار كفارًا سحرة وفي آخره شهداء بررة[4] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال فرعون الجبار للسحرة: أآمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني؟ والمقصود بالجملة التوبيخ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي صنيعكم هذا حيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهًا على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعلمون ما يحل بكم، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال أولاً ثم فصله بالتفصيل فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف، قال الطبري: ومعنى ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع[5] ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ثم أصلبكم جميعًا تنكيلاً

الكشاف ٢/١٤٠ — الطبري ١٣/٢٨
البحر المحيط ٤/٣٦٤ — الطبري ١٣/٣٤

كانوا يعملون ﴿١٣٩﴾ قال أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضلكم على العالمين ﴿١٤٠﴾ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿١٤١﴾ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴿١٤٢﴾ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴿١٤٣﴾ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴿١٤٤﴾ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴿١٤٥﴾ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿١٤٦﴾ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿١٤٧﴾ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿١٤٨﴾ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾

التفسير: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط ﴿ونقص من الثمرات﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون: كانت النخلة لا تحمل إلا تمرة واحدة[1] ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم يتعظون وترق قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، ثم بيّن تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمردًا وكفرًا فقال ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا: هذه لنا بسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي وإذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا: هذا بشؤمهم قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس: الأمر من قبل الله ليس شؤمهم إلا من قبله وحكمه[2] ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي قال قوم فرعون لموسى: أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك! قال الزمخشري: فإن قلت: كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لتسحرنا بها﴾؟ قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي[3] قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس: الطوفان: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار[4]

(١) الطبري ١٣/٤٦.
(٢) روح المعاني ٩/٣٣.
(٣) الكشاف ٢/١٣٦.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/٤٥.

لن إلهًا نعبده بالعبادة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري: تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي هالك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي باطل عملهم مضمحل بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي أأطلب لكم معبودًا غير الله المستحق للعبادة والحال أن الله فضّلكم على غيركم بالنعم العظيمة!! قال الطبري: فضّلكم على عالمي دهركم وزمانكم ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أقطع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه؟ ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري: روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يومًا وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك فأوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي وأصلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم الله ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكلمه من غير واسطة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها، قال القرطبي: اشتاق إلى رؤية ربه لما أسمعه كلامه فسأل النظر إليه ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا لأن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكن سأتجلى لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر تدكدك الجبل وتفتت وسقط موسى مغشيًّا عليه من

البحر ٤/٣٧٨ . الكشاف ٢/١٤٩ .
الطبري ١٣/٨٤ . الكشاف ٢/١٥١ .
القرطبي ٧/٢٧٨

هول ما رأى قال ابن عباس: ما تجلى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار ترابًا وخر موسى مغشيًا عليه[1] وفي الحديث: فساخ الجبل ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فلما صحا من غشيته قال: تنزيهًا لك يارب وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا تبت إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون وساطة ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال أبو السعود: والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدًا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها[2] ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبينة للحلال والحرام كل ذلك في ألواح التوراة ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ليتعظوا بها وينزجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرُّخص فالعفو أفضل من القصاص، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه[3] ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون منازل الفاسقين -فرعون وقومه- كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها، وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم قال الزمخشري: وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم[4] ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يروا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك الانحراف عن هدى الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم

---

(١) الطبري ٩٧/١٣.
(٢) أبو السعود ٢٦٥/٢.
(٣) الطبري ١٠٦/١٣.
(٤) الكشاف ١٤٩/٢.

الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسان وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوه في الدنيا؟ ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾ قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من الحلي، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح حتى صار يُسمع له أي خوار صوت كصوت البقر ومعنى ﴿من بعده﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق، فهو لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهاً؟ ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهاً فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وتكرير لفظ ﴿اتخذوه﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي تبينوا ضلالهم تبيناً جلياً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ أي لنكونن من الهالكين قال ابن كثير: وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

البلاغة:

١ - ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباق كما أن بين لفظ ﴿طائرهم﴾ و ﴿يطيروا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿ودمرنا ما كان يصنع﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا.

٣ - ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أتى بلفظ (تجهلون) ولم يقل (جهلتم) إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل[1].

٤ - ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال سأريهم.

٥ - ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعض على يده غماً.

٦ - بين لفظ ﴿تضل﴾ و ﴿تهدي﴾ طباق.

تنبيه: مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لن تراني﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليل لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت محالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم

---

(١) أبو حيان في البحر ٤/٣٧٩

الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ۝ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

التفسير: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿غضبان﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أسفًا﴾ أي شديد الحزن ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أي بئس ما فعلتموه بعد غيبتي حيث عبدتم العجل ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟ والاستفهام للإنكار ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي طرح الألواح مما عراه من شدة الغضب، وفرط الضجر غضبًا لله من عبادة العجل، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظنًا منه أنه قصّر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس: لما عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضبًا لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه[1] ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي قال هارون: يا ابن أمي -وهو نداء استعطاف وترقيق[2]- إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصر في نصحهم ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسئ إليّ حتى يشمت الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك لي، ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد: ﴿الظالمين﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال: ﴿اغفر لي ولأخي﴾ الآية قال الزمخشري: استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حسن الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة[3] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل -ذكر البقر- واتخذوه إلهًا سيصيبهم غضب شديد من الرحمن، وينالهم في الدنيا الذلة والهوان، قال ابن كثير: أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا[4] ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله قال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل[5] ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم

---

(١) الطبري ١٣/١٢٣.
(٢) قال ابن كثير: وإنما قال: ابن أمي لتكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه.
(٣) الكشاف ٢/١٢٩. (٤) المختصر ٢/٥٢.
(٥) الطبري ١٣/١٣٥.

رحيم بهم قال الألوسي: وفي الآية إعلام بأن الذنوب وإن جلَّت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجل، وما أحسن قول أبي نواس غفر الله تعالى له:

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن يلوذ ويستجير المجرم؟[1]

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي وفيما نسخ فيها وكُتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله: لو شئت يارب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإنا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول: لا تعذب يا الله بذنوب غيرنا!! قال الطبري في رواية السدي: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي[2] أقول: إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أي أنت يارب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي أنت خير من صفح وستر، تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقق وأثبت لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قال تعالى: أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمت خلائقي كلهم قال أبو السعود: وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة

---

(١) روح المعاني ٩/٧٠. (٢) الطبري ١٣/١٤٢.

السامي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً النبي العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال البيضاوي: وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبياً بالإضافة إلى العباد ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال ابن كثير: هذه صفة محمد في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهى إلا عن كل شيء قبيح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويحرم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأ وشبه ذلك ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوا بمحمد وعظموه ووقروه ونصروا دينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ هذا بيان لعموم رسالته لجميع الخلق أي قل يا محمد: للناس إني رسول من عند الله إلى جميع أهل الأرض ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع الكائنات ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي لا رب ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بني إسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق ولا يجورون قال الزمخشري: لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين ولو تابوا حتى أقدموا على العظيمتين: عبادة العجل، وطلب رؤية الله، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتى اثني عشرة قبيلة

أبو السعود ٢/١٠٢ . - البيضاوي ص١ .
المختصر ٢/٥٥ . الكشاف ٢/١٦٧

من اثني عشر ولدًا من أولاد يعقوب قال أبو حيان: أي فرقناهم وميزناهم أسباطًا ليرجع أمر كل سبط إلى رئيسه ليخف أمرهم على موسى، ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج، ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عينًا لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء، وجعل لكل سبط نقيبًا ليرجعوا في أمورهم إليه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عينًا من الماء بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عرف كل سبط وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال الطبري: لا تدخل سبط على غيره في شربه ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا الغمام يظلهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها قال الألوسي: وكان الظل يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهي هو ﴿الْمَنَّ﴾ وهو شيء حلو ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السماني، وكل ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهد منهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرضوها بكفرهم لعذاب الله ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم: اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا حين دخولكم: يا الله حُطّ عنا ذنوبنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي نمحُ عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوق الغفران دخول الجنان ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيّر الظالمون منهم أمر الله فقالوا قولًا لا يليق حيث قالوا بدل ﴿حِطَّةٌ﴾ (حبة في شعيرة) وبدل أن يدخلوا ساجدين خضوعًا لله دخلوا يزحفون على أستاههم (أدبارهم) سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذابًا من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقًا ولاحقًا قال أبو السعود: والمراد بالعذاب (الطاعون) روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفًا ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير؟ قال ابن كثير: وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم ﴿إِذْ

البحر المحيط ٤/٤٠٦
روح المعاني ٩/٨٨
المختصر ٢/٩٨
الطبري ١٣/١٧٧
أبو السعود ٢/٢٠٤

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يتجاوزون حدّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي حين كانت الحيتان (الأسماك) تأتيهم يوم السبت -وقد حرم عليهم الصيد فيه- كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله قال القرطبي: روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض! فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها(١) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم(٢) ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي قال الناهون: إنما نعظهم لنعتذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يتركون عما هم فيه من الإجرام قال الطبري: أي لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعديهم الاعتداء في السبت(٣) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي فلما تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضًا كليًا ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير، والمعنى أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق: فرقة عصت فحلّ بها المسخ، وفرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن قال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا! قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حلة(٤) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم سوء العذاب بسبب عصيانهم

---

(١) القرطبي ٧/٣٠٦.
(٢) المختصر ٢/٥٩.
(٣) الطبري ١٣/١٨٥.
(٤) المختصر ٢/٥٩.

ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم، وقد سلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم، وسلّط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية، وسلّط عليهم محمداً ﷺ فطهر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية، وسلّط عليهم أخيراً (هتلر) فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم، وليس لهم إقليم يملكونه؛ حتى لا تكون لهم شوكة، وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا ليذبحوا بأيدي المؤمنين إن شاء الله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود...» الحديث أخرجه مسلم. ثم بين تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي منهم من آمن وهم فئة قليلة ومنهم من انحط عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ قال ابن كثير: أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم[1] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام ويقولون متبجحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا أخذوه لا يبالون من حلال كان أو حرام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟ ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ الاستفهام للإنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع أجورهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء.

---

(١) المختصر ٢/ ٦٦.

من آبائنا المبطلين بعد اتباعك منهاجهم على جهل منا بالحق؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وكما بينا الميثاق بيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي واتلُ يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس: هو (بلعم بن باعوراء) كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك مدين داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك[1] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزلة العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي فصفته في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهو تشبيه بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي هذا المثل السيء هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فاقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بئس مثلاً مثل القوم المكذبين بآيات الله ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعداها ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة، والغرض من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات لأنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقدمون على النار ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن

(١) التسهيل ٢/ ٥١.

روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۝ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى وقوعها وحدوثها؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه إلا الله سبحانه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عظمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها

القرطبي ٧/ ٣٣٥

هذا قول قتادة وقيل: معنى ثقلت عظم علمها على أهل السموات والأرض.

علام الغيوب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخفيت. قال الإمام الفخر: والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذرٍ منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية[1] ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرًا ولا أدفع عنها شرًا إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة؟ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصّلت كثيرًا من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتها ومضراتها ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء، لكني لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعًا وحده من غير معين من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي وخلق منها حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفًا دون إزعاج لكونه نطفة في بادئ الأمر. قال أبو السعود: فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب، والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضعف إلى القوة[2] ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لئن رزقتنا ولدًا صالحًا سويّ الخلقة لنشكرنك على نعمائك ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية[3] شركاء مع خالقه فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله؟ قال القرطبي: وجمع الضمير بالواو

---

(١) الفخر الرازي ١٥/٨٤. (٢) أبو السعود.

(٣) ذهبت إلى هذا الرأي لجلالته ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في آدم وحواء وأن هذا هو المعني بقوله تعالى ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعني إبليس، ورووا في ذلك أحاديث وآثارًا منها ما روي عن سمرة مرفوعًا قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان، رواه أحمد والترمذي. قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه، وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعّف ما ورد من آثار لم يروَ سنده عن المعصوم أنه قال: كأن هذا من بعض أهل الكتاب ويحكى ... ثم قال ابن كثير: وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد المشركون من ذريته ولهذا قال بعده ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أقول: وهو الحق الذي لا غبار عليه.

والنبوة، لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس[1] ﴿ولا يستطيعون لهم نصرًا﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي ولا يدفعون عن أنفسهم من أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ أي إن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد؛ لأنها جمادات ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم. قال ابن كثير: يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا﴾[2] ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناسي أكمل منها؛ لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك ولهذا قال: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أمر على جهة التعجيز والتبكيت أي ادعوهم في جلب نفع أو دفع ضر إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة[3] ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام أرجل تمشي بها ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ أي أم هل لهم أيد تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء ﴿أم لهم أعين يبصرون بها﴾ أي أم هل لهم أعين تبصر بها الأشياء؟ ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات؟ والغرض بيان جهلهم وسفه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابديها شيئًا؛ لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه. والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحصل منه فائدة أبدًا لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة؟! ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ أي قل لهم يا محمد ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها علي ﴿ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أي ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والضرر بي ولا تمهلوني طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله. قال الحسن: خوفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يحاجهم بذلك ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب﴾ أي الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل علي القرآن ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين

---

(1) القرطبي 7/343. (2) المختصر 2/76

(3) قال الحافظ ابن كثير: أسلم معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطبًا، وكان لعمرو بن الجموح - وهو سيد قومه - صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأنشأ يقول:

تالله لو كنت إلهًا مستدن … لم تك والكلب جميعًا في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدًا

بالنصر والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ أي وإِن تدعوا هذه الأصنام إِلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإِمداد ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر، لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال ابن كثير: وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ: إِن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك وتصل من قطعك ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم، قال القرطبي: وهذا وإِن كان خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام فهو تأديب لجميع خلقه[1] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي وإِما يصيبنك يا محمد طائف من الشيطان بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستجر بالله والجأ إِليه في دفعه عنك ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقول عليم بما تفعل ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي إِذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي إِخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإِن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يُمسكون ولا يكفّون عن إِغوائهم ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أي وإِذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلاّ اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك؟! وهو تهكم منهم لعنهم الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس الأمر إِليَّ حتى آتي بشيء من عند نفسي وإِنما أنا عبدٌ أمتثل ما يوحيه الله إِليّ ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي هذا القرآن العظيم حجج بينة، وبراهين نيرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبصر الحق ويُدرك ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ أي وإِذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إِعظاماً للقرآن وإِجلالاً ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي واذكر ربك سراً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي متضرعاً إِليه وخائفاً منه ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي وسطاً بين الجهر والسر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي في الصباح والعشي ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي ولا تغفل عن ذكر الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي

(1) القرطبي ٧/٣٤٧

الملائكة الأطهار ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وله يسجدون﴾ أي لا يسجدون إلا له.

البلاغة:

١- ﴿كأنك حفي عنها﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

٢- ﴿فلما تغشاها﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة.

٣- ﴿ألهم أرجل يمشون بها..﴾ إلخ هذا الأسلوب يسمى (الإطناب) وفائدته زيادة التقريع والتوبيخ.

٤- ﴿ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ شبه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة.

٥- ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ فيه تشبيه بليغ وأصله: هذا كالبصائر حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ، ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبب على السبب لأن القرآن لما كان سببًا لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة.

تنبيه: حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: إن هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك، فهذه فائدة الاستعاذة.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف

بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن، حتى سماها بعض الصحابة (سورة بدر) لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة، وحزم وصمود.

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عُددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، ومنها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقويت شوكته، وامتد سلطانه، فلا بد له من يوم يخر فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين، وهزيمة للمشركين.

* وفي ثنايا سرد أحداث الغزوة تبدأ النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

* أما النداء الأول فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

* وأما النداء الثاني فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب للدعوة الحق.

● وأما النداء الثالث : فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . .﴾ الآية .

● وأما النداء الرابع . فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله ، وخيانة للأمة أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

● وأما النداء الخامس . فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكّرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغي ، والهدى والضلال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

● وأما النداء السادس . وهو النداء الأخير فقد وضح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

● وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تباعدت ديارهم واختلفت أجناسهم فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ .

● هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ . . إلى . . لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٣) .

اللغة : ﴿الْأَنْفَالِ﴾ الغنائم جمع نفل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان ، وتسمى صلاة التطوع نفلاً ، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد :

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نفَلْ وبإذنِ اللهِ ريْثي والعَجَلْ

﴿وَجِلَتْ﴾ الوجل : الخوف والفزع ﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ الشوكة : السلاح وأصلها من الشوك قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة الحد يقال : ما أشد شوكة بني فلان أي حدهم[1] ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾

---

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٤ .

وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

التفسير: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي؟ وكيف تقسم؟ ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي قل لهم: الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين[1] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيباً منه جل وعلا ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2] أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في البحر: أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن[3] ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

(١) التسهيل ٢/٦٠

(٢) قال ابن الخطيب: اقرأ هذه الآية وانظر ما كل مؤمن، وليعرضها على نفسه، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليحمد الله على ما آتاه الله من فضل، وما وهبه من خير، وإن وجدها في واد وهو في واد فالملجأ إلى الرحيم الودود، ليجاز إلى اللطائف الخفية، وأن يمنحني قلبه ويزيده إيماناً وإدراكاً، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فنعم القريب ونعم المجيب. ولكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية.

(٣) البحر ٤/٤٥٧

يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيمانًا حقًا لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ الكاف تقتضي مشبهًا قال ابن عطية: شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[1] فيها والمعنى: حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب، وقال الطبري: المعنى: كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين؛ كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبين، والحق الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبينوه هو القتال[2] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ أي والحال أن فريقًا منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفًا من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان، وكان جدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال البيضاوي: أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[3] ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة إما العير أو النفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محملة بتجارة قريش قال المفسرون روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشًا، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاء النجاء، عيركم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبدًا، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدرًا، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال: امض بنا لما شئت فإنا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر لمصارع القوم[4] ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ

(١) الطبري ٤/٤٦٤.
(٢) الطبري ١٣/٣٩٣.
(٣) البيضاوي ص ٢٠٩.
(٤) البيضاوي ص٢٠٩ بتصرف.

بكلماته﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم، قال في البحر: والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، وإعلاء الحق، والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكهم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأذلهم وأعزكم[1] ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث والنصر على المشركين، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني ممدكم بألف من الملائكة ﴿مردفين﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال المفسرون: ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[2] ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعُددكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يغلب يفعل ما تقتضي به الحكمة ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى، وهذه معجزة للرسول ﷺ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت الشجرة ويبكي حتى أصبح»[3] قال ابن كثير: وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[4] ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ نعمة ثانية أخرى، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿ليطهركم به﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، قال البيضاوي: روي

---

(١) البحر ٤/٤٦٣. (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١٠٨.
(٣) رواه أبو يعلى. (٤) المختصر ٢/٩٦.

المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ أي ذلك(١) الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ هذا خطاب لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر، وهذا على سبيل التهكم بهم قال الطبري: في رواية الزهري: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم فأحنه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره ونهيه كما حدث من بعض الناس ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعهم كلا سماع لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي شر الخلق وشر البهائم التي تدب على وجه الأرض ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الصم الذين لا يسمعون الحق، والبكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صم بكم عما جاء به محمد، وخرجوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشر من الكلاب والخنازير والحمير، لأنهم لم ينتفعوا من حواسهم فصاروا أخس من كل خسيس ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو فرض أن الله أسمعهم -وقد علم أن لا خير فيهم- لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

البلاغة:

١- ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

٢- ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة.

٣- ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ التشبيه تمثيلي

---

(١) ﴿ذلكم﴾ مبتدأ حذف خبره تقديره: ذلكم الأمر الذي حدث حق.

الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ...﴾ الآية ثم نزلت توبته[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعوة الله ورسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تحيون الحياة الأبدية قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة[٢] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان[٣]. قال أبو حيان: وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف

(١) روح المعاني للألوسي ٩/١٩٤. (٢) الطبري ١٣/٤٦٨.
(٣) روح المعاني ٩/١٩٩.

سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى: اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمك بين القبائل ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيرًا قال الطبري في روايته عن ابن عباس: إن نفرًا من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من العرب سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا: أجل فادخل، فقال انظروا في شأن هذا الرجل -يعني محمدًا ﷺ- فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ما هذا لكم برأي، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم ليجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم، قالوا: صدق فانظروا رأيًا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا جلدًا، ثم نعطي كل واحد سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن له بالهجرة، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي قالوا مكابرة وعنادًا: قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى قال أبو السعود: وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، كيف لا، ولو استطاعوا لما تأخروا! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين؟ وقرعوا على العجز، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان[2] ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقًا منزلاً من عندك

---

(١) الطبري ١٣/ ٤٩٥

(٢) أبو السعود ٢/ ٢٣٦

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزل علينا حاصبًا وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[1] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكرامًا لك يا محمد، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن عباس: لم تعذب أمة قط ونبيها فيها[2] والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة[3] ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان برًّا تقيًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء، والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة، ولكن الله رفعه عنهم إكرامًا لرسوله عليه السلام، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيرًا وتصفيقًا، وكانوا يفعلونهما إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون[4] ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولحرب محمد عليه السلام، قال الطبري: لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجع فلّهم إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم

---

(1) المختصر ٢/١٠٦.
(2) البحر ٤/٤٨٩.
(3) الرازي ١٥/١٥٨.
(4) الطبري ١٣/٥٢٤.

وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا فنزلت الآية[1] ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يؤملونه من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يجعل الكفار بعضهم على بعض ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي يجعلهم كالركام متراكباً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، قال ابن عباس: الفتنة: الشرك. أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[2] ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام الأوحد، واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل[3] لقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يغلب من نصره الله.

البلاغة:

١ - ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية، شبه تمكنه تعالى من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، وهي استعارة لطيفة

---

(1) الطبري ١٣/٥٣٢. (2) الطبري ١٣/٥٣٨. (3) روح المعاني ٩/٢٠٧.

٢- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تآمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام.

٣- ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق (المشاكلة) بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر، والمشاكلة أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم(١).

٤- ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية (التصفير والتصفيق) موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله، وهو على حد قول القائل «تحية بينهم ضرب وجيع».

٥- ﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ «الخبيث» و «الطيب» طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»(٢).

لطيفة: حكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، فسكت معاوية رضي الله عنه.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ... إلى ... يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠).

المناسبة: لما أمر تعالى بقتال المشركين، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها، ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة (غزوة بدر).

اللغة: ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ عدوة الوادي: جانبه وحافته، والدنيا: مؤنث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ القصوى تأنيث الأقصى أي الأبعد، وكل شيء

---

(١) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ من سورة البقرة.
(٢) مختصر ابن كثير ٢/٩٥.

المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قال الحسن: هذا مفتاح كلام، الدنيا والآخرة لله[1] أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية والباقي يوزع على الغانمين ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم، والفقراء من ذوي الحاجة، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، ومنه نصركم مع قلتكم وكثرتهم ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب إلى المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[2] قال الرازي: المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضًا لقلتكم وكثرتهم[3] ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله أمرًا ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، فكان أمرًا محققًا واقعًا لا محالة قال أبو السعود: والغرض من الآية أن يحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعًا من أمر الله عز وجل خارقًا للعادات، فيزدادوا إيمانًا وشكرًا، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[4] ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان[5] فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله

---

(١) القرطبي ٨/١٠. (٢) الطبري ١٣/٥٦٦. (٣) تفسير الرازي ١٥/١٦٦.

(٤) أبو السعود ٢/٢٤٠.

(٥) ذهب الطبري إلى أن المعنى: ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وليعيش منهم من عاش عن حجة الله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها، وما ذهبنا إليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

في المنام أعداءك قلة، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغير أحوالها من الشجاعة والجبن، والصبر والجزع ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم، وقللكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال ابن مسعود: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة؟[1] وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثّر الله المؤمنين في أعين الكفار فبهتوا وهابوا، وفُلَّت شوكتهم، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي فعل ذلك ليجرّئ المؤمنين على الكافرين، والكافرين على المؤمنين، فتقع الحرب ويلتحم القتال، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرفها كيف يريد، لا معقب لحكمه وهو الحكيم الحميد. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ويدخلكم الوهن والخور ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها فإن الله مع الصابرين بالعون والنصر ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتوّاً وتكبّراً، وطلباً للفخر والثناء، والآية إشارة إلى قول أبي جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان -المغنيات- وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً[2] قال الطبري: فسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا[3]، وناحت عليهم النوائح مكان القيان

(١) الطبري ١٣/٥٧٣
(٢) ذكر الطبري في رواية عن ابن عباس أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى قريش يقول: ارجعوا فقد سلمت عيركم وتجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال
(٣) الطبري ١٣/٥٧٨

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي واذكر وقت أن حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هاربًا موليًا الأدبار ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ أي بريء من عهد جواركم، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث «ما رؤي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزع الملائكة»[1] أي يصفها للحرب ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة «سراقة بن مالك» فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبرًا وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2] ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمرًا فظيعًا وشأنًا هائلًا قال أبو حيان: وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم[3] أي لرأيت أمرًا فظيعًا لا يكاد يوصف ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم ومن خلفهم، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل: كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم نارًا[4] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب، وصيغة «ظلام» ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوبًا إلى الظلم فقد

---

(١) رواه مالك في الموطأ.
(٢) مختصر ابن كثير ٢/١١٦.
(٣) البحر ٤/٥٠٦.
(٤) البيضاوي ص ٢٤٥.

لنفي أصل الظلم عنه تعالى تنبيه ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقتهم التي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي ذلك الذي حل بهم من العقاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب (١) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغير الله نعمته عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها للعذاب ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد (٢) ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق (٣) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى: اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على

---

(١) القرطبي ٨/٢٩.
(٢) زاد المسير ٣/٣٧٦.
(٣) التفسير الرازي ١٥/١٦٢.

لاختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً [1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يعجزون ربهم، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية قال الشهاب: وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان [2] ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد: هم المنافقون وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تعطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً.

البَلاَغَة:

١ - ﴿مِن شَىْءٍ﴾ التنكير للتقليل.
٢ - ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ذكره بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم.
٣ - ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بين لفظ (الدنيا) و(القصوى) طباق.
٤ - ليهلك ويحيا استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان، وبين (يهلك) و(يحيا) طباق.
٥ - ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً.

تنبيه: يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء، وقد جاء التعبير عاماً ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ ليشمل القوة المادية، والقوة الروحية، وجميع أسباب القوة، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندها معامل للأسلحة، وذخائر للحرب، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة.

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٣٢. (٢) محاسن التأويل ٨/٣٠٢٤.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ... إلى ... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من آية (٦١) إلى آية (٧٥) نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمرنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان، وحماية الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان.

اللغة: ﴿جنحوا﴾ مالوا يقال: جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿لِلسَّلْمِ﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري: وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جُرَع[1]

﴿حَرِّضِ﴾ التحريض: الحث على الشيء، وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يُثْخِنَ﴾ قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه، وأثخنته الجراح، والثخانة: الغلظة، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات[2].

سبب النزول:

[أ] عن عمر رضي الله عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا فقال رسول الله: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال ﷺ: «أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..﴾[3] الآية.

---

(١) الكشاف ٢/٢٣٣. (٢) الفخر الرازي ١٥/٢٠١.
(٣) زاد المسير ٣/٣٨٠ وطرفه لمسلم.

وهو حسبك، ثم ذكّره بنعمته عليه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قوّاك وأعانك بنصره، وشدّ أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حبًّا، وبالتباعد قربًا قال القرطبي: وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألّف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[1]. ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضًا ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفّق، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئًا إلا عن حكمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري: المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[2] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حرّض المؤمنين ورغّبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال أبو السعود: هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[3] والمعنى: إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم، بعون الله وتأييده ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وإن يوجد منكم مائة - بشرط الصبر عند اللقاء - تغلب ألفًا من الكفار بمشيئة الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الباء سببية أي بسبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب، ولا طلب ثواب، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضًا، ثم لما شق ذلك عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضًا ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يغلبوا مائتين من الكفرة ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يغلبوا ألفين من الأعداء ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم

---

(1) القرطبي ٨/ ٤٣.

(2) القول الأول معناه: حسبك الله وحده، وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة زاد المعاد بأدلة مقنعة، والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين، والأول أرجح.

(3) تفسير أبي السعود ٢/ ٢٤٧.

اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فقوّاك ونصرك عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكّنك منهم أيضًا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقتضي به حكمته البالغة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدّقوا الله ورسوله ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أي تركوا وهجروا البلاد والأوطان حبًّا في الله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله، وهم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإرث، ولهذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ذكر الله تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، والأنصار، والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنّى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب عليه قوة الكفار وضعف المسلمين، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون: ليس في هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذه تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي أصحاب

القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء: هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي أحاط بكل شيء علماً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم للسورة في غاية البراعة.

البلاغة:

١ - ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ هذا الأسلوب يسمى بالإطناب وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين.

٢ - ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ . . الآيات قال في البحر: انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة، وحذفه من الأولى، ولما كان الصبر شديد المطلوب أثبت في جملتي التخفيف. ثم ختمت الآيات بقوله ﴿والله مع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبية، وهذا النوع من البديع يسمى (الاحتباك)[1] فانظر إلى التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته!!

تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال.

(١) البحر المحيط (٤/٥١٦).

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[1]، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام[2]. نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ (غزوة تبوك) وكانت في حر شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان - إلى جانب الأحكام الأخرى - هما:

أولاً: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانياً: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وكذلك فعل اليهود (بنو النضير) و(بنو قريظة) و(بنو قينقاع) ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ فنقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين والمشركين من صلات، فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان، بعد أن منحهم الله فرصة كافية في السياحة في الأرض أربعة أشهر يتنقلون فيها آمنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرونه من المصلحة لهم، وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) البخاري ٨/٣٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٦٢٣.

وَرَسُولُهُ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... ﴾ الآيات.

* ثم تلتها الآيات في قتال المتعصبين لليهودية من أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .. الآية، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها الستار عن خفايا أهل الكتاب، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، وحقد على الإسلام والمسلمين.

* وعرضت السورة للهدف الثاني، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دسيسة إلا كشفتها، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءًا من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ .. إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [1] ولهذا سماها بعض الصحابة (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل: ومنهم، ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحدًا [2]، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدًا من المنافقين إلا نالت منه [3]، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها، قال ابن عباس: سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟ فقال: لأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين [4].

وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت (الطابور الخامس) المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم (المنافقون) الذين هم أشد خطرًا من المشركين، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم ديّارًا، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله أوكارًا للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين، في مسجدهم الذي عُرف باسم (مسجد الضرار) وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) الآيات من (٤٢ - ١١٠) وهكذا يكون جل السورة في النفاق والمنافقين.
(٢) القرطبي (٨/٦١).
(٣) الكشاف (٢/١٤١).
(٤) القرطبي (٨/٦٣).

محاسنا؟ فقال: وهل لكم محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني – الأسير – فنزلت هذه الآية ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ... ﴾ الآية (١).

﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴿١﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴿٢﴾ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴿٣﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴿٤﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴿٥﴾ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴿٦﴾ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴿٧﴾ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴿٨﴾ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿٩﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴿١٠﴾ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿١١﴾ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴿١٢﴾ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴿١٣﴾ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴿١٤﴾ ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴿١٥﴾ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴿١٦﴾ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ﴿١٧﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿١٨﴾ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٩﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿٢٠﴾ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴿٢١﴾ خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴿٢٢﴾﴾.

التفسير: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٠٤).

عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة، فقام علي ينادي في الناس بأربع: ألا يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم مكروه، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي مذلهم في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ أي إعلام إلى كافة الناس بتبرؤ الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يوم الحج الأكبر﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري: وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[1] ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي إعلامهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغي والضلال، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً، ولا تعجزونه هرباً ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم قال أبو حيان: جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم[2] ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم قال في "الكشاف": وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر[3] ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ أي لم ينقضوا من شروط العهد شيئاً ﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وفوا لهم العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين بعهودهم قال البيضاوي: هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى[4] قال ابن عباس: كان قد بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم إليهم عهدهم ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها القتال ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي اقتلوهم في أي مكان أو زمان من حل أو حرم، قال ابن عباس: في الحل والحرم وفي الأشهر الحرم[5] ﴿وخذوهم﴾ أي بالأسر ﴿واحصروهم﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب

---

(١) الكشاف ٢/١٧٤.
(٢) البحر ٥/٦.
(٣) الكشاف ٢/١٧٦.
(٤) البيضاوي ٢٤٨.
(٥) زاد المسير ٣/٣٩٩.

في البلاد قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر : وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال[1] ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي أمّنه حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمّنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر[2] أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس النيل من الكافرين، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيسلموا، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي ثم إن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا، ثم بيّن تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد أي كيف يكون لهم عهد معتدٌ به عند الله ورسوله، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس : هم أهل مكة وقال ابن إسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم[3] ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال الطبري : أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء[4] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب من اتقى ربه ووفى بعهده، وترك الغدر والخيانة ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان : وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد[5] ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه قال

---

(١) البحر المحيط (٥/١٠).

(٢) الكشاف (٢/٢٤٨).

(٣) البحر (٥/١٢).

(٤) الطبري (١٠/٨١).

(٥) البحر (٥/١٣).

الطبري: المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم[1] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضًا يسيرًا من متاع الدنيا الخسيس ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهدًا ولا ذمة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف القبيحة هم المتجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في الإسلام، قال البيضاوي: وهو متعلق بـ(قاتلوا) أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[2] ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قومًا نقضوا العهود وطعنوا في دينكم؟ ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة، والبادئ أظلم، فما يمنعكم أن تقاتلوهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفًا على أنفسكم منهم؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري: يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه[3]. ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فبقتالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي يذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس: هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرًا فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب»[4] ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي يذهب ما بها

---

(١) الطبري (١٠/٨٥).
(٢) البيضاوي (ص ٢٤٦).
(٣) الكشاف (٢/٢٥٢).
(٤) البحر المحيط (٢/٢٥٨).

من غيظ، وغمّ، وكرب، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور، وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين مما يمن الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال الرازي: أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد، فكيف بها إذا اجتمعت؟[1] ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال أبو السعود: ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[2] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يُعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه! ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه تعالى يعلم ذلك غيبًا فأراد إظهار ما عُلم ليجازي على العمل ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين، والغرض من الآية: أن الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئًا من المساجد ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك) يعنون الأصنام، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام[3] والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافرين: عمارة مساجد الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبدًا ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحدًا سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس: كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يقول: إن ربك سيبعثك مقامًا محمودًا وهي الشفاعة[4] قال أبو حيان: وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ

---

(١) الفخر الرازي (١٦/ ٣).
(٢) أبو السعود (٢/ ٢٥٨).
(٣) الصاوي على الجلالين (٢/ ١٤٦).
(٤) الطبري (١٠/ ٩٤).

من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة[١] ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الخطاب للمشركين[٢] ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ وهو رد على العباس حيث قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي الحاج فنزلت قال الطبري : هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهاد في سبيله[٣] ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يشبه المشركين بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٤] ثم قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان كبير من رب عظيم ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان: لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، والرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، وثنّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثلّث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان[٥] وقال الألوسي: ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيم مقيم جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ،

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٠).
(٢) انظر أسباب النزول.
(٣) الطبري (١٠/ ٩٤).
(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٠).
(٥) البحر (٥/ ٢١).

الذي هو علامة من العذاب[1].

البلاغة:

١- ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ التنوين للتفخيم والتقييد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل.

٢- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا يسمى «الأسلوب التهكمي» لأن البشارة بالعذاب تهكم به.

٣- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ شبه مضي الأشهر وانقضاءها بالانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة.

٤- ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

٥- ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم.

٦- ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما.

٧- ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف.

فائدة:

عمارة المسجد نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية بالتشييد والبناء، والمعنوية بالصلاة وذكر الله، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2] فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله.

لطيفة:

ذكر القرطبي أن أعرابيًا قدم المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى بالآية الكريمة ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقرأها عليه بجر «وَرَسُولِهِ» فقال الأعرابي: وأنا أيضًا أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال يا أمير المؤمنين: قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال: ما هكذا الآية يا أعرابي! قال: فكيف يا أمير المؤمنين؟ فقرأها عليه بالضم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالم بلغة العرب[3].

---

(١) روح المعاني ١٠/ ٧٠.
(٢) رواه الترمذي
(٣) القرطبي (٨/ ٧١).

عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود: (إذا سمعت الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه) والمعنى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً توادونهم وتحبونهم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك(١) ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان والزوجات ومن سواهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي منازل تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة، وهذا وعيد لمن آثر أهله أو ماله أو وطنه على الهجرة والجهاد، ثم ذكّرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة وحروب عديدة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم لن نغلب اليوم من قلة، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي وضاقت الأرض على رحبها وسعتها بكم من شدة الخوف ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال الطبري: يخبرهم تبارك

(١) القرطبي ٨/ ٩٤.

دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام : «أليس يحرمون ما أحلّ الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلونه؟» فقلت : بلى ، قال : «فتلك عبادتهم»(١) ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى ربًا معبودًا ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علوًا كبيرًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة، بمجرد جدالهم وافترائهم، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياء، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي ويأبى الله إلا أن يعليه ويرفع شأنه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي أرسل محمدًا ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره.

البلاغة:

١ - ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

٢ - ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

٣ - ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة.

٤ - ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغًا ومثله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل.

٥ - ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ﴾ عبر عن الدخول بالقرب للمبالغة.

٦ - ﴿يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أراد به نور الإسلام لأن الإسلام بنوره المضيء، وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة. وهي من لطائف الاستعارات.

لطيفة:

قال العلامة القرطبي دل قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، وقد أنشدوا في ذلك أبياتًا:

يقولون لي دار الأحبة قد دنت ... وأنت كئيب إن ذا لعجيب

---

(١) الآلوسي ١٠/٨٤.

فقلت وما نفسي بمنذر قريبة ... إذا لم يكن بين القلوب قريب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ... إلى ... فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ من آية (٣٤) إلى نهاية آية (٤٥).

المناسبة: لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا، وذلك نهاية الذل والدناءة. ثم ذكر تعالى فرضية قتال المشركين، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله.

اللغة: ﴿الْأَحْبَارِ﴾ علماء اليهود ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها[1]

﴿يَكْنِزُونَ﴾ أصل الكنز في اللغة: الضم والجمع ومنه حديث "ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة" أي يضمه لنفسه ويجمعه، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال الطبري: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها[2] ﴿فَتُكْوَى﴾ الكي: إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد، وفي الأمثال (آخر الدواء الكي) ﴿النَّسِيءُ﴾ التأخير يقال: نسأه وأنسأه إذا أخره ومنه حديث "من سره أن ينسأ له في أثره" أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري: النسيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ أي ليوافقوا والمواطأة: الموافقة يقال: تواطأ القوم: إذا اتفقوا على أمر معين ﴿انْفِرُوا﴾ النفر: الخروج بسرعة ومنه ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أصله تثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عَرَضًا﴾ العرض: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث "الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر" ﴿الشُّقَّةُ﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري: الشقة السفر البعيد[3] وكأنه مأخوذ من المشقة يقال: شقة شاقة.

سبب النزول:

لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين، أمر الناس بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس، وجدب من البلاد، وشدة من الحر، حين أثمرت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ...﴾ الآية[4].

---

(١) القرطبي (١٢٠/٨).
(٢) الطبري (١١٦/١٠).
(٣) القرطبي (١٥٤/٨).
(٤) أسباب النزول للواحدي ص ١٤١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إنَّ كثيراً من علماء اليهود (الأحبار) وعبّاد النصارى (الرهبان) ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام قال ابن كثير: والمقصود التحذير من علماء السوء، وعبّاد الضلال، قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شبه من النصارى(١) ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرونها ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا ينفقون منها في وجوه الخير قال ابن عمر: الكنز ما لم تؤد زكاته، وما أديت زكاته فليس بكنز ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري: وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله، سواء

(١) المختصر (٢/ ١٣٨).

في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[١] ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[٢]، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبينه، فإذا حاذاه أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره، قال القرطبي: الكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[٣] ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي: (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب) وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الشرع المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم قال المفسرون: كان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر المحرم الأربعة

(١) الكشاف (٢/ ٢٦٦). (٢) الطبري (١٠/ ١٢٤).
(٣) القرطبي (٨/ ١٢٩).

﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: أيها الناس إني لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا المحرم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل فيقول: إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾[1] ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه؟! ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له، ثم توعدهم على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم عذابًا أليمًا موجعًا، باستيلاء العدو عليكم، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم[2] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستبدل قومًا آخرين خيرًا منكم، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأسرع ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ ولا تضروا الله شيئًا بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال الرازي: وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل[3] ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره الله دل عليه قوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ والمعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجرًا إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطمينًا وتطييبًا: لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت يا رسول الله: لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر، ما ظنك

(١) الطبري (١٠/١٣١).
(٢) الطبري (١٠/١٣٦)
(٣) الرازي (١٦/٦٦)

الكاذب المنافق قال مجاهد: نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[1] فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يستأذنك يا محمد في الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي كراهية للجهاد بالمال والنفس لأنهم يعلمون ما أعد الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه؟ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي شكت قلوبهم في الله ورسوله فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون.

البلاغة

١ - ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ.

٣ - ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذاتها بدلاً من نعيم الآخرة.

٤ - ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة.

٥ - ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ «كلمة الذين كفروا» استعارة عن الشرك كما أن «كلمة الله» استعارة عن الإيمان والتوحيد.

٧ - ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس.

٩ - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ خبر يقصد به تقديم المسرة على المغفرة وقد أحسن من قال: إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب.

فائدة

روي أن أعرابياً قال لابن عمر: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر: من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزكيه، وأعمل فيه

(١) الطبري (١٠/ ١٤٢).

بطاعة الله تعالى[1]!!

تنبيه: دلت الآية ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار، ورفيقه في الهجرة، ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى.

لطيفة

عن حيان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، فرأيت شيخًا كبيرًا هرمًا، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي: استنفرنا الله خفافًا وثقالاً، إلا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل[2].

أقول: رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى.

□□□

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ... إلى ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٠)

المناسبة: لما ذكر المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد، والمكر، وإثارة الفتن بين المسلمين، والفرح بآلامهم، وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفًا وانهيارًا بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة، وذكر كثيرًا من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة

اللغة: ﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث: الانطلاق في الأمر ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ التثبيط: رد الإنسان عن الفعل الذي هم به ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الشر والفساد في كل شيء، ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ الإيضاع: سرعة السير قال الراجز:

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع

يقال: وضع البعير إذا أسرع السير، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيرًا حثيثًا[3] ﴿يَجْمَحُونَ﴾ جمح: نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يَلْمِزُكَ﴾ اللمز: العيب يقال: لمزه إذا عابه قال الجوهري: وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لماز أي عياب[4] ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الغارم: المديون قال الزجاج: أصل الغرم لزوم ما يشق، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غرامًا لكونه أمرًا شاقًا ولازمًا، وسمي الدين غرامًا لكونه

---

(١) رواه ابن ماجه
(٢) الطبري (١٠/ ١٣٨)
(٣) الرازي (١٦/ ٨٦)
(٤) الصحاح للجوهري.

شاقًا على الإنسان (١).

سبب النزول:

لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى تبوك قال «للجد بن قيس» - وكان منافقًا - «يا أبا وهب: هل لك في جلاد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء؟» فقال: يا رسول الله لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وائذن لي في القعود وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: «قد أذنت لك» فأنزل الله ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ (٢) الآية.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ۝ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ۝ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ۝ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ۝ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ۝ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ۝ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ۝ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ۝ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ۝ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ۝ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ۝ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ۝ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ۝ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ۝ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

التفسير: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فثبطهم﴾ أي كسر عزمهم وجعل في نفوسهم الكسل ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ أي اجلسوا مع المتخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج

(١) البحر ٥/ ٤٥.
(٢) أسباب النزول ص ١٤٣.

لمجهوده والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والضرر، ولهذا قال ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شرًّا وفسادًا ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم ضعفة القلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم(١) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالم بالمنافقين علمًا محيطًا بضمائرهم وظواهرهم ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي طلبوا لك الشر وتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي دبروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس: نزلت في (الجد بن قيس) حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر فقال: يا رسول الله ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء(٢) ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال أبو السعود: وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين(٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، وفيه وعيد شديد ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة، سواء كانت ظفرًا أو غنيمة، يسؤهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة، أو هزيمة، مكروه يفرحون به ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحصل هذا البلاء ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون(٤) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة،

---

(١) هذا قول قتادة ومجاهد، وقيل معناه: وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير.

(٢) انظر أسباب النزول. (٣) أبو السعود ٢/٢٧٥.

(٤) قال القرطبي: المعنى: يعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بما نالوا.

وكل واحدة منهما شيء حسن!! ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي ونحن ننتظر بكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به شأفتكم، أو يقتلكم بأيدينا ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن منتظر ما يحل بكم، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي قل لهم أنفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال الطبري: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعًا أو كرهًا[1] ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرمًا قال في البحر: ذكر تعالى سبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر، وأتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون، لأنهم لا يرجون بذلك ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما: الصلاة، والنفقة، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[2] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال البيضاوي: يعذبهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[3] ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين، فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصنًا يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي مكانًا يدخلون فيه ولو ضيقًا ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعًا كالفرس الجموح، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا

---

(١) الطبري (١٠/١٥٢). (٢) البحر المحيط (٥/٥٣).
(٣) البيضاوي (ص ٢٦٦).

رَضُوا﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاءه رجل من المنافقين يقال له ذو الخويصرة فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟»[1] الحديث ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلّت قال أبو السعود: وذكرُ الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[2] ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيرًا وأكثر مما آتانا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه راغبون، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لكان خيرًا لهم قال الرازي: وترك الجواب في هذا المعرض أدلّ على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل: لو جئتنا .. ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمرًا عظيمًا[3]، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قال الطبري: أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه[4] والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم، والفقير الذي له بلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس: سألت أعرابيًا أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، وقيل: المسكين أحسن حالاً من الفقير، والمسألة خلافية ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ[5] ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وفي فك الرقاب بتخليصهم من الرق ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ أي المدينين الذين أثقلهم الدين ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في التسهيل: وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه الآية في المعنى بآية اللمز في الصدقات[6].

البلاغة:

١ - ﴿أَنفِقُوا .. نَفَقَةً﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

---

(١) روح المعاني (١٠/١١٩) (٢) أبو السعود (٢/٢٧٧)

(٣) الرازي (١٦/٩٩) (٤) الطبري (١٠/١٥٧).

(٥) الطبري (١٠/١٦٣) (٦) التسهيل (٢/٧٩)

٢- ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ قال الطيبي: فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم(١).

٣- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار.

٤- ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥- ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الحصر، وإظهار الاسم الجليل مكان الإضمار لتربية الروعة والمهابة.

٦- ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

٧- ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة.

لطيفة

قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت(٢) على حد قول القائل:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تنبيه: قال ابن كثير: لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(٣).

❑ ❑ ❑

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... إلى ... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ من آية (٦١) إلى نهاية آية (٧٤).

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ وإقدامهم على الأيمان الكاذبة واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة.

اللغة: ﴿أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه

(١) روح المعاني (١٠/١٤٢). (٢) الكشاف (٢/٢٧٦).
(٣) مختصر (٢/١٤٢).

الواحد والجمع(1) وقال الزمخشري: الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع(2). قال الشاعر:

قد صرت أذنًا للوشاة سميعة ... ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

﴿يُحَادِدِ﴾ المحادة: المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿خَلَاقِهِمْ﴾ الخلاق: النصيب كقوله ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وقد تقدم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ الخوض: الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ الائتفاك: الانقلاب والمراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتفكت بهم أي انقلبت، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي:

وما الخسف أن تلقى الساعي ببلدة ... أمانيها بل أن تسود الأراذل

سبب النزول:

أ- كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ﷺ ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال (الجلاس بن سويد): نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ...﴾ الآية(3).

ب- قال مجاهد: كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية(4).

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

(1) الصحاح للجوهري. (2) الكشاف (٢٨٤/١).
(3) أسباب النزول ص ١٤٣. (4) زاد المسير (٤٦٣/٣).

وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

التفسير: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصدّق بكل خبر يسمعه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدّق الله فيما يقول، ويصدّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي والحال أن الله تعالى ورسوله أحق بالإرضاء، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة، والمتابعة، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا الله ورسوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول، والاستفهام للتوبيخ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الذل العظيم، والشقاء الكبير: المقرون بالفضيحة حيث يفضحون على رؤوس الأشهاد ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي مظهر ما تحذرونه وتخافون ظهوره من النفاق، قال الزمخشري: كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، حتى قال بعضهم: والله لا أرى إلا شر خلق الله، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[1] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألتهم يا

(١) الكشاف (٢٨٦/٢)

محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، في حقك وفي حق الإِسلام، ليقولون لك ما كنا جادين، وإِنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال الطبري: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إِلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: انظروا إِلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات!! فأطلع الله نبيه ما قالوا فقال: «قلتم كذا وكذا» فقالوا يا نبي الله إِنما كنا نخوض ونلعب فنزلت[١] ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ والاستفهام للتوبيخ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإِنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم، فقد أظهرتم الكفر بإِيذاء الرسول بعد إِظهاركم الإِيمان ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ أي إِن نعف عن فريق منكم لتوبتهم وإِخلاصهم ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإِجرام ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإِيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في الكشاف: وأريد بقوله ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾[٢] ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي، وينهون عن الإِيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الإِنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسي ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان، والخروج عن طاعة الرحمن، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي وعد الله المنافقين والمجاهرين بالكفر بإِصلائهم في نار جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي هي كفايتهم في العقاب، إِذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة إِلى الخطاب ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً، وأكثر أولاداً، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال الطبري: المعنى فعلتم أيها المنافقون فعلهم في الاستمتاع بالدنيا كما تمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، فاحذروا أن يحل بكم

---

[١] هذه رواية قتادة كما في الطبري.

[٢] الكشاف (٢/٢٨٧).

من عقوبة الله مثل الذي حلَّ بهم[1] ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي وأولئك هم الكاملون في الخسران ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ بهم من العقوبة؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود «عاد» الذين أهلكوا بالريح، وقوم صالح «ثمود» الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بجرامهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي يأمرون الناس بكل خير وجميل يرضي الله، وينهونهم عن كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يعطونها بأنفس مستحيية ابتغاء وجه الله ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سيدخلهم في رحمته، ويفيض عليهم جلائل نعمه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب لا يُغلب من أطاعه ويذل من عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة، في النعمة والنقمة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي لابثين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والإقامة قال الحسن: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[2] ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، وفي الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك! فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[3] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال ابن عباس:

---

(١) الطبري (١٠/ ١٧٤). (٢) الكشاف (٢/ ٢٠٩).

(٣) الطبري (١٠/ ١٨٣) والحديث في الصحاح

جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والإِرعاب ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أُبي، وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: (سمّن كلبك يأكلك) فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[1] ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي قول ابن سلول ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإِسلام ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قال ابن كثير: هم نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمن سعادته، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فإِن يرجعوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب.

البَلاَغَة:

١ - ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد.

٢ - ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً (يؤذونه) تعظيماً لشأنه عليه السلام وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين (النبوة والرسالة) وإِضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف[2].

٣ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإِشارة بالبعيد عن القريب للإِيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة.

٤ - ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود والكرم.

٥ - ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته.

---

(١) محاسن التأويل ٨/٣٢٠٤.

(٢) أفاده في البحر ٥/٦٣.

٦- ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب.

٧- ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ . . .﴾ الآية، فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس، عن الشيء النفيس.

٨- ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ . . .﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل «ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم» البيت.

فائدة:

روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وسيف لأهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . . .﴾ وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[1].

لطيفة:

قال الإمام الفخر: لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن عن المنافق، فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات، وإذا أمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويثبط غيره، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل، ويؤتي الزكاة، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين، وصفات المنافقين بقوله ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ كما قابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة[2].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ . . .﴾ إلى . . . ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٣).

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين.

اللغة: ﴿أَعْقَبَهُمْ﴾ قال الليث: يقال أعقبت فلانًا ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك، ويقال: أكل أكلة أعقبته سقمًا أي حصل له بها السقم قال الهذلي:

أودى بني وأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة لا تقلع[3]

﴿سِرَّهُمْ﴾ السر: ما ينطوي عليه الصدر ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ النجوى: ما يكون بين شخصين أو أكثر

---

(١) المختصر (٢/١٥٦).

(٢) تفسير الرازي (١٦/١٣٠) بشيء من التصرف.

(٣) الرازي (١٦/١٤٢).

كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ۝ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ۝ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ۝ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي لنتصدقن على الفقراء والمساكين، ولنعملن فيها عمل أهل الخير والصلاح ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم، وما يخفونه في صدورهم، وما يتحدثون به بينهم؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم، روى الطبري عن ابن عباس قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على

---

(1) الطبري [١٠/١٩٤].

المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبدًا ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله، وهو خبر بمعنى النهي للمبالغة، جارٍ مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي لا تصلِّ يا محمد على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات؛ لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلًا للرحمة ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان، نزلت في ابن سلول [1] ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدق ويقين، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي استأذنك في التخلف أولو الغنى والمال الكثير ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر، قال تعالى تقبيحًا لهم وذمًا: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليها ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ قال الرازي: لما شرح حال المنافقين، بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه [2] والمعنى: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادًا ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي لهم منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين في الجنة أبدًا ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار ليتخلفوا عن الجهاد ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي في ترك الجهاد، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من

---

(١) انظر سبب النزول السابق.

(٢) الرازي ١٦/١٦٧.

أهل المدينة، قال البيضاوي: هم «أسد» و«غطفان» استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم في القعود ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم، ولم يثيروا الفتن، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في التسهيل: وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[2]، وهذا من بليغ الكلام؛ لأن معناه لا سبيل لمعاتب عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال البيضاوي: هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال عليه السلام «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون[3] ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم، ولم يكن عند النبي ما يحملهم عليه ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون.

البلاغة

١ - ﴿يَعْلَمُ﴾ .... و ... ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ بين علم وعلام جناس الاشتقاق.

٢ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين في عذاب للتهويل والتفخيم.

٣ - ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية.

٤ - ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

---

(١) البيضاوي (٢٣٠) (٢) التسهيل (٢/٨٣)

(٣) [illegible]

٥- ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ الخوالف: النساء اللاتي يقعدن في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة. وإنما سمي النساء خوالف تشبيهًا لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن بكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت(١).

٦- ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناء بشأنهم أفاده الألوسي(٢).

فائدة:

قال الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب:

لأصبحن العاص وابن العاصي ... سبعين ألفًا عاقدي النواصي

فذكرها ليس لتحديد العدد، وإنما هو للمبالغة جريًا على أساليب العرب(٣).

تنبيه:

إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين؛ لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له، والكافر ليس بأهل لذلك.

لطيفة:

اشتهر (حذيفة بن اليمان) بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ: «إني مسرٌّ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان» لرهط ذوي عدد من المنافقين، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول: أسألك بالله هل عدّني رسول الله من المنافقين؟!

□□□

قال الله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ... إلى ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١١٠).

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة، وقد ذكر تعالى من مكائد المنافقين (مسجد الضرار) الذي بنوه ليكون وكرًا للتآمر على الإسلام والمسلمين، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه؛ لأنه لم يُبنَ على أساس من التقوى، وإنما بُني ليكون مركزًا لأهل الشقاق والنفاق، ولتفريق وحدة المسلمين، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار.

اللغة: ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ رجعتم ﴿رِجْسٌ﴾ الرجس: الشيء الخبيث المستقذر، وقد يطلق على النجس ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوي إليه ليلاً أو نهارًا ﴿الْأَعْرَابِ﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب، ورجل أعرابي

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي (١٤٨). (٢) روح المعاني (١٠/١٥٩).
(٣) الكشاف (٢/٢٩٥).

معاذيرهم الكاذبة، أي يحلفون لكم بأغلظ الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم، قال أبو السعود: ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة(١) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الأعراب: أهل البدو، أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي وهم أولى بأن لا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في البحر: وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاؤوا، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة(٢) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يَعُدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ومن الأعراب من يصدق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ﴿أَلَا﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة(٣) ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا أرفع المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ويتنافس فيها المتنافسون: أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال الطبري: رضي الله عنهم لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط.

(٣) روي عن الشعبي: أنهم الذين بايعوا بيعة الرضوان، وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وعن عكرمة أنهم جميع الصحابة وهو الأرجح لأنهم سبقوا في الهجرة والنصرة وهو ما رجحه القاضي واختاره الفخر الرازي.

من غير انتهاء ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في البحر: لما بيَّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين بيَّن حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين فهناك قال ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهنا قال ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهناك ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهنا ختم ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي لجُّوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا منهم ابن سلول، والجلاس، وأبو عامر الراهب[2] ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال الرازي[3]: هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال الطبري: وعسى من الله واجب ومعناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت[4] ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ذو عفو لمن تاب، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوزار، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس: ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ رحمة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائك عليم بهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الاستفهام للتقرير أي ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي وأن الله وحده المتفضل بقبول التوبة والرحمة بعباده المؤمنين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي وسترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن

(١) البحر ٥/٩٢.
(٢) الرازي (١٦/١٧٤).
(٣) تفسير ابن الجوزي (٣/٤٩٦).
(٤) الطبري (١١/١٣).

يوفق الظالمين إلى السداد، ولا يهديهم سبيل الرشاد، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإِخلاص والإِيمان، وعمل أهل النفاق والضلال، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإِخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاق، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿والله عليم حكيم﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم.

البلاغة:

١- ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ بين الكلمتين طباق.

٢- ﴿لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ الإِظهار في موضع الإِضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم.

٣- ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل.

٤- ﴿عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ بين «صالحاً وسيئاً» طباق.

٥- ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٦- ﴿جرف هار﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية.

٧- ﴿أسس بنيانه على تقوى﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس[١].

تنبيه:

كلمة «عسى» من الله واجبة قال الإِمام الرازي: والتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة «عسى» أو «لعل» تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمه شيئاً، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإِشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإِهمال[٢].

---

(١) انظر ما كتبه الشريف الرضي في تلخيص البيان حول هذه الآية الكريمة (ص ٤٩) ففيه روائع البيان.
(٢) الرازي ١٦/١٧٦.

﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين، مثّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقدٍ فيه بيع وشراء قال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن[1] وانظروا إلى كرم الله، أنفسًا هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم: ناهيك عن بيعٍ البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم به المولى وعدًا قاطعًا ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي وعدًا مثبتًا في الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري: لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن منه وأبلغ[2] ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابح، وافرحوا به غاية الفرح ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ كلام مستأنف قال الزجاج: مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضًا وإن لم يجاهدوا لقوله ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ والمعنى التائبون عن المعاصي، العابدون أي المخلصون في العبادة، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم، من السياحة وهي السير والذهاب في البلدان والقفار للعظة والاعتبار[3] ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي المصلون ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي الداعون إلى الله، يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام وقال الطبري: أي المؤدون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه[4]

---

(١) الطبري ١١/٣٩، والرازي ١٦/١٩٩. (٢) الكشاف ٢/٢١٤.

(٣) فسّر بعضهم ﴿السَّائِحُونَ﴾ بأنهم الصائمون، وقال عطاء: هم الغزاة، وقال ابن زيد: هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه المحقق الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والله أعلم.

(٤) الطبري ١١/٣٩.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بجنات النعيم، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان المشركون أقرباءهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر، والآية نزلت في أبي طالب(1) ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي إلا من أجل وعد تقدم له بقوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أن أباه مصر على الكفر ومستمر على الكفر، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٌ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان: ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو الوعد الذي كان وعده به، فكان يرجو إيمانه فلما تبين له من جهة الوحي أنه عدو لله، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره(2) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم(3) أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السموات والأرض وملكهما، وكل من فيهما عبيده ومماليكه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم ومماتهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي: لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود، ومتولي أمره، والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى، ليتوجهوا إليه بكليتهم، متبرئين عما سواه، غير قاصدين إلا إياه(4) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك، حيث تباطأ بعضهم، وتثاقل عن الجهاد آخرون، والغرض التوبة على من

---

(1) انظر سبب النزول.
(2) البحر المحيط (٥/١٠٥).
(3) التسهيل (٢/٨٦).
(4) روح المعاني (١١/٣٩).

تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم، وصدرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه، جبرًا لقلوبهم، وتنويهًا لشأنهم، وبعثًا للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[1] ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر، وقلة الزاد والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع لنا، قال: أتحب ذلك؟! قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[2] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو، وهم (كعب، وهلال، ومرارة)[3] ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور، وذلك بسبب أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأصدقاؤهم حتى تاب الله عليهم، ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويداوموا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام، بل عليهم أن يفدوه بالمهج والأرواح، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه،

---

(1) انظر الكشاف (٢/٣١٦).
(2) الطبري (١١/٥٥)
(3) انظر قصتهم في صحيح البخاري، كتاب المغازي، وفي الطبري (١١/٥٨).

علمًا بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام[1] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي ولا تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي ولا مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طريق الجهاد ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ أي ولا يدوسون مكانًا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي يغضب الكفار وطؤها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيرًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضًا ذهابًا أو إيابًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاء حسنًا وجزاء أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[2] ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[3] بحيث تخلو منهم البلاد ، روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدًا ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعًا إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية[4] ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي فإذا لم يمكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم وينذروهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقال «ليعلموا» بدل ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ و «يفقهون» بدل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[5] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ

---

(1) الكشاف (٢/ ٣٢٦) .
(2) روح المعاني (١١/ ٤٧) .
(3) وقيل المراد أن ينفروا لطلب العلم .
(4) الرازي (١٦/ ٢٢٥) .
(5) روح المعاني (١١/ ٤٨) .

وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما لأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[1].

٤- ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم.

٥- ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ بينهما جناس الاشتقاق

٦- ﴿لِيُضِلَّ﴾ .... ﴿إِذْ هَدَاهُمْ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُحْيِي﴾ . ﴿وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿ضَاقَتْ و رَحُبَتْ﴾.

٧- ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

٨- ﴿يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾.

٩- ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ طباق.

١٠- ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ قال في تلخيص البيان. السورة لا تزيد الأرجاس رجسا، ولا القلوب مرضا، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

تنبيه:

روي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح! ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب، فقال: كن أبا خيثمة فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له.

«تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام»

(١) تلخيص البيان (١٥٤).

تفسير سورة يونس

بين يدي السورة

* سورة يونس من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية (الإيمان بالله تعالى والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء) وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى (القرآن العظيم) خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولاً، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس...﴾؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة (الألوهية) و(العبودية) وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، وعرفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه، وأن يسلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر الحكيم. وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام...﴾ الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة، وأمراء البيان ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

* واهتمت السورة بتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته، الدالة على التدبير الحكيم، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ...﴾ الآيات. وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية.

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون الجبار، وذكرت قصة نبي الله يونس - الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين، ونصرة المؤمنين.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾.

التسمية: سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع

العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خص الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ... إلى ... فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠).

اللغَة: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال الليث: القدم: السابقة قال ذو الرمة:

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة ... لهم قدم معروفة ومفاخر[1]

وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش: سابقة إخلاص ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير: القضاء والتقدير على حسب الحكمة والمصلحة والعدل ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يُفَصِّلُ﴾ التفصيل: التبيين والتوضيح ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ الطغيان: العلو والارتفاع ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ﴿خَلَائِفَ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه.

سبب النزول: قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ...﴾ الآية[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ

(١) التفسير الكبير للرازي (١٧/٧). (٢) القرطبي (٨/٣٠٦).

أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى هذا الكلام البليغ المعجز مكون من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه[1] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ...﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو محمد عليه السلام؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن خوّف الكفار عذاب النار ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي وأن بشر المؤمنين بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن، قال المشركون: إن محمداً لساحر ظاهر السحر، مبطل فيما يدعيه قال البيضاوي: وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر[2] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهن في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله

(١) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة. (٢) البيضاوي (٢٣٥).

عن التذكر، ومتابعة الشهوات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغي والضلال ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان: ظلمهم، وعدم إيمانهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد هلاك أولئك القرون، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لنظر أتعملون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم قال القرطبي: والمعنى: يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل[1] وقال في التسهيل: معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[2] والغرض أن الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يعاملهم معاملة المختبر ليظهر في الوجود ما علمه تعالى أزلاً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين حال كونها واضحات لا لبس فيها ولا إشكال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ أي ائت يا محمد بكتاب آخر غير هذا القرآن ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان سب آلهتنا مدحهم، ومكان الحرام حلالاً، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس: نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا: يا محمد ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[3] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد: ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما يوحيه إلي ربي، فأنا عبد مأمور، ورسول مبلغ، أبلغكم رسالة الله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى إن خالفت أمره، وبدلت وحيه عذاب يوم شديد الهول هو يوم القيامة، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ أي ولا أعلمكم به على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه ولا أتلوه عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أن مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله! قال الإمام الفخر: إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلم من أحد، ثم

---

(١) القرطبي (٨/٣١٨).
(٢) التسهيل (١/٩٥).
(٣) البحر (٥/١٣٢).

بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل[1] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذب الرسل الكرام ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بيان لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع كائن في السموات أو الأرض لا يعلمه جل وعلا ، وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرقوا شيعًا وأحزابًا قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين[2] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لعجّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون : هلا أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم : أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلغ ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك .

البلاغة .

١ - ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض .

٢ - ﴿أَنذِرِ﴾ .. ﴿وَبَشِّرِ﴾ بينهما طباق .

٣ - ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة ، والعبارة غاية في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يدًا لأنها تعطى بها

---

[1] الرازي (١٧/ ٥٧) .
[2] المختصر (٢/ ١٨٨) .

٤- ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباق.

٥- ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه التفات مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

٦- ﴿الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل وبين الشر والخير طباق.

٧- ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه على سبيل التمثيل والتقريب، ولله المثل الأعلى.

٨- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

فائدة: قال السيوطي في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾: إن هذه الآية أصل في علم المواقيت، والحساب، والتاريخ، ومنازل القمر.

تنبيه: قال الحافظ ابن كثير: من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحندس الظلماء، قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل، قال حسان:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ...﴾ إلى ... ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٩).

المناسبة: لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكر، والجحود، والعناد، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية الله رب العالمين.

اللغة: ﴿عَاصِفٌ﴾ العاصف: الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار، قال الفراء: يقال عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم[1].

﴿الْمَوْجُ﴾ ما ارتفع من الماء فوق البحر، سمي موجاً لاضطرابه ﴿زُخْرُفَهَا﴾ الزخرف: كمال

(١) البحر (٥/١٣٠).

حسن الشيء ونضارته، سمي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿غَنِيَ﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعمره ﴿يَرۡهَقُ﴾ يغشى ويعلو يقال: رهقه أي غشيه ﴿قَتَرٌ﴾ القتر والقترة: الغبار الذي معه سواد قال تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تعلوها غبرة سواد، وقيل: القتر الغبار وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق:

متوّج برداء الملك يتبعه ... موج ترى فوقه الرايات والقترا

تزيله قرنا رميرا ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

التفسير: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ المراد بالناس كفار مكة روي أن الله سلط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه

---

(١) القرطبي (٨/٣٣٦).

ـتهم وزوالها، وزهدهم فيها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كل لون[1] ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، والأنعام من الكلأ والتبن والشعير ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أخذت حسنها وبهجتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار، وهو تشبيه بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصلون لثمرتها وغلتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبت إما ليلاً وإما نهاراً ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي: وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون[2] ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم[3] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾[4] أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي هوان وصغار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فيجزون على السيئة بمثلها لا يزادون على ذلك، فالحسنات مضاعفة بفضل الله، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى[5] ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي نجمع الفريقين للحساب: المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي فرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي تبرأ منهم شركاؤهم وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله قال مجاهد: ينطق الله الأوثان فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما

---

(١) الطبري (١٦/١٠٢).
(٢) روح المعاني (١١/١٠٢).
(٣) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم.
(٤) قال في الجمهرة: القترات جمع قترة وهي الغبار، والقتر [illegible] بالمعنى.

أمرناكم بعبادتنا"[1] كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهدًا بيننا وبينكم ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، لأننا كنا جمادًا لا روح فينا ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك الوقت تختبر كل نفس بما قدمت من خير أو شر، وتنال جزاء ما عملت ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي رجعوا إلى الله تعالى ليتولى جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات الأدلة على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر، ويخرج لكم الزروع والثمار؟ ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ الآية ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والنبات من الأرض، والمؤمن من الكافر؟ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي ومن يدبر أمر الخلائق، ويصرّف شئون الكائنات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي فسيعترفون بأن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لشدة وضوحه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكم غير الله؟ ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق، الثابت ربوبيته ووحدانيته بالبراهين القاطعة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الله، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله ورسالة نبيه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالهم ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يعيده ويحييه؟ قال الطبري: وإنما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك، وفيه الحجة القاطعة، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون، أمر ﷺ بالجواب[2] ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ

(١) القرطبي (٨/ ٣٣٣).
(٢) هذا ما ذهب إليه الطبري، وقال بعض المفسرين: المراد الرؤساء والمضلين الذين لا يرشدون أنفسهم إلى الهدى إلا أن يُرشدوا.

﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويعيد، وليس أحد من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي فقل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحق بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوون بين الأصنام وبين رب الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار، ثم بيّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي ما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان، بل مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظن كاذب لا يغني من اليقين شيئاً، فليس الظن كاليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب، وهو وعيد على اتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان. ثم بيّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل، ولا يستقيم لدى عقل سليم، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مختلق على الله، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكنه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي وفيه تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا شك في أنه تنزيل رب العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن، وهو تعجيز لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال الطبري: والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة، لأن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم، فإذا عجز جميعكم من الخلق أن يأتوا بسورة مثله، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز[1]. قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الكفر به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائماً أعداء لما جهلوا

---

(١) الطبري ١١/١١٤. (٢) الطبري ١١/١١٨.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

البلاغة:

١ - ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تسمية عقوبة الله مكرا من باب «المشاكلة».

٢ - ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة.

٣ - ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ هذا من بديع الاستعارة شبه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحلي والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.

٤ - ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ الأمر هنا كناية عن العذاب والدمار.

٥ - ﴿أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ بينهما جناس الاشتقاق

٦ - ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل.

٧ - ﴿يَبْدَأُ﴾ . . . ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، ومثله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ؟

٩ - ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والانجيل فإنهما قد بشرت به.

لطيفة:

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب) في تفسيره الظلال: «ما يزال البشر يكتشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون من رزق بعد رزق في السماء والأرض يستخدمونه أحيانا في الخير ويستخدمونه أحيانا في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تضل وكله من رزق الله المسخر للإنسان فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق ومن سطح الماء أرزاق ومن أعماقه أرزاق ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق حتى عفن الأرض كشف فيه العلم عن دواء وترياق»[١] وصدق الله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ . . إلى . . ﴿الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ . من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٧٠).

المناسبة: لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي، ذكر هنا أن منهم من يصدق بأن القرآن كلام الرحمن، ولكنه يكابر ويعاند، ومنهم من لا يصدق به أصلاً لفرط

(١) ظلال القرآن (١١/٤٥)

غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه. ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة.

اللغَة: ﴿الصُّمَّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بَيَاتًا﴾ ليلاً ﴿تُفِيضُونَ﴾ يقال أفاض فلان في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يَعْزُبُ﴾ يخفى ويغيب ﴿مِثْقَالِ﴾ وزن ﴿سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله جل وعلا عن النقائص.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ

الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن كذبك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقًا كان أو باطلًا ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئًا مما تقرؤه وتتلوه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو كانوا مع الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون؟ قال ابن كثير: المعنى ومن هؤلاء من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكن ليس أمر هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله[1] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة، ولكنهم عمي لا يبصرون بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عُمي القلوب؟ شبههم بالعمي لتعاميهم عن الحق، قال القرطبي: والمراد تسلية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصرًا يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ أي لا يعاقب أحدًا بدون ذنب، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال الطبري: وهذا إعلام من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداء منه بغير جرم سلف منهم، وإنما سلبهم ذلك للذنوب اكتسبوها، فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[3]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأهوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضًا كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني، وليس تعارف محبة ومودة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي لقد خسر حقًا هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور، وما كانوا موفقين للخير في هذه الحياة ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك، وإن توفيناك قبل فمرجعهم إلينا في الآخرة، ولا بد من الجزاء إن عاجلًا أو آجلًا ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه شاهد على أعمالهم وإجرامهم ومعاقبهم على ما اقترفوا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسول أُرسل لهدايتهم

(1) المختصر (2/195).
(2) القرطبي (8/346).
(3) الطبري (11/160).

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة قضي بينهم بالعدل قال ابن كثير: فكل أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضًا[1] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يعذبون بغير ذنب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقًا؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًا، ولا أجلب إليها نفعًا، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل أمة وقت معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلًا أو نهارًا فما نفعكم فيه؟ ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ كما يقال لمن يطلب أمرًا وخيمًا: ماذا تجني على نفسك ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ في الكلام حذف تقديره: أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك؟ قال الطبري: المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدقتم به في حال لا ينفعكم فيه التصديق[2] ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون: الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي هل تجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم؟ ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لستم بمعجزين الله بهرب أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[3] ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لو أن لكل نفس كافرة ما في الدنيا جميعًا من خزائنها وأموالها، ومنافعها قاطبة ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكن هيهات أن يقبل كما قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن أسفهم وندمهم. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال: أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير[4] ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي قضي بين

---

(1) المختصر ٢/١٩٦. (2) الطبري ١١/١٢٦

(3) وقيل: المعنى لستم بفائتين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة، من تفسير الطبري

(4) تفسير الجلالين ٢/١٩٦ وقال في البحر: وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولا خطر

الخلائق بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً، ولا يعاقبون إلا بجريرتهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «ألا» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا أيها الناس لكم فكل ما في السماوات والأرض ملك لله، لا شيء فيها لأحد سواه، هو الخالق وهو المالك ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم، واستيلاء الغفلة عليهم، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميت، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ خطاب لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظة لكم من خالقكم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب الكشاف: المعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم[1] ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال ابن عباس: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام[2] والمعنى: ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله، من القرآن والإسلام، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ خطاب للكفار العرب والمعنى: أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي فحرمتم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة، والسائبة، والميتة قال ابن عباس: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب، والحرث والأنعام[3] ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي وما ظن هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب فيحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة؟ كلا بل سيصليهم سعيراً، وهو وعيد شديد للمفترين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العقاب، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمر من الأمور، ولا عمل من الأعمال ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي وما

...[illegible] لا يكد يتميز [illegible] مفهوم جامع.

(١) الكشاف (٢/٣٥٢).

(٢) البحر (٥/١٧١).

(٣) المختصر (٢/١٩٨).

تقرأ من كتاب الله شيئًا من القرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي من وزن هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجل في اللوح المحفوظ. قال الطبري: والآية خبر منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي تنبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، ثم بيَّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي الذين صدقوا الله ورسوله، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالولي هو المؤمن التقي وفي الحديث «إن لله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم، قال: هم قوم تحابوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ...﴾ الآية»[2] ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين، حيث تبشرهم الملائكة[3] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته، وفي الآخرة بجنات النعيم والفوز العظيم كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والظفر بالمقصود الذي لا يضاهى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزنك ولا يؤسفك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم: لست نبيًّا مرسلًا، ثم ابتدأ تعالى فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، لله وحده، فهو ناصرك ومانعك ومعينك، وهو المنفرد بالعزة يمنحها أولياءه، ويمنعها أعداءه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع له سبحانه عبيدًا وملكًا وخلقًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع، وهي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا

---

(١) الطبري (١١/ ١٣٠). (٢) الطبري (١١/ ١٣٢).
(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي (الرؤيا الصالحة) التي يراها المؤمن أو تُرى له، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم، واختار الطبري أن البشرى تكون بالرؤيا الصالحة وبشارة الملائكة عند الموت.

الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحدسون ويكذبون، يظنون الأوهام حقائق ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا﴾ تنبيه على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته أنه جعل لكم أيها الناس الليل راحة لأبدانكم تسكنون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانية الله، لقوم يسمعون سماع اعتبار. ثم رد تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[1] فقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما نسبوا إليه، إنه المستغني عن جميع الخلق، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فالولد منتف عنه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون بنسبة الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي متاع قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله.

البلاغة

١- ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ و﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بينهما طباق السلب.

٢- ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ و﴿تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ الصمم والعمى مجاز عن الكافرين شبههم بالصم والعمي لتعاميهم عن الحق.

٣- ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ وبين [illegible] ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

٤- ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأراد الحال أي شفاء للقلوب لأن الصدور محل القلوب.

٥- ﴿حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ بينهما طباق.

٦- ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ قال في تلخيص البيان: هذه استعارة عجيبة، وسمى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا: ليل أعمى وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها[2].

---

(١) يا له من جهل وعمى! نسبوا إلى الله الأولاد ما يرغبون عنه لأنفسهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يخرصون!
(٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ١٥٦.

٦ - ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

فائدة

أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وفي سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ ذكره ابن كثير.

تنبيه

كلمة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى (أخبرني) فيقولون: أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير: أأبصرت حالته العجيبة، أو أعرفت أمره العجيب؟ فأخبرني عنها، ولهذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾؟ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾؟ وهكذا

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ...﴾ إلى قوله ﴿... وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٩).

المناسبة: لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة ذكر هنا بعض قصص الأنبياء تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص:

١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه.

٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون.

٣ - قصة يونس مع قومه، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن تدبر.

اللغة: ﴿كَبُرَ﴾ قال الواحدي: كبِر يكبَر كِبَرًا في السن، وكبُر الأمر والشيء يكبُر كِبَرًا وكبارة إذا عظم ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ الإِجماع: الإِعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء:

يا ليت شعري والمنى لا تنفع ... هل أغدُوَنْ يومًا وأمري مجمع (٢)

﴿غُمَّةً﴾ مبهمًا من قولهم غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طرفة:

لعمرك ما أمري عليَّ بغُمَّة ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا ولتلوينا، واللفت: الصرف عن أمرٍ وأصله اللَّيُّ يقال لفت عنقه إذا لواها ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿عَالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿اطْمِسْ﴾ الطمس: المسخ قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته ومنه عين مطموسة.

(١) الرازي ١٧/١٢٦. (٢) القرطبي ٨/٣٦٣.

فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاء ممن غرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم؟ والغرض: تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيم وشعيبًا ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل، ولم يزجرهم عقاب السابقين ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي كذلك نختم على قلوب المتجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين، تعودوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي فلما وضح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم: هذا سحر ظاهر بيِّن أراد به موسى أن يسحرنا ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر؟ ثم أنكر عليهم أيضًا باستفهام آخر ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي أسحر هذا الذي جئتكم به؟ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن دين الآباء والأجداد؟ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر، عليم بفنون السحر ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحر لا ما اتهمتموني به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ أي سيمحقه ويذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي يثبت الله الحق ويقويه بحججه وبراهينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم[1] ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ

---

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح.

البلاغة:

١- ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر أي على الله لا على غيره.

٢- ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣- ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ عبر عن الالتباس والستر بالغمة بطريق الاستعارة أي لا يكن أمركم مغطى كتغطية حيرة ومبهمًا فيكون كالغمة للعمياء.

٤- ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الشد استعارة عن تغليظ العقاب، ومضاعفة العذاب.

فائدة:

قال ابن كثير: دعوة موسى على فرعون كانت غضبًا لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ .. إلى .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ من آية (٩٠) إلى نهاية السورة الكريمة.

المناسبة: لما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد، وأن الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان.

اللغة: ﴿بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا وأسكنّا ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، امترى: شك وارتاب ﴿فَلَوْلَا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلّا ﴿الرِّجْسَ﴾ العذاب أو السخط ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الأديان الباطلة كلها ﴿يَمْسَسْكَ﴾ يصبك ﴿كَاشِفَ﴾ دافع ومزيل يقال: كشف الضر أي أزاله ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إلى أمركم.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۝٩٢ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٩٣ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٩٥ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ۝٩٨ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

بعبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم[1] ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير أي إن فرض أنك شككت فاسأل، قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل، وقال الزمخشري: هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل فإن وقع لك شك مثلاً، وخيل لك الشيطان خيالاً تقديرًا فسل علماء أهل الكتاب، وفرق عظيم بين قوله ﴿إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل[2] وقال بعضهم: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يقرءون التوراة والإنجيل، فإن ذلك محقق عندهم كما قصصنا عليك، والغرض دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي جاءك يا محمد البيان الحق، والخبر الصادق، الذي لا يعتريه شك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تكذب بشيء من آيات الله ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته، قال البيضاوي: وهذا من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين عنه[3] وقال القرطبي: الخطاب في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره[4] ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون أبدًا ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي فحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي غير قوم يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لما تابوا من الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة: روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب[5] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لو أراد الله لآمن الناس جميعًا، ولكن لم يشأ ذلك لكونه مخالفًا للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟ أي أفأنت يا محمد تكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إليك، والآية تسلية له ﷺ وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن

(١) الطبري (١١/١٦٧).
(٢) الكشاف (٢/٣٧٠).
(٣) البيضاوي (٢٤٥).
(٤) القرطبي (٨/٣٨٢).
(٥) الطبري (١١/١٧١).

عباس: كان النبي ﷺ حريصًا على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[1] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظر تفكر واعتبار، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قومًا سبق لهم من الله الشقاء ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم، وما حل بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد، انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين ننجي الرسل والمؤمنين بتنجاه مثل ذلك الإنجاء ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حقًا ثابتًا علينا من غير شك قال الربيع بن أنس: خوفهم عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى الله رسله والذين آمنوا معه[2] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم وبيده محياكم ومماتكم، قال الطبري: وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، وإنما ينبغي أن تشكوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، فأما إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق ويسمع ويضر[3] ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمنًا موحدًا لله لا أشرك معه غيره ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي وأمرت بالاستقامة في الدين على الحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيد للنهي المذكور أي ولا تعبد غير الله مما لا ينفع ولا يضر كالآلهة والأصنام ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وإن عبدت تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله، والخطاب هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضر فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ

(١) القرطبي ٨/٣٨٥. (٢) الطبري ١١/١٧٦. (٣) الطبري ١١/١٧٦.

الفهرس